



Σ ٨٢٥٨

# العروبة في شعر أبي تمام

دكتور

محمود رزق حامد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٨١٠.٩٠٣٥ حامد ، محمود رزق.

ج.م

العروبة في شعر أبي تمام /محمود رزق حامد -. ط١ -. دمشق:

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٢٠٤ ص ١٧.٥ × ٢٤.٥ سم .

تدمك : 978 - 977 - 308 - 354-5

١. العروبة في الشعر العربي ٢. الشعر العربي - تاريخ ونقد.

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٤٣ - ٢٠١٣.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دمشق - شارع الشركات - ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: eleim\_aleman@yahoo.com

eleim\_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأي شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2013

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة.....
١١	التمهيد.....
١٥	الفصل الأول : أضواء على عصر الشاعر.....
١٧	المبحث الأول : العصر العباسي الأول.....
٣٣	المبحث الثاني : حياة الشاعر.....
٦١	المبحث الثالث : المقصود بالعروبة عند أبي تمام.....
٦٩	الفصل الثاني : مظاهر العروبة في شعر أبي تمام.....
٧١	المبحث الأول : مظاهر العروبة في مدحه.....
١٠٤	المبحث الثاني : مظاهر العروبة في رثائه.....
١١٨	المبحث الثالث : مظاهر العروبة في فخره.....
١٢٧	المبحث الرابع : مظاهر أخرى للعروبة في شعره استعماله لغة طيء

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثالث: الدراسة الفنية لشعر العروبة عند أبي تمام
١٣٩	المبحث الأول : الصورة الأدبية .....
١٥٧	المبحث الثاني : العاطفة والخيال .....
١٨٣	المبحث الثالث : الموسيقى الشعرية .....
١٩٣	خاتمة بأهم نتائج البحث .....
١٩٩	المراجع .....

## مقدمة

الحمد لله الذي اقتضت حكمته أن يهب ذوي الألباب من  
الذكر عمراً ثانياً، استطاعوا به ألا تطوي آثارهم أيدي الأحقاب.  
فصدق عليهم قول القائل:

• والذكر للإنسان عمر ثان •

وقول الآخر:

• عمر الفتى ذكره لا طول مدته •

وجعل من الأدب صفحة تنطبع عليها فطرتهم السليمة وطباعهم المستقيمة  
فالأدب دائماً موقظ أرواح الأمم الكامنة ولبيل جليلها وجميلها ، قديها وحديثها.  
ويعد ....

فيمكن القول بأن الأدب في عصر العباسيين وصل إلى حد "البطنة"  
وما تلك إلا لأن أمشاج العقل العربي - آنذاك - قد اختلطت بأخلاق أخرى  
تتمذهب بمذاهب جديدة لم يالفها بعد العقل العربي ، وكان من شأن هذه الأخلاق  
أن قفزت بالعقل العربي نحو الصدارة في الترف العقلي والوجداني الذي كان ملكاً  
مشاعاً، لا يخص جنساً، ولا يعوق آخر - ولست بذلك متهماً للفترة التاريخية  
السابقة لهذه الفترة بالعقم الفكري أو الوجداني - كلا لعمرى - ولا ينبغي لي ذلك ،  
بيد أنني أردت القول، بأن هذه الفترة كانت بمثابة الحرب الصروس التي قامت بين  
معسكرين هما، العنصر العربي والعنصر الوافد عليه "المولد" والذي لم يعد نفسه  
بخيلاً بالعني الحرفي للكلمة، ومن شأن الدخيل أن يكون له حيزه الضيق ، ولغته

وأدبه وطباعه الخاصة، وإنما انطلق كالفارس الجامع، ينافس في كل مجال، وكانما ارتضع البلاغة وتوارث أساليب الفصاحة، وكانت روعة البيان وسحر البلاغة وطرافة التصوير والتعبير بمنزلة الميادين الذي تتسابق فيها الفحول من العسكريين.

ووجدنا أنفسنا نخرج من هذه الحرب بعُثم كبير، بيان من بُناة الحضارة الإنسانية في هذه الدولة إلا وهو "أبو تمام" صاحب العبقريّة الفذة التي شغلت - وما زالت تشغل - الفكر النقدي مدة طويلة إذ لم يكد الرجل يحتل مكانه بين الشعراء ويندمج في صفوفهم ويسير مع القافلة ويتقدم المجالس حتى رأينا بعض الغيورين منه، يكافحونه ويتصدون له بأساليب مختلفة.

ولم يكن ذلك منهم - في ظني - إلا لأنه أرقّ أجفانهم وأقضّ مضاجعهم بفكر جديد، لم يكن مألوفاً لعامة الناس ولا حتى لخاصتهم.

ولكن الخير قد يكون كامناً في الشر، إذ يمكن القول بأن أبا تمام بذلك قد اتسع ذكره، ودوت شهرته كل أقطار الأرض في زمانه، وهياً له الله من يذيع صيته حتى بعد موته.

وقد أقدمت علي هذه الدراسة لأسباب دفعتني إلي النهوض بها - منا؛

✓ إضاءة جانب من جوانب حياة أبي تمام كان غامضاً قبل هذه الدراسة فأردت بهذه الدراسة كشف اللثام عن ذلك الجانب وإبرازه وأضحاً جلياً لا تبقي معه شبهة في عدم عرويته وإسلامه خاصة وأن هذا الجانب لم يتعرض له أحد بالدراسة قبل ذلك.

✓ ما وجدته من تهجم علي الرجل أخرجه من حوزة العروية وخلع ريقة الإسلام من عنقه، لمجرد كلمات قالها بعض المؤرخين القدامى وتابعهم في ذلك بعض الباحثين بأن اتهموه بأنه غير عربي، واتهمه البعض الآخر بأنه

غير مسلم وجعلوا من ذلك سببا لهجنة شعره والعيب عليه ، وأن كان ما قالوه محل شك كما سيرد في ثنايا صفحات البحث .

إلا أنه في الوقت نفسه لم يعدم الرجل أن يجد مادحين يرتفعون به إلى عنان السماء ويجعلونه من أصحاب الإبداع والاختراع ، والمتقدمين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضرويه ، لاسيما وأن الشعراء أجراً الناس علي الاختلاق

وبعد .....

فلست بهذا الذي أقول أريد أن ابرز للقارئ أو السامع "أبا تمام" في صورة الإنسان الذي لا يطوله خطأ ، أو الشاعر الخزير الذي لا يطاوله شاعر ، ولا أغمض من قدر غيره وأحط منه واجعله دونه ، فقط حاولت إظهار أحد جوانب حياة هذه الرجل واضحاً جلياً من خلال العرض والتحليل للآراء المؤيدة والمعارضة مؤيداً ما يستحق التأييد، ومفنداً ما يستحق التفنيد قدر استطاعتي.

..... أما الشاعر نفسه فإنني أمدحه متى كان مستحقاً للمدح ، وأذمه أيضاً

متى استحق الذم والله در شوقي إذ يقول :-

وامدح علي الحق الرجال ولمهمو أو خل عنك مواقف النصاح

.... وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن اجعل بحثي هذا في ثلاثة فصول .

تسبقها مقدمة وتمهيد ، ويتبعها خاتمة بأهم نتائج البحث وفهرس للأعلام وآخر للاماكن والأيام والوقائع التي ورد ذكرها في البحث ثم ثبت للمراجع والمصادر ثم فهرس للموضوعات التي ورد ذكرها في ثنايا الدراسة.

#### أما المقدمة :

فقد تحدثت فيها بإيجاز عن طبيعة هذا البحث وبينت فيها أسباب

اختياري لموضوعه وما يحتويه من فصول ومباحث.

أما الفصل الأول : فعنونت له بـ "العروبة في عصر الشاعر وحياته " .



وقسمته إلى ثلاثة مباحث.

أما المبحث الأول: فسلمت فيه الضوء على عصر الشاعر سياسياً ، واجتماعياً وثقافياً وبينت فيه كيف كانت الحياة العباسية ذات أثر كبير في تكوين الشاعر ورسم شخصيته وتعبيره عنها.

وأما المبحث الثاني : فتحدثت فيه عن المقصود "بالعروية".

وأما المبحث الثالث : فتحدثت فيه عن حياة الشاعر وتشمل مولده ونسبه ونشأته ورحلاته وتنقلاته بين أقطار الدولة وأثر ذلك في حياته وشعره ثم موته، وبعض الذين رثوه.

وأما الفصل الثاني :

فعنوانت له بـ "مظاهر العروية في شعر أبي تمام" وقسمت هذا الفصل إلى

أربعة مباحث:

أما المبحث الأول: فتحدثت فيه عن مظاهر العروية في مدحه ، وتحدثت فيه أيضاً عن أولئك الذين مدحهم لأنهم رموز العروية وكان من هؤلاء: الخليفة المأمون والخليفة محمد المعتصم وخالد بن يزيد الشيباني والي الموصل للمأمون.

وأما المبحث الثاني: فتحدثت فيه عن مظاهر العروية في رثائه. وبينت في هذا المبحث كيف كان أبو تمام ينعي للعروية أبطالها ولا يكفكف عبراته حتى تشتفي العروية لنفسها.

وأما المبحث الثالث : فتحدثت فيه عن مظاهر العروية في فخره : سواء أكان فخراً بالنفس أم بالقبيلة.

وأما المبحث الرابع : فتحدثت فيه عن مظاهراً أخرى للعروبة في شعره .  
كاستعماله لغة طيبيء ، واتبعت هذا المبحث بظاهرة عامة لشعر العروبة  
عند أبي تمام وهذه الأغراض دون غيرها ظهرت فيها ملامح عرويته .  
وأما الفصل الثالث: فهو الدراسة الفنية لشعر العروبة عند  
أبي تمام وقسمته إلى ثلاثة مباحث:  
المبحث الأول: تحدثت فيه عن التعريف بمصطلح الصورة الأدبية وأسلوب أبي  
تمام، ومقومات الأسلوب عنده كاللفظ والمعنى ثم بناء القصيدة عنده  
ويتناول ذلك المطلع ثم الخروج أو التخلص ثم المقطع أو الخاتمة.  
وأما المبحث الثاني: فتحدثت فيه عن العاطفة والخيال عند أبي تمام ويشمل  
هذا المبحث: العاطفة في شعر العروبة عند الشاعر ، وبعض الأساليب التي  
شاعت عنده والتي لها ارتباط بالعاطفة كأسلوب الاستفهام.  
ثم الخيال عنده ويشمل ذلك دراسة موجزة لبعض الصور الخيالية كالتشبيه  
والاستعارة، وبعض المحسنات البديعية كالطباق.  
أما المبحث الثالث : فتحدثت فيه عن الموسيقى الشعرية عنده وكيف أنه لم  
يتخل عن الوزن والقافية لأنهما يمثلان عنده بعداً موسيقياً أثيراً ،  
وتحدثت فيه أيضاً عن موسيقى العبارة والبيت ، ثم اتبعتهما بملحظ  
آخر مهم في موسيقى الشعر ألا وهو طريقة إنشاد الشعر ، وكيف أن الشعراء  
الذين لم يملكو زمام حسن الصوت أو طريقة الإنشاد كان يتخذ غلاماً لإنشاده  
شعره .

#### أما الخاتمة :

فقد ذكرت فيما أهم النتائج التي توصل إليها البحث والتي منها:-

- غرام أبي تمام بمديح العرب دون غيرهم، وإعلانه للسجايا العربية وذلك من دلائل عرويته .
- إن وصفه بالنصرانية لا يتنافي مع عرويته.....

### تمهيد

- إننا كان الأمويون قريبي عهد بالجاهلية يميلون إلي كل ما كان يميل إليه العربي الأول - لاسيما المباهاة بالدم العربي والآباء والأجداد ، والسجايا العربية من شجاعة وجود ، وإغاثة مستجير - ولذلك وجدناهم يستلهمون هذه الصفات وينسجون علي منوال الأقدمين في حرص بالغ ألا يخرجوا عن الإطار المرسوم - فلن نعدم في العصر العباسي - وإن فتح الباب علي مصراعيه أمام الأجناس الوافدة من غير العرب - من يعلي هذه السجايا ويشيد بناءها ، ويجعلها مناط الإعجاب والتقدير وكأن هذه الطوائع قد ملكت عليه شعوره وتفكيره، لاسيما أن العصر العباسي قد تخلي عن التخلّف ، وعوامل الركود ، وأمية التفكير، وجمع القلوب حوله بإزالته وإنابته الفوارق وقطعه الحواجز وتسويته بين الناس عرباً وغيرهم
- وإذا تكلمنا عن الأدب في العصر العباسي فلا بد أن نذكر أنه كان خصباً إلي أبعد حدود الخصوبة، خصوصية تركت أثراً لا تطمسه الأعاصير، ودفعته إلي الأمام أشواطاً بعيدة ، خصوصية أينع جناها وآتت أكلها بعد أن استوي علي سوقه، وصارت لغة الضاد لا ينقصها صقل ، ولا تفتقر إلي فضل، لأن بني العباس لم يكونوا أقل شأناً من سابقيهم في فصاحة البيان، وحسن الكلام ، وبراعة القول.
- في هذا العصر بما فيه ومن فيه من أساتذة البيان العربي الذي بلغ أسلوبهم القمة ، ينشأ "أبو تمام" بن أوس وكان مرباه في دمشق إحدى دور العروبة من قديم وهو من أبناء "طلي" القبيلة اليمنية العربية التي نزلت في العصر الجاهلي شمالي "نجد" واتخذت الفصحى لساناً لها.

• ولشيء ما في نفوس شائثيه فقد حاولوا إلقاء ظلٍ من الشك علي نسيبه  
فزعموا أن أباه كان نصرانياً اسمه "تَسْذُوس" وأنه حرّفه إلي "أوس"  
وانتسب في "طبيء" ومن هذا ما يرويّه أبو بكر الصولي في كتابه "أخبار  
أبي تمام" من أن قوماً ادعوا علي "أبي تمام" الكفر، بل حققوه وجعلوا ذلك  
سبباً للطعن علي شعره وتقبيح حسنه.

ونمادي هذا الزعم ببعض المستشرقين من أمثال "مَرْجَلِيُوث" فقال : لعل  
تَسْذُوس" محرفة عن تِيُوثُوس" وقال "كارل بروكلمان" بل هو من النصارى السريان.  
واتبع ذلك بعض الباحثين المعاصرين من العرب أمثال "طه حسين" فزعم  
أنه يوناني.

وهي مزاعم مبنية علي اتهام باطل أشعل جذوتها ونفخ فيها بعض شائثيه  
ممن عاصروه، وهو اتهام ينقضه نقضاً كل من ترجموا لأبي تمام من المؤرخين  
الثقات إذ أجمعوا علي أنه طائفي الأصل.

يقول الدكتور/ محمد مندور في كتابه "النقد المنهجي عند العرب" :  
( وكتب النقد التي بين أيدينا لا تحمل أي صدى لهذه التهمة التي لم نجدها  
إلا عند الصولي الذي يريد أن ينتصر لأبي تمام بكل الوسائل، وأن يجرح خصومه  
بكل السبل).

ويقول أيضاً:

(ونحن عندما ننظر في الشعر الذي هجي به أبو تمام نجده يدور دائماً حول  
اتهامه في نسبه، فأبو تمام كان يتهم بأنه نبطي، وأنه وُلِدَ لأب نصراني، ولربما كان  
في ذلك ما يفسر اتهامه بالكفر

وإذا تصفحنا ديوان أبي تمام، وجدنا شواهد كثيرة تقطع بعروية هذا الرجل.

يقول أبو غام في معرض فخره بقومه.

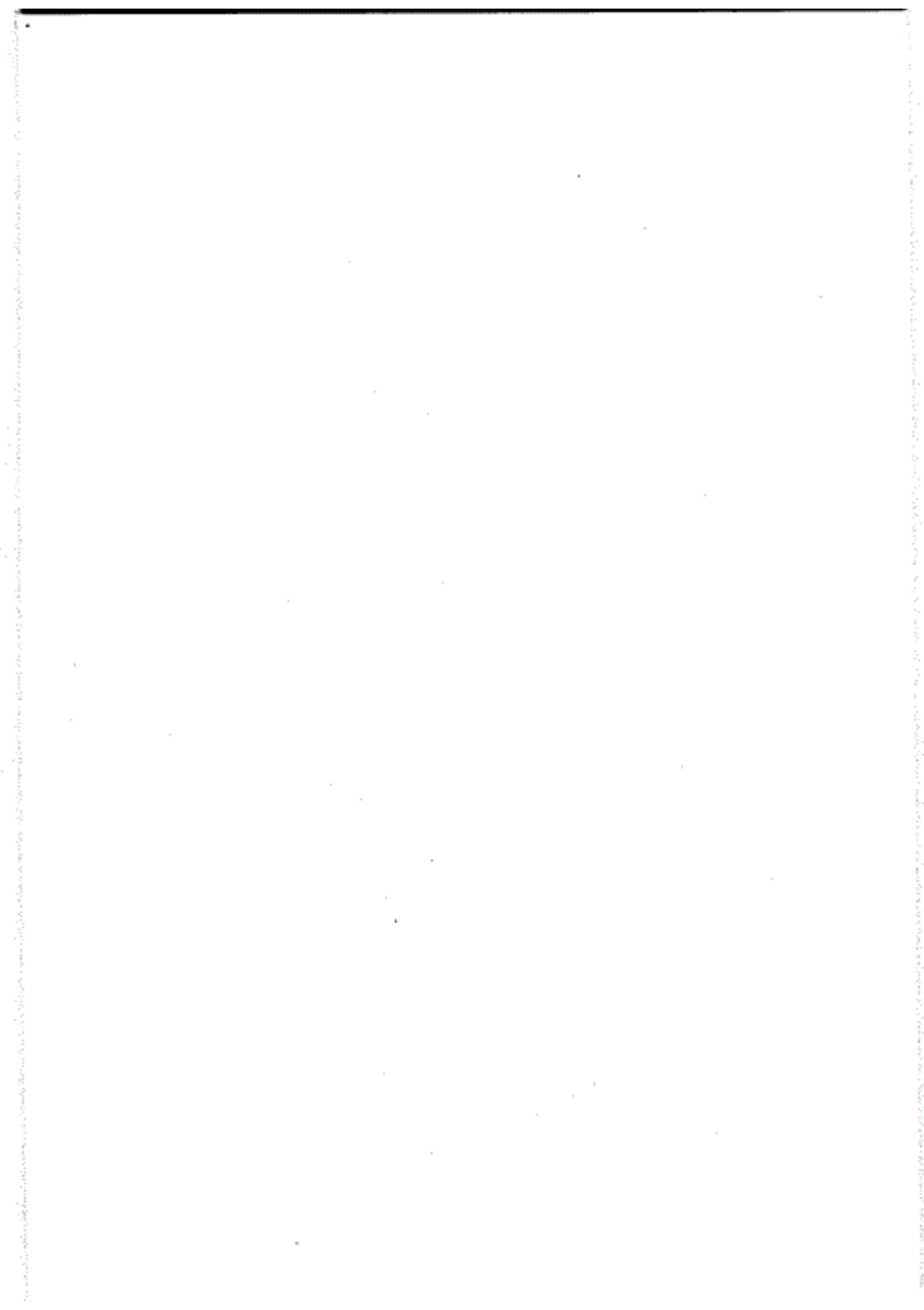
أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم      وسمي فيهم وهو كهل ويافع  
مضوا وكان المكرمات لديهم      لكثرة ما أوصوا بهن شرائع  
بهايل لو عاينت فيض أكنهم      لأيقنت أن الرزق في الأرض واسع  
وأبوتام لا يستشعر يمينته وطائيته في إشعاره فحسب بل يستشعر - في  
قوة - عرويته التي تجمع قبائل قحطان وعدنان جميعاً لا فرق بين قبيلة وقبيلة وقد  
كان الشعراء من قبله ألسنة قبائلهم ، يسجلون مفاخرها ويذيعون علي الدنيا مآثرها.  
اسمع إليه يقول:-

وإن يك من بني ألد جناحي      فإن أثيث ريشي من إباد  
فأدد يرمز بها لـ "طليء" وقد جمع بينها وبين إباد.

هذا ، وقد اختار "أبوتام" في مطالع حياته ممدوحيه ومن يقدم إليهم  
قصائده إما من طليء "قبيلته" وإما من قبائل اليمن الأخرى.

وظل أبوتام طوال حياته مدافعاً عن حياض العروبة مفضلاً لها علي غيرها  
لا يستثني من ذلك أي جنس.

شاعر من هذا الطراز - شديد التعصب للعروبة وشديد الإشادة بها في كل  
موقف تنتصر فيه علي غيرها - حق له أن يكون شاعرها الكبير وعبقريتها الفذة.

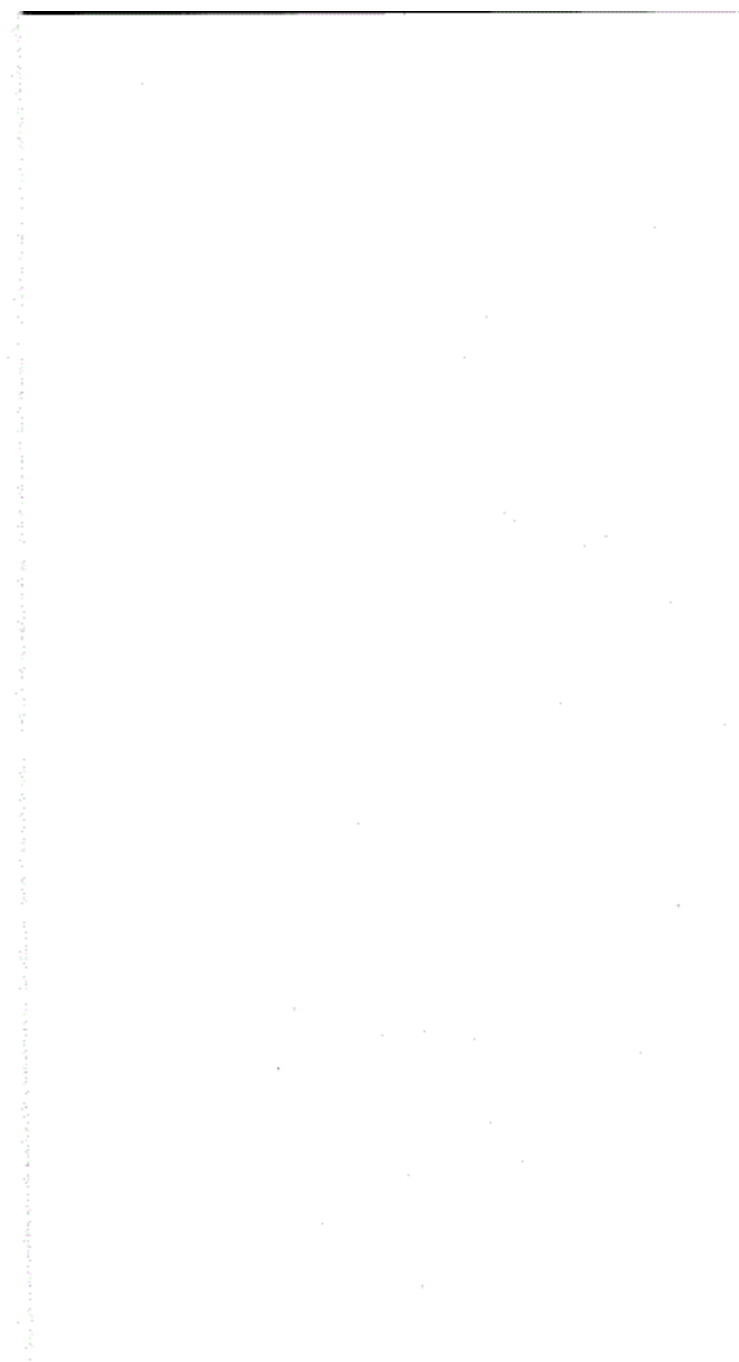


## الفصل الأول

أضواء علي عصر الشاعر

- **المبحث الأول:** الحياة العامة في عصره.
- الحياة السياسية .
- الحياة الاجتماعية.
- الحياة الثقافية.
- **المبحث الثاني:** حياة الشاعر وتشمل:
- مولده – نسبه – نشأته.
- رحلاته.
- موته – رثاته.
- **المبحث الثالث:** مفهوم العروبة والمقصود بها .





## المبحث الأول

### العصر العباس الأول (١) " ١٣٢ - ٢٣٢ "

• يرى بعض المؤرخين لتاريخ الأدب أن العصر العباسي ليس سنوي هذه الفترة الزمنية التي بدأت عام اثنين وثلاثين ومائة، ثم انتهت عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة ، حين تغلب بنو بويه من الديلم علي الدولة، وآل الحكم إليهم وصار السلطان بأيديهم وتلك الفترة الزمنية التي تعدل قرنين من الزمان جرت فيهما الحوادث بكثير من التقلبات التي كان لها أكبر الأثر في أن ينتقل الأدب من حال إلي حال ، ومن طور إلي آخر، وتأثر تأثراً لا يخفي علي ذي فطنة وبصيرة.

إلا أن المؤرخين القدامى دأبوا علي أن يمتدوا بتاريخ العصر العباسي إلي أبعد من ذلك ويسترسلوا به خمسة قرون وربع القرن تقريباً ، كان نهايتها سقوط "بغداد" في أيدي التتار بعد منتصف القرن السابع من هجرة المصطفى "عليه الصلاة والسلام".

ولعل حجتهم التي اعتمدوا عليها في رأيهم هذا أن فكرة كون الخليفة "ظل الله في أرضه" ربما كانت راسخة في أذهان المسلمين حقبة طويلة ، وكان للخليفة في نفوسهم قداسة ، وفي قلوبهم احترام ، جعل القلوب تجتمع علي حب الخليفة ، وتتطلع إليه الأنظار ، ويدعو باسمه الخطباء علي المنابر وتجي له ثمرات كل شيء ولعل هذا ما جعل الأمر يستقيم لولائه وأمرائه ، ويحسن لهم القرار ، حيث

١ - ينسب هذا العصر إلي العباسيين علي وجه من التظليل لقوة أثرهم فيه ومبلغ نفوذهم منه ولكن الكلام فيه يتناول العباسيين في بغداد والبربريين في فارس والحمدانيين في الشام. والفطيميين في مصر والمغرب والأمويين في الأندلس إلا أن هذه الأسماح علي تبليغها وتلافيها إنما كانت تكتم بهدي بغداد وتستمد منها ، فليس لها في القلوب أدب مستقل.

كانوا يسوسون (١) الرعية باسمه ومن أجله، ويزعمون أنهم جنوده الذين يعملون له ، ومن هنا لم يكن أحد ليستطيع أن يكفر بالخلافة ولا أن يبيل عنها ولا يشق لطاعتها عصا ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن شباب هذا التاريخ - أعني الخمسة قرون الأولى وربع القرن السادس - وربعان عمره وزهرة حياته في القرنين الأولين ، أما ما عداهما من الأعوام ، فإنه كان احتضاراً تعانيه الدولة ، وهزالاً تقاسيه الخلافة ، ومرضاً يدب في أوصال البلاد في كل أرجاء الممالك ، رغم ما ظهر في بعض الجهات من نشاط علمي أو انتعاش أدبي ويقظة عند كثير من أصحاب الفكر.

إن الذين قصروا اسم "العصر العباسي" على تلك الحقبة الوجيزة من عمر الدولة في القرنين الأولين ، ربما كانوا على حق واستقام لهم هذا الزعم ، وما ذلك إلا لأن العربية في هذه الفترة كانت في عنفوان شبابها ، وأوج عزها ، وأحسن أيام تاريخها ، وذلك لأن العباسيين الذين خلفوا الأمويين على كرسي الخلافة وتلقوا منهم الراية ، لم يكونوا أقل منهم شأنًا في ذرابة اللسان ، وفصاحة البيان وبراعة الحديث ، وجودة الكلام ، وحسن اللفظ ، وحمل راية الأدب ، لأنهم ارتضعوا - كبني أمية - أفوايق (٢) العربية، وأخذوا من القرآن والسنة بنصيب.

بالإضافة إلى ذلك - فقد كان العباسيون يمثلون "الحزب المناوي" والمناهض لسابقيهم ، ومن شأن المعارض أن يكون على غير قليل من قوة الحجة وسلامة المنطق ، وبراعة القول، ولدد الخصومة ، وكذلك مهارة الإقناع وتصريف مناحي الخطاب.

هذا بالإضافة إلى المزايا التي تمتع بها العباسيون ، فقد أضافوا إلى اللغة مزايا ما عرفوه وغنموه من تراث جديد لعناصر غير عربية ممن دخلوا في الإسلام

١ - أي يتكلمون مبادئهم ويمثلون أمورهم بالسوي: الرئاسة لسان العرب ج ٣/٢١٩ ط دار المعارف.  
٢ - جمع فوقة وهي اللين.

وامتزجوا في العرب وسارعوا أن تكون لغة (الضاد) هي لسان الخطاب لها، والتي تتفاهم بها، حتى لقد أصبح الإقبال علي اللغة من المغلوين الفرس أشد وأظهر من الفاتحين الغالبين.

- وهذا صنيع قد عاد بالفوائد الجمة علي اللغة وتراثها ودارسيها ، وحسبنا دليل علي ذلك أن أسماء من سجلهم التاريخ وحفل بهم ، وكانت لهم اليد الطولي علي الثقافة الإنسانية إنما كانوا من غير العرب ، وإن كان الإسلام – الذي اعتقدوه – قد أذاب الفوارق وسوي بين الناس ، فأصبح الناس لا يقولون هذا عربي وهذا غير عربي.
- وكان ذلك ناتجاً من إفساح العباسيين صدورهم لمواليهم من الفرس ، ولعل هذا السبب نفسه الذي أصاب السياسة العباسية بالهزال ، واللغة والأدب بالانتكاس في نهاية الأمر.

## الطابع السياسي للعصر العباسي "عصر الشاعر سياسياً"

إن ما فعله الأمويون من انحراف في الحكم واستبداد في الرأي ، وعسف في السلطان وإثارة للعصبية ، أشبه ما يكون بالمقدمات المنطقية التي كان من نتائجها ، هذا التحفز للوثوب عليهم ، وشق عصا طاعتهم ، وانتزاع الخلافة من أيديهم قسراً والقضاء علي دولتهم قضاءً مبرماً.

حيث كان هناك من الأسباب الكثيرة التي يكفي أحدها أن يأتي علي بنيان هذه الدولة من القواعد ويحيلها فلولاً لا قوة ولا بأس لها يقضي ومن هذه الأسباب:-

السبب الأول: وجود بني هاشم ومن كان يؤازرهم من شيعة الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بجانب الأمويين ، ليس هذا فقط ، وإنما كانوا يعدون الخلافة حقهم المغتصب وتراثهم المسلوب المضيع ، مما كان يجعل معاوية يحس بالارتباك والتخبط في أمره ، فيستعمل الشدة والعنف الغاشم أحياناً وأحياناً أخرى يلجأ إلي المداينة واللين المصطنع.

السبب الثاني: إثارة العصبية بين الطوائف ، والتي كان معاوية يزعم - لدهاء عقله ، وكياسة رأيه ، وحسن تصرفه - أنها تشغل المسلمين وتلهيهم حتى لا يجدوا من وقتهم مجالاً ولا متسعاً للحديث في أمر الخلافة ولا في طلبها ، بل ولا في التعرض بالنقد للقائمين علي أمر المسلمين باسمها ، وكان يستعين علي إثارة العصبية ووجود الحزازات بالشعراء الذين يقريهم من مجلسه ، وينحهم بره ومعروفه وكل هدفه من ذلك التفتيش علي خصومه وكفي ، فإن تصدي له شاعر مناوئ أغضى عنه وتساهل معه.

دخل عليه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري فقال له : يا أمير المؤمنين - إن عتبة الأسدي يقول:

معاوي إننا بشر فاسجح  
فلما بالجبال ولا الحديد (١)  
لكلتم أرضنا وجردتموها  
فهل من قائم أو من حصيد (٢)  
فهبنا أمة هلكت ضياعاً  
يزيد أميرها وأبو يزيد  
أتطمع في الخلود إذا هلكتنا  
وليس لنا ولا لك من خلود  
نروا خول الخلافة واستقيموا  
وتأمر الأرازل والعبيد ! (٣)

وما ينفعك - يا أمير المؤمنين - أن تبعث إليه من يحضره إليك لتضرب عنقه ؟ فقال له معاوية : أفلا خير من ذلك - يا أبا بردة - قال : وما هو يا خليفة رسول الله ؟ قال : نرفع أيدينا إلى السماء ، وندعوا عليه.

ولعل في تلك العبارة الأخيرة ما يدل على ما ذكر في السبب الأول من تكلفه ولينه المصطنع.

السبب الثالث: قوة النزعة الانتقامية - عند الأمويين - لاسيما من الذين كانوا موالين لغيرهم ممن دال الدهر على دولتهم وفشلوا وذهبت ريحهم ، حتى لنجد (سليمان بن عبد الملك (٤) بعد أن صارت الخلافة إليه ينتقم من كل من كان هواه مع أخيه الوليد ليس لشيء سوى أن الوليد كان يريد حرمانه من ولاية العهد.

(١) - معاوي: أصلها معاوية ودخلها الترخيم لأجل النداء لتسهيل النطق بها - والإسجاح: حسن العفو لسان العرب ج ٣ ص ١٩٤٠ ط دار المعارف والأبيات من بحر الوافر الذي أجزأه مقاطعتان مقاطعتان مقاعل (فعلان).

(٢) - الشاعر متأثر بقوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (سورة هود: ١٠٠).

(٣) خول الخلافة: خدمه وفي الحديث "أخواتكم خولكم"..... الحديث  
(٤) - من أبرز رجال الدولة الأموية ، كانت أيامه أيام فتوح وصران وكان غيوراً على محارم الله شديد الخوف منه ، وقد أراد في مرض موته أن يبايع لبعض أولاده فتصحه أحد المتخلصين له قاتلاً: (إنما يحفظك الله في قبرك أن تختار للمسلمين رجلاً صالحاً ، فقال له : استخير الله تعالى ولعل ، ثم جعل ولاية العهد لمر بن عبد العزيز).

يقول الدكتور/ محمود مصطفى:-

(كان شأن الدولة الأموية أنها حكمت الناس بالسيف المسلول والمال المبدول ، فكان سيفها مصلتاً علي أعدائها ، ومالها متدفقاً في أيدي أنصارها واستمرت في حكمها زهاء قرن لم تغمد السيف يوماً ما ) .

السبب الرابع: ما عرف عنهم من البطش والنصرة العربية العارمة والعصبية العنيفة جداً ضد الأجانب والتي تزعمها الخلفاء أنفسهم ، كل هذا أثار سخط أقوام وأيقظ الإحن(١) في قلوب آخرين ، وحول تفكير المسلمين من الانتظار ليوم الخلاص إلي الالتفاف حول بني هاشم ليس للعطف عليهم والحب لهم - لأنهم ربما كانوا من آل البيت - وإنما علي معني أوسع من ذلك وهو الرجاء فيهم والتطلع أن يكون الخلاص علي أيديهم . لهذا وغيره من الأسباب كانت نهاية دولة بني أمية وزوال عهدها وانقضاء زمنها شيئاً متوقباً ونتيجة محتومة .

وقد يظن ظانٌ بعد ما قُدم في بني أمية أن بني العباس كانوا يبرزون في مسوح الرهبان ولباس الأبرار الأطهار ، وشعار الأتقياء الصالحين ، أقول له: كيف؟! وهم الذين غيروا هوية الخلافة الإسلامية إلي أخرى غير عربية ، وحكومة شبه أجنبية بما استنوه من سنة عدم الثقة - إلي حد بعيد - في الجنس العربي وعدم الاطمئنان إليهم والاستعانة بهم ، وفتح الباب علي مصراعيه ليدخل منه كل أجنبي طامع ولا يزال سلطانهم يتمكن ، ونفوذهم يمتد ، وحكمهم يطلغي ، حتي أصبحوا دولة داخل الدولة ، وانطلقت الأيام مسرعة بهم حتي كان منهم الوزراء ورؤساء الديوان وكبار الكتاب والشعراء والمتصديرون للتدريس والإفتاء ، واللغويون ، ولم يكن ذلك كله عن تساهل المتواني وتخلف الكسول بل كان عن دأب وجد وعمل متواصل .

(١) الإحن، أو الإحنة : الحقد في الصدر - لسان العرب ج ١ - ص ٣٥ .

إن الدولة العباسية التي تحول بسببها مجري التاريخ وتغيرت بقدمومها معالم الخلافة . كان لا بد أن يكون لها طابع سياسي مختلف عن غيره – رضيت أم أبت – وكان لابد – كذلك – أن يكون من وراء هذا الطابع الجديد ؛ نتاج جديد في الأدب المنظوم والمنثور وربما كان من الغريب أن يصبح الطابع السياسي شيئاً غير مألوف ، أو معني غير معروف مع أن الدولة لا تزال عربية مسلمة ، والخلفاء لا يزالون من دم عربي وعناصر عربية ، فقد قامت الدولة العباسية بحمل في أعطافها معارضة سياسية ، هي معارضة المطلبين أبناء عمومته الذين اعتقدوا أنهم أصحاب الخلافة الإسلامية وأن الدعوة كانت باسمهم ، ولكن العباسيين اغتصبوا حقهم ؛ فوقف الطالبون منهم موقف الشيعة أو الهاشميين قبل ذلك من الأمويين .

وقد كان شعار الدولة الذي نادت به في الناس منذ أول يوم تربع فيه أول خليفة من خلفائها علي كرسي الحكم ، أنها لا تفرق في الحقوق والمعاملات بين مسلم ومسلم ولا بين عربي وأعجمي ، وقد كان لهذه النعمة صدي طيب ، وقبول واستجابة ، وإعلان عن العهد بأنه عهد راشد ، حكومته العدل وشرعته الإنصاف لأنه لا يفرق بين إنسان وإنسان لاعتبارات تافهة ، وأصبح الذين كانوا بالأمس يظأطون رؤوسهم خزيًا وخجلًا لأنهم غير عرب ، يتطاولون بأعناقهم تسامياً إلي السماء لأنهم يعيشون في ظل سلطان يحميهم وخلافة ترفعهم .

ومع هذه الثقة التي منحها العباسيون بسخاء للفرس ، كان هناك رهبة ظالمة ، وقسوة غاشمة ، وضرب علي أيدي الناس بساط من حديد إذا ظن أنهم خارجون علي الدولة أو غير موالين للخلافة .

**يقول الدكتور خفاجي – (كان للخليفة العباسي الرأي الأعلى والسلطان الكامل ، والكلمة النافذة ، والرأي القاطع وربما أوجس في نفسه خيفة**



من معاونيه من الغرس فيبطش بهم كما فعل المنصور بأبي مسلم الخرساني ، وكما فعل الرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل(١) وفي معرض الحديث عن الحياة السياسية في العصر العباسي الأول يضيف الدكتور/ خفاجي قائلاً:- (شهد هذا العصر عظمة الخلافة العباسية وامتد في ظلال سلطاتها العظيم ونفوذها الكبير ، وكان عهد استقرار وازدهار ، وقد ثبتت قواعد الدولة علي يدي المنصور وامتد نفوذها في كل مكان في أيام المهدي ، وتألفت حضارتها وعظمت هيبتها في زمن الرشيد والمأمون وتوالت انتصاراتها العسكرية في خلافة المعتصم وظلت في قوة وازدهار في عصر الواثق والمتوكل)(٢) ولكن في خلال ذلك لا نهمل من شأن تلك الثورات التي أشعلها الشيعة ضد العباسيين ، وظهور فرق الشيعة المطالبة بالخلافة، كالزيدية(٣) في البصرة والإمامية الإثني عشرية(٤) في العراق والإسماعيلية(٥) في شمال إفريقيا ، ولكن جيوش الخليفة العباسي كانت تخمدتها وتحمي استقرار البلاد ، ومن الثورات الكبيرة التي كادت تعصف بالخلافة - ثورة الزنج التي استمرت أربعة عشر عاماً ، وثورة القرامطة التي أحدثت اضطراباً كبيراً في البلاد وأغاروا علي الكعبة وقتلوا حجاجها.

وضح إذن أن هذا العصر كان مليئاً بالثورات بيد أن الخلافة في أولها كانت قوية استطاعت أن تخمد هذه الثورات وتترك البلاد وقد سادها الاستقرار.

١- تاريخ الأديب في العصر العباسي الأول / ص ٣ الطبعة الثانية ، الناشر / مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة سنة ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م.

٢- السابق / ٣ ، ٤ .

٣- الزيدية : نسبة إلي زيد بن علي بن الحسن وقد توفي سنة ١٢٢ هـ.

٤- فرقة من الشيعة الإمامية أتباع محمد الباقر بن علي بن الحسين وعرفوا بهذا الاسم لأنهم يقولون بوجود سلسلة من الأئمة تنتهي بالإمام الثاني عشر محمد المهدي المنتظر.

٥- نسبة إلي إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٣ هـ.

## الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول

كان لاندماج العرب في أهل البلاد المفتوحة ، ورغبتهم في التعرف إلى تلك الأنواع التي تقع عليها أبصارهم ، من ضروب الفنون واللوان المدنية والحضارة أثر بالغ في إقبالهم واستجابتهم لمسيرة هذه الألوان ، وتلك الضروب من الحضارات والمدنيات القديمة والحديثة.

يقول أحمد أمين في كتابه ( ضحى الإسلام ) : ( لئن كان خلفاء الأمويين ينقلون إليهم بعض العادات مع صبغها بصيغتهم ، فالعباسيون كانوا ينتقلون بحذافيرهم (١) إلى العادات الجديدة والتقاليد الطارئة (٢) وهي عبارة علي وجازتها تدل علي ما كان عليه العباسيون من التنازل عن مقوماتهم والتهاون في تقاليدهم ، والتناسي لعاداتهم ، والتذكر لما انحدروا منها من أصول وما كانوا عليه من أخلاق.

وقد ساعدتهم علي ذلك ، ما كان يفد إليهم من أموال الغني ، وغنائم الحروب والضرائب ، والجزية ، كل هذه الأشياء في مجملها كانت دافعة إلي اقتنائهم الكثرة الهائلة من الرقيق ، وحسان الجواري ، حتي زخرت بهم الدور والقصور وتهيأت لهم بتلك الأموال الطائلة كل سبل الترف والنعمة ، فطعموا في أواني الذهب والفضة ولبسوا أفخر الثياب ، وابتنوا القصور والأواوين (٣) ما جسد لهم أبهة الملك ، وعكس سمات الرخاء وأمارات البزخ.

١- الوليد حنفور وحفاز وهو الجلب، أو الأظي أو الأصلي ، وأخذ الشيء بحذافيره أي بأسره وبرمته وفي الحديث "لكنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"

٢- ضحى الإسلام ص ١١ ج ١ الطبعة الخامسة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ م

٣- جمع إيوان : أو إيوان وهو الصفة المطيعة - ومنه إيوان كسري لسان العرب ج ١ / ص ١٧٨ .

وكما هو معلوم أن أساس الحياة الاجتماعية في أي أمة من الأمم أو في أي مجتمع من المجتمعات هو الحالة الاقتصادية ؛ فقد وجدنا أن الحالة الاقتصادية في تلك العصر - بوجه عام - لا تكاد تستقر علي أساس قوي ذلك لأن الاختلاف في الثروات التي كانت عند طبقات ذلك العصر تباين تبايناً تاماً، فالمقربون من الخلافة، ارتفع بنيتهم وكثرت إقطاعيتهم وضياعهم ، إما علي سبيل المكافأة أو الهبة من الخلفاء أو الوزراء إلي جانب ذلك فقد عمت الرشوة ، واستشرت بين طبقات الموظفين الكبير منهم والصغير علي حد سواء ، وكما أسلفت فقد ازدانت موائد طبقات الخاصة - فضلاً عن الخلفاء والوزراء - بأطباق الذهب والفضة كما ازدانت قصورهم بالجواري والعبيد ؛ فكثرت نسل الجواري واختلطت الدماء وذاع اللهو والمجون ، وشاع الغناء ، وصار علي أبوابهم الشعراء المادحون وطالبو العطايا- إلي جانب الندماء والمغنيين.

وزاد من خيلاء هذا العصر وزهوه أن زالت الحواجز بين الطبقة العليا وبين من يوالونهم من الفرس.

ولكن الناظر بعين الإنصاف إلي الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، سوف يجد أن هذا الترف والنعيم لم يكن عاماً وشاملاً لكل الرعية ، وإضا كان مقصوراً علي الخلفاء والأمراء والوزراء.

**يقول أحمد أمين:** (ونلمس من ذلك أن الترف والنعيم كانا حظ عدد قليل هم الخاصة من الناس ، وبعض رجال التجارة والصناعة حين كان الفقر والشقاء للعامة وهم أكثر للناس)<sup>(١)</sup>.

١ - ظهر الإسلام ج ١ / ص ٩٧ ط النهضة مصر.

وفي الجانب الآخر وجدت طوائف أخرى من الناس يعيشون تحت وطأة الفقر والإملاق، ويتجرعون كثوس المرارة والمذلة، فنري من يجد ويكدح ويبالغ في هذا الكدح ليصل فقط إلي الكفاف الذي يصون ماء وجهه من ذل السؤال بالطريق المشروعة أو غير المشروعة.

**يقول الدكتور / خفاجي :** (ولضيّق أبواب الرزق علي كثير من الشعب وقصور وسائل الكسب عن أن تفي بمطالب الحياة، اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة، وقعدوا للسؤال كل مقعد ولما استرعي هؤلاء نظر رسول ملك الروم إلي المنصور، قال لعمارة بن حمزة - وكان يرافقه من قبل المنصور في طوافه ببغداد - إنني أري عندكم قوماً يسألون الناس، وقد كان يجب علي صاحبك أن يرحم هؤلاء ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم، فاعتل له عمارة بوجه، واعتل له المنصور بوجه) (١).

ولعلي لا أكون مخطئاً ولم يجانبني الصواب إذا قلت، إن تلك الموجات المتباينة من الطبقة بقيت تتدافع في خضم الحياة الاجتماعية، مما كان له مع قيام الأحزاب، واشتعال العديد من الفتن والثورات أبلغ الأثر في توارى نجم العباسيين.

وكيف لا ؟ وقد كان بعض الخلفاء ينفق علي بناء المدن أموالاً طائلة، فقد أنفق المعتصم أموالاً كثيرة جداً علي بناء "سامراء" وكذلك فعل المتوكل في بناء "الجعفري" وتناقل الخلفاء عادات الفرس وأخلاقهم فأصبحوا يلبسون ملابسهم ويأكلون أمثال مآكلهم ومشاربهم حتي أصبحت الحياة فارسية أو تكاد، والخلفاء يعيشون محجوبين عن العالم يخاطبون الناس من وراء حجاب (٢).

١ - تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول / ٨ .  
٢ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي - شوقي ضيف - ٦٠ بتصرف . الطبعة الثانية عشرة ط دار المعارف.

وتنافس الخلفاء والوزراء ومن سواهم من طبقات الخاصة في الترف وتشديد القصور غير مبالين بمن سواهم ، وغير معنيين - وسط ذلك كله - بأخلاق ولا حميد فضائل بقدر ما كان يعنيه من تثبيت دعائم الخلافة وقوائم الملك ، ولذلك فقد تحدرت الحياة الاجتماعية تحدرًا شديدًا تبعًا لتنوع الحالة الاجتماعية إلى طبقة مذمومة ، وتحول الناس أنفسهم إلى ناسك ولاه ، وأضحت تلك الحياة مخلفة ورائها ما عرف بعد بالامتزاج الديني ، وتحولت البلاد إلى مسرح تظهر عليه جميع النحل والمذاهب الدينية ، فقامت جماعات تدعو إلى التشيع ، وأخري تدعو إلى الاعتزال وثالثة تدعو إلى السنة ، كما شاعت الزندقة ورقة الدين ، وظهر في الناس من يخفف عن الفقراء ، ويستل سخائم صدورهم على الأغنياء بالدعوة إلى المساواة وتحول الناس - أيضاً - إلى احتراف الغناء والسعي إلى منادمة الخلفاء والوزراء والتقرب منهم بآية حال من الأحوال اضطراراً لا اختياراً ، واحتياجاً على العيش فراراً من ضغط الفقر ، حتي أصبحنا ( نجد الغناء في هذا العصر في كل مكان ، نجده في قصور الخلفاء ودور الأمراء ، كما نجده في الشوارع ، وعلى الجسور ونجده في البر كما نجده في النهر )<sup>(١)</sup>.

#### الناحية الثقافية :

لقد انفتحت علي العقل العربي في عهد بني العباس كنوز فكرية ، ومعارف متباينة ، وأخذت الثقافة طريقها إلى عقول الناس والبابهم ، وعرفت سبيلها إلى قلوبهم وأفئدتهم ، وازدهرت الحياة العقلية تبعاً لامتزاج الثقافات ، إذ كانت الدولة آنذاك مزيجاً من شعوب كثيرة ، ولكل شعب ما يبرع فيه من العلوم ، ومن

١ - السابق / ٦١ .

كانت الغلبة والذبيوع للثقافة العربية الإسلامية لأنها - ما زالت - قوام العقل العربي.

إن طفرة عظمي قد طفرت إليها الدولة في عهدها الجديد فلم تعد مقصورة علي علوم الدين واللسان فقط كما كانت من قبل - ولكن ضرورة التوسع في الملك والزيادة في وسائل العمران ، والتقدم في الحضارة ، وانتقال أمة بأسرها لها تاريخ عريق في العلم والسياسة والملك ، لتنضم إلي أمة أخرى تكون وإياها مزيجاً جديداً من الحياة الاجتماعية لا بد أن يكون وراءه جديد - أيضاً - في الثقافة والمعرفة والعلم والحضارة.

ومجرد تخيل هؤلاء الفحول الذين كانوا يقودون زمام الثقافة في ذلك الوقت، ويتولون أمور الدولة ويظهرون علي مسرح الفكر الإنساني من أمثال الجاحظ وابن المقفع ، والخليل بن أحمد ، والأصمعي ، وأبي عمرو بن العلاء ، وأبي عبيدة وأضرابهم ممن كانوا منارة للناس ، يعكس لنا كيف أن الثقافة كانت مكتملة الوعي ، نشطة الحركة ، قوية الدفع ، دائية الرقي والتقدم . ولعل من أبرز الأمثلة علي أن الثقافة بلغت أوجها وانتهت الي غايتها ، ان مجالس الخلفاء أنفسهم كانت مدارس علم ، ومواطن معرفة وملئقي أفكار ، حيث تحتك العقول وتتصارع الآراء بين أقطاب الثقافة ، وفحول العلم والمعرفة.

يقول الدكتور / خفاجي ، (ازدهرت الحياة العقلية في هذا العصر ازدهارا كبيرا ، وتلاققت في الحواضر الإسلامية شتي الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة في العلم والثقافة ، وأخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في شتي جوانبها ويضعفون عليها ظلال رعايتهم وتشجيعهم ، وكانوا يببالغون في إكرام الأدباء والعلماء ويجالسونهم ويقرئونهم إليهم ، وصار العلم والأدب وسيلة إلي المناصب

العالية والنفوذ والجاه ، وكان كل من نبغ في العلم ، أو شهر بالأدب ترفع منزلته ، ويتنافس العظماء في تكريمه كما يتنافسون في إنشاء دور العلم وترجمة الكتب إلي العربية من مختلف اللغات (١) .

وهكذا صارت الثقافات التي كان للإسلام كبير الأثر في مزجها تلتقي في تلك المراكز علي مر السنين حتي امتزج بعضها ببعض ، فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب ، كان يري لزماً عليه أن يتعلم العربية وآدابها ، حتي يتيسر له قراءة القرآن ودراسته ، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية فنشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي ، وتقدمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور الوراقين ، واتخاذ أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء للتزود من العلم ، فكثرت تبعاً لذلك المكتبات التي كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية ، وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية ومن أشهر هذه المكتبات (بيت الحكمة) الذي يرجع أن الرشيد هو الذي وضع أساسه وعمل المأمون من بعده علي إمداده بمختلف الكتب والمصنفات ، ويعد من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي ، وقد ظلت هذه الخزانة قائمة حتي استولي المغول علي بغداد في منتصف القرن السابع الهجري (٦٥٦هـ) . وكانت تحوي كل الكتب في العلوم التي اشتغل بها العرب .

وكان للناس في ذلك العصر من البحث والتنقيب والترجمة والتأليف حركة قل أن يوجد لها نظير في تاريخ العلم .

وهكذا ظهر النشاط العلمي علي أشده في كل الفروع وعلي اختلاف الأنواع ، وكان أشهر هذه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية (وكانت هذه الثقافات

١ - تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول / ص ١٣ .

المتعددة تؤلف التراث العلمي في ذلك العصر وفيها زبدة علوم الآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفارس والرومان ، وكان لابد للرجل المستنير أن يأخذ بحظ من الثقافات جميعاً<sup>(١)</sup>.

**وهنا سؤال يطرح نفسه مفاده:**

لماذا كان الاهتمام بالنقل والترجمة متناولاً للفلسفة والطب والرياضيات وغيرها من العلوم غير متناول للأدب ؟

وربما كان الجواب عن هذا السؤال من ناحيتين:-

الناحية الأولى: أن الأدب غير العربي وبالأخص الأدب اليوناني كان يتصدي كثيراً لأسماء الآلهة وما يجري علي ألسنتهم من آراء وفلسفات ، والعرب لم يستسيغوا ذلك ولم يقولوا به.

الناحية الثانية: أن الأدب خاضع للذوق ، والذوق يختلف باختلاف الناس.

ولعلي بعد هذا العرض أكون قد قرئت إلي ذهن الملتقي ، كيف كانت الثقافة تأخذ طريقها إلي عقول الناس لدرجة أنه يستطيع - من غير ريب ولا تردد- أن يدرك أن مدارس هذه الثقافة كانت متمثلة في الحلقات التي كانت تعقد في المساجد التي لم يعرف المسلمون قبلها بناء شرفه الله بالعلم وطهره بالعبادة ، ورفع علي سائر الأمكنة بنسبته إليه وقد قامت هذه المساجد بدورها في الثقافة والمعرفة قبل أن يعرف الناس دور العلم ومعاهده وجامعاته.

وكان إلي جوار المساجد من روافد الثقافة المكتبات - العامة والخاصة - ثم حلقات المناظرة التي تقوم بين الأساتذة والفحول من حملة المشاعل أمثال: سيبويه والكسائي والهمداني والخوارزمي .

(١) - السابق ص ١٥ .



والفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة وأهل السنة وكبار العلماء  
وحواريهم من الطلاب الذين يرغبون في الاختلاف إليهم والأخذ عنهم ، والالتفاف حولهم .  
وكان هناك رافد آخر له عظيم الاهتمام والتقدير عند المسلمين منذ زمن بعيد  
ذلك هو الرحلة التي يتحملون مشاقها في طلب العلم وكانوا يعتقدون أن العلم لا  
ينقاد إلا لمن يضرب له أكباد الإبل ويشد له الرحال ويطوي له المسافات البعيدة.

## المبحث الثاني حياة الشاعر (أبي تمام)

مولد أبي تمام ، ولد أبو تمام - على ما أخذ من المصادر والنصوص التاريخية بين عام ١٨٨ ، ١٩٢ هـ .

واختلف في السنة التي ولد فيها ؛ فقبل سنة ١٧٢ هـ وقال بهذا " ابن خلكان " وقبل سنة ١٨٢ أو ١٨٨ أو ١٩٠ هـ ويروي ذلك " أبو بكر الصولي " في كتابه " أخبار أبي تمام " .

فيروي عن عون بن محمد الكندي أنه قال ، ( قرأت على أبي تمام شيئاً من شعره في سنة سبع وعشرين ومائتين وسمعته يقول : ( مولدى سنة تسعين ومائة ) . ثم ينقل رواية أخرى عن تمام بن أبي تمام أنه قال : ( مولد أبي سنة ثمان وثمانين ومائة ) وقبل إنه ولد سنة ١٩٢ هـ وقال بذلك ابن خلكان أيضاً . فيقع الاضطراب في مولد أبي تمام في عشرين سنة ( ١ ) .

وكان مولده في قرية يقال لها " جاسم " وهو اسم قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الأعظم إلى طبرية كما يقول ياقوت الحموي في معجمه ( ٢ ) .

ويقول الأصفهاني صاحب الأغاني ، ( مولده ومنشؤه منبج ، بقرية منها يقال لها جاسم ) ( ٣ ) ومنبج هي تلك القرية التي ولد فيها البحتري .

١ - أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره / نجيب محمد البهيبي ص ٥٠ وقد أفاض في مرجحات سني ميلاد أبي تمام ومن أراد التوسع في ذلك ينظر ص ٥٠ وما بعدها - ط دار الثقافة - الدار البيضاء .  
٢ - معجم البلدان ج ٢ ص ٩٤ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت .  
٣ - الأغاني ج ١٦ ص ٣٨٣ ط دار الكتب تحقيق عبد السلام هارون .

بقول الدكتور / محمد نبيه حجاب ، -

( ولد فى قرية جاسم بالقرب من منبج ودمشق <sup>(١)</sup> ومن الملاحظ أن هذه البقعة من الأرض ( وأعنى بها منبج ، وجاسم ) كان لها كبير الحظ من الشهرة والذيع فكان من جاسم أبو تمام ، ومن قبله كان عدى بن الرقاع العاملى الطائى <sup>(٢)</sup> وكان منها الباحثرى أيضاً .

● يقول صاحب " خزنة الأدب " ،

( ولد فى جاسم بالجيم والسين المهملة ، وهى قرية من قرى الجيدور بفتح الجيم وسكون المثناة التحتيّة ، وهو إقليم من دمشق ) <sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن جاسما قد اشتهرت بجآذرها <sup>(٤)</sup> - كما يقول الدكتور البهيدتى

يقول الشاعر الطائى عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها بين النساء أعارها عينية أحور من جآذر جاسم  
فى هذه البقعة ولد أبو تمام <sup>(٥)</sup> .

● نسب أبى تمام ،

جاء فى " وفيات الأعيان " لأبى العباس شمس الدين ابن خلكان ما نصه :  
( أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الاشج بن يحيى بن مروان بن مريـن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدى بن عمرو بن العوث بن طئ - واسمه

١ - معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسى الأول ص ٢٤٤ الطبعة الثانية ط دار المعارف . وهو استاذ للأدب فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة حديثاً .

٢ - هو عدى بن زيد بن مالك بن عدى بن الرقاع من عاملة ، نسبة الناس إلى الرقاع وهو جد جده لشهرته ، وكان شاعراً مقتماً عند بني أمية وتوفي سنة مئتين وعشرين ومائة (الموشح للمريزاني ص ٣٠٠) .

٣ - خزنة الأدب ج ١ ص ٣٥٧ .

٤ - جمع جؤذر وهو ولد البقرة ، أو البقرة الوحشية .

٥ - أبو تمام الطائى ص ٤٨ .

جلهمة - بن أدب بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يشجب بن  
يعرب بن قحطان الشاعر المشهور<sup>(١)</sup>.

وذكر الخطيب البغدادي في كتابه " تاريخ بغداد " مثل ذلك مع اختلاف  
بسيط في ترتيب وذكر بعض آبائه ، فجعل بين يحيى ومروان " مزينا بن سهم بن  
ملحان " وجعل بين كهلان ويشجب ، بن سبأ .<sup>(٢)</sup>

وذكر أبو الفرج الأصفهاني في " أغانيه " أنه : ( حبيب بن أوس الطائي ،  
من نفس طيء صليبة )<sup>(٣)</sup> وقال مثل الأول في التعريف بأبي تمام . عبد القادر بن  
عمر البغدادي في كتابه " خزانه الأدب " .

وقال ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب " : ( أبو تمام الطائي  
حبيب بن أوس الحويراني )<sup>(٤)</sup>

#### ● نشأته ،

نشأ أبو تمام وترى في دمشق إحدى دور العروبة من قديم ، فقد انتقل به  
أبوه وهو صغير - إلى دمشق وبها كانت نشأته الأولى ، وإن كانت الآراء قد  
تضاربت في نشأته ، فقليل إنه نشأ بمصر يسقى الناس في مسجدها الكبير " جامع  
عمرو بن العاص " ولكن الذي عليه أكثر المؤرخين أنه نشأ بدمشق بعد ما نزع أبوه  
من جاسم إلى دمشق .

نشأ أبو تمام نشأة لم يكن فيها بدعا من أقرانه وأبناء عصره ( فقد نشأ  
أبو تمام بين أبوين فقيرين فلم يرض بعيشة الفقر بينهما ، بل نزع إلى مصر في

١ - وفیات الاعيان ج ٢ ص ١١ / مآدار صابر بيروت .

٢ - تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٤٨ مآدار الكتب العلمية - بيروت .

٣ - الأغاني ج ١٦ ص ٤١٤ وصليبة . أي خالص النسب ليس من موالها ولا من حلفائها .

٤ - شذرات الذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ج ٢ ص ٧٢ الناشر - مكتبة القدس . وهوران  
بلد سورية .

طلب الرزق كما قيل وهو غلام صغير ، ولأهل الشام من قديم حينهم في الهجرة طلباً للرزق لأن طبيعة بلادهم تضيق عنهم (١) .

وهذا نفس ما ذكره الدكتور / البهبهتي في قوله ، ( ولا أضنه نشأ إلا كما ينشأ أبناء الفقراء من أهل عصره ، يرسل إلى مكتب "كتاب" القرية ليتعلم القراءة والكتابة ، وليحفظ القرآن الكريم ، ودعك من نصرانية أبيه ، فما كانت إلا افتراء من افتراء خصوم أبي تمام وقد حفظ أبو تمام القرآن كما يبدو ذلك في شعره ، ولكننا لا نعلم أكان ذلك في القرية أم بعد نزوله مصر واتصاله بجامعة الأكبر ؟ وأغلب ظني أنه حفظه في مصر ، فلم يترك أبو تمام طويلاً في الكتاب (٢) ولأن أباه كان عطاراً فقيراً ، يكسب قوته من عمله كان حريصاً على أن يتعلم ابنه حرفة يتكسب ويعيش من وراثتها ، فما لبث أن أخرج ابنه من الكتاب ليدعه عند حائك كي يحسن حياكة الثياب ، وقضى شبابه مساعداً لنساج في دمشق - على حد تعبير ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣) .

حيث قال في سند ينتهي إلى يحيى بن صالح أبي الوليد ، قال ،  
( رأيت أبا تمام الطائي ، حبيب ابن أوس بدمشق ، غلاماً يعمل مع قرآن ، وكان أبوه خماراً بها ) (٤) .

#### ● شخوصه إلى مصر ،

يبدو أن صناعة الحياكة لم ترق لأبي تمام فترك دمشق ونزح إلى مصر وهو غلام صغير سنه دون السابعة عشرة ، ولم يخل لأحد أن هذا الفتى سيصبح

١ - مدرسة أبي تمام بين قدامي المولدين والمتأخرين لـ / عبد المتعال الصعيدي ص ١٦ نسخة مودعة بدار الكتب المصرية .

٢ - أبو تمام الطائي ص ١٦ .

٣ - تاريخ دمشق ج ٤ ص ١٩ .

٤ - السابق ج ٨ ص ٢٧٩ .

يوماً ما سيد شعراء العربية ، ولا حتى لأبيه الذي كان كل أمله ومنتهى تطلعه في استشرافه لمستقبل ابنه أن يراه صورة مكرورة من هذا الحائك الذي أودعه عنده ولم يزد فيه أمله على ذلك

وتجدد الإشارة هنا إلى أن رحيل أبي تمام في هذه السن المبكرة ما يقطع بقوة نفسه وعلو همته .

ولا أرى رحيل أبي تمام إلى مصر إلا طلباً للمال والشهرة في مظانها ، بعد أن خاب أمله أن يجد ذلك حيث كان .

وصل أبو تمام إلى مصر وأقام بمسجدها الكبير "مسجد عمرو بن العاص" ما يقرب من خمس سنوات يقول أبو تمام :

لخسة أعوام مضت لمغيبه وشهران بل يومان نكل من النكل<sup>(١)</sup>  
والمجمع عليه أنه كان يلزم "مسجد عمرو" يخدم أهل العلم والأدب  
ويسقى به الماء ، وكأنى بأبي تمام أراد أن يسقى الناس الماء ، ويستقى منهم العلم والأدب ، فكأنه أراد أن يبادلهم كأساً بكأس .

وغنى عن البيان ، أن مصر القاهرة "الفسطاط" في تلك الوقت كانت مركزاً للعلم والأدب ، ومنبع هذه العلوم والآداب هي المساجد .

نزل أبو تمام مصر كغيره من الشعراء الذين سبقوه من أمثال "جميل بن معمر" العذري صاحب "بننه" والذي مات بمصر عام ٨٣ هـ وكثير عزة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، ووردها أيضاً ، نصيب بن رباح الشاعر "أبو محجن" وأبو نواس "وأقام بها مدة ثم أمها أبو تمام وجاء من بعده كثيرون أيضاً (٢) .

١ - شرح الديوان للبربري ج ٤ ص ٥٢٢ ط دار المعارف وروي البيت بأكثر من رواية قليل ، بكل من البكل ، وتكل من ليتكل . والنكل هو القيد الشديد والجمع انكال ، قال تعالى "إن لدينا انكالا وجحيماً" .  
٢ - أبو تمام الطائي / ٦٦ بتصرف .

وكان مصر تجتذب القلوب إليها وتجري الشعر على لسان من يردّها جريان النيل. ( ففى مصر أبداً ذلك القبس الخالد من المعرفة والإلهام والجمال المتفجر نوره ، فى سحر يجتذب القلوب ، ومصر التى هددت العالم من قبل على ضوء حضارتها وجهادها فى سبيل البشرية ، وقد ساهمت<sup>(١)</sup> على مرور الأيام فى بث هذا النور فى قلب كل من أودع الإنسانية ثمرة من عبقريّة أو أثراً من هداية )<sup>(٢)</sup> .

إنّ فقد أخذ أبو تمام منذ نعومة أظفاره يختلف إلى حلقات المساجد فهياً له ذلك فرصة لدراسة الشعر العربى وقواعده ، واستطاع أن يحفظ الكثير من عيون الشعر العربى ، وأخذ يحاكي أعلامه القدامى وأرى أن ذلك راجع إلى موفور حظه من الذكاء والفطنة وصدق الحدث .

أخذ أبو تمام يتردد على جامع عمرو يسقى الماء ويستقى العلم ( وكان يلزم حلقات الأدب خاصة ، فإذا طلب أحد ما شربة ماء سقاه ثم رجع إلى مكانه الأول يستمع الى إملاء الأديب أو مناقشة أصحابه ، ولعل ذلك فى السنوات الأولى من القرن الهجرى الثالث وعمره يومذاك نحو عشرين عاماً )<sup>(٣)</sup> .

وهكذا حصل أبو تمام غير قليل من الشعر حتى أثر عنه أنه كان يحفظ أربعة آلاف ديوان شعر وأربعة عشر ألف أرجوزة على ما يقول ابن خلكان . ولم يقل الشعر قبل أن يحفظ سبعة عشر ديوان شعر للنساء فضلاً عن الرجال ، كما يقول ابن رشيق فى العمدة ، وأنه كان يحفظ القرآن الكريم ، وأنه حفظ ديوان مسلم بن الوليد وأبى نواس ( إلى جانب شئ من القصص وإلى شئ من التاريخ وإلى شئ

١- الأصح : أسهمت . لأن المساهمة هى الاقتراع . قال تعالى ﴿ فَتَاهُمْ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ [سورة الصافات: ١٤١] وقد تكون المساهمة وخيمة العواقب كما هو ظاهر من معنى الآية .

٢- أبو تمام الطائي ص ٦٦  
٣- أبو تمام / عمر فروج ص ١٤ الطبعة الأولى للناسر مطبعة الكشاف . بيروت .

من الفقه وإلى شئ من الحديث وإلى شئ من الفلسفة ويخلط هذا بذاك ويحفظ ما استطاع أن يحفظ (١).

( ويعد أن سقى أبو تمام الماء في جامع مصر ، واستقى العلم وفنون القريض؛ ترك السقاية واتصل برجل حضرمي يدعى عياش بن لهيعة وأخذ بمدحه ) (٢).

ولعل السبب في توليته وجهه نحو ( عياش ) اليمنى صاحب الخراج هو ما بينهما من أواصر النسب والقربة ، ويعلن إليه ذلك مجاهرا به صافرا :  
وأنت بمصر غاييتي وقرابتي بها وبنو الآباء فيها بنو أبي  
**فابن لهيعة** وكل أفراد اليمن بمصر أهله وقرابته وأشقائه في الأبوّة والنسب وابن لهيعة غايته من بينهم ، فأخذ الشاعر بمدحه ويكثر من مدحه له راجيا نوال ما عنده من الأموال مستشفعا بتلك القربة وذلك النسب . لكن الشاعر قويل من عياش بما لا يرجوه .

**فإن عياشا** لم يزد على أنه كان يعدّه وينيه ثم يمطّله ، ولم يجد الشاعر منه إلا مطلا فأخذ يستبدل بمدحه هجاء .

يقول / عمرو فروخ ، ( فما مر عام حتى ضاق الشاعر ذرعا وعاتب عياشا بقوله ،  
الفطر والأضحى قد انسلخا ولي أمل بيباك صائم لم يفطر !  
عام ولم ينتح نذاك وإنما تتوقع الحبلى لتسعة أشهر !  
جش (٢) لي ببحر واحد أغرقك في مدح أجيش له بمسبعة أبحر  
قصر ببذلك عمر مطلق تحولى حمدا يعمر عمر مسبعة أنسر

١ - كان رئيسا للشرطة وديوان الخراج بمصر أثناء ولاية عبد الله بن طاهر من سنة (٢١١-٢١٢) وكان أبوه أول قاض بمصر من قبل خليفة، ولاء المنصور قضائها سنة ١٥٥ (وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٢).

٢ - أبو تمام / عمر فروخ ص ١٤.  
٣ - فعل أمر من جاش يجيش ، أي يتنقذ ويجري بالماء أو زخر وامتد جدا . لسان العرب ج ١ ص ٧٣٨.



كم من كثير البذل قد جازيته      شكراً بأطيب من نداءه وأكثر  
شر الأوائل والأواخر ذمة      لم تصطنع وصنعة لم تشكر (١)  
ولما لم يجد أبو تمام من عياش سوى مظل على مظل أخذ بجوه هجاء  
مرا (٢).

وقال بذلك الدكتور / فروخ في كتاب له آخر (٣).  
ومثل ذلك قال به الدكتور / محمد نبيه حجاب في كتابه ( معالم الشعر  
وأعلامه في العصر العباسي الأول ) (٤).  
ولكننا نجد قولاً مخالفاً لما ذكر أنفاً قال به الدكتور / نجيب البهيبتي في  
كتابه ( أبو تمام الطائي ) يقول ، ( ولكن الصولي يقول لنا نقلاً عن البحتري أن  
أبا تمام قال له : أول شعر قلته .

\* تقى جمحاتي لست طوع مؤنبي \*

ومدحت بها عياش بن لهيعة فأعطاني خمسة آلاف درهم . وقال الدكتور  
البهيبتي هذا الكلام نقلاً عن الصولي في كتابه ( أخبار أبي تمام ) ص ١٢١ (٥).  
والرأي عندي ، أن عياشاً الحضرمي قد كافأ أبا تمام عن القصيدة التي  
مدحه بها والتي مطلعها .

\* تقى جمحاتي لست طوع مؤنبي \*

بخمسة آلاف درهم كما أسلفت ، حتى إذا ما عاود أبو تمام مدح عياش  
لينال منه مثل ما نال في المرة الأولى ؛ وجد غير ما كان ينتظره منه . خاصة وأنه

١ - شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي ج ٤ ص ٤٥٤ .

٢ - أبو تمام ص ١٥ .

٣ - تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي / ٢٥٢

٤ - ص ٢٤٥ الطبعة الثانية ط دار المعارف .

٥ - أبو تمام الطائي ص ٦٣ .

ليس في ديوان أبي تمام سوى قصيدة واحدة في مدح عياش غير القصيدة الأولى ومطلع القصيدة الثانية ،-

أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوسا (١)

سرى رداء الهوى فى حين جنته وأها له منه مسرواً وملبوسا (٢)

فلما لم يلق منه ذلك العطاء والتكريم الذى لقيه منه فى المرة الأولى أخذ يهجوّه .

ويفسر لنا صاحب ( العقد الفريد ) سبب ذلك المجاء بوجه آخر هو : أن أبا تمام استسلف عياشا مائتتى مثقال ، فشاوّر فيه زوجته فقالت له :

( هو شاعر ، يمدحك اليوم ، ويهجوك غدا ، فاعتل عليه واعتذر إليه ، ولم يقض حاجته ) (٣).

وطال المطل من عياش لأبى تمام ، فما ملك أبو تمام إلا أن يعاتبه بقصيدة بدأها بقوله ،

صدقت لهُيّا قلبى المستهتر فبقيت نهب صباية وتذكر (٤)

وهى نفس القصيدة التى فيها قوله ،-

\* الفطر والأضحى قد انسلخا \*

وظل يهجو عياشا لا ينقطع عن هجائه ، ولا ينسى يده عنده ، حتى مات

عياش ، فلم يمسح الموت الجبار ذلك الأثر الذى تركه عياش فى قلب أبى تمام فمجاه بعد موته بقوله ،

إنى على ما نالنى لصبور وبغير حسن تخلص لجدير

١ - شرح الديوان ج ٢ ص ٢٥٣ / الحشاشة : بقية النفس مخلوس : مخطوف رم : اسمع المألوس / المجنون.

٢ - سري : خلع وأها : كلمة تقال عند التعجب ، مسرواً : مخلوعاً.

٣ - العقد الفريد ج ١ ص ١٤٤ ط الجمالية.

٤ - شرح الديوان ج ٤ ص ٤٤٩. ولها : تصغير لهُو ثم نسبته إلى نفسه وقيل هو اسم امرأة، وهو تصغير لهُوي- ولها.

ومنها :

فكّت أكف الموت غلّ قصائدي عنه وضيغمها عليه يزيّر  
ما زال غلّ الذم ثائلي عطفه حتى أتاه الموت وهو أسير  
ومنها ،

وأرى نكيرا صد عنك ومنكرا ظننا بأنك منكر ونكير  
وتضوّر القبر الذي أسكنته حتى ظننا أنه المقيور (١)  
ومجاه بقصيدة أخرى مطلعها ،

لا سقيت أطلالك الدائرة ولا انقضت عثرتك العائرة (٢)

( وهكذا شيع أبو تمام الرجل إلى قبره بالسباب في غير رهبة لحرمة الموت  
وجلال القبر ) (٣).

ولأبى تمام في هجاء عباس قصائد غاية في القذاع ومنها قصيدة بداها  
بقوله ،

ستعلم يا عباس إن كنت تعلم فتتدم إن خلّاك جهلك تتدم  
أبى لك أن تأبى المخازي كلها أبى أندرهلى وجد معلم  
ومنها ،

وقفت عليك الظن حتى كأنما لديك الغنى أو ليس في الأرض درهم  
وكفكت عنك الذم حتى كأنما أجاارك مجد أو كأنى مفحم  
ومنها ،

فأيسر من تسالك العى والعمى وأعذب من إحسانك اللقيح والدم  
فإنك من مال وجود ومحتد لأعدم من أن يستريشك معدم

١ - شرح الديوان ج ٤ ص ٣٦٠ .  
٢ - المسابق ج ٤ ص ٣٦١ .  
٣ - أبو تمام الطائي / ٨٥ .

ويخرج أبو تمام عياشا من أهل حضرموت واليمن لا لشئ إلا لأنه غير كريم  
 وكانوا أراد أن يقول (إن أهل اليمن لا سيما حضرموت وطى قد عرفوا بالكرم  
 وصار ذلك عليهم فمن لم يكن كريما جوادا سمحا فليس منهم ، فيقول ،  
 ومالى أهجو حضر موت كأنهم أضاعوا ذمامى أو كأنك منهم؟! (١)  
 وقصيدة أخرى لا تتجاوز بعض الأبيات يهجو فيها عياشا هجاء ممزوجا  
 بالتهكم والسخرية فيقول :

صدق أليته إن قال مجتهدا	(لا والريغيف) فذلك البر من قسمه !
فإن هممت به فافتك بخيرته	فإن موقعها من لحمه ودمه !
قد كان يعجبني لو أن غيرته	على جرادة كانت على حرمه! (٢)
وفى قصيدة أخرى قال بهجوه ،	
الزنج أكرم منك والروم	والحين أئمن منك والشوم
عياش إنك للنسيم وإنتى	مذ صرت موضع مطلبى للنيم
السحت أطيب من نولك مطمعا	والمهل والغسلين والزقوم (٣)
ومنها ،	
لما بدا لى من صميمك ما بدا	بل لم يصب بك - لا أصيب - صميم
جركت فى ذميك خيل قصائد	حالت بك الدنيا وأنت مقيم
ألحقن بالجميز أصلك صاغرا	والشيخ يضحك منك والقيصوم

١ - شرح الديوان ج ٤ ص ٤٢٣ .  
 ٢ - السابق ج ٤ ص ٤٢٤ - والجرادة معروفة فارسية معربة الرغيف .  
 ٣ - شرح الديوان ج ٤ ص ٤٢٥

وغرضه من البيت أن ينفيه عن العرب لأن الشبح والقيصوم ينبتان في  
ديارهما ومنازلهما ، يقول إننا ولدت في أرض الجميز وهو كثير في القرى التي  
يسكنها النبط وأخلاق الناس (١) ومنها ،

طبقات شحمك ليس يخفى أنها      لم يبنها آء ولا تنوم (٢)  
يا شارباً لبن اللقاح تعزياً      الصبر من يقنيه والحالوم (٣)  
والمدعى صوران منزل جده      قل لى لمن أهناس والقيوم؟! (٤)

والشاعر يهجو عياشا بالتوسع في المأكول ، والعرب ليست كذلك وإنها  
يصفون أنفسهم بالخمص وقلة الأكل ، ويقول له : إنك لست عربى فتميل إلى لبن  
اللقاح وإنما عادتلك أن تأكل الصبر.

... وهكذا أصبحت إقامة أبى تمام في مصر ضنكا فلم تكن على ما يرام ،  
لأن أمله قد خاب فيها بعد أن ضاقت به الحال ووجدنا أثر ذلك في شعره الذى  
قاله فيها ... يقول :

لقد طلعت فى وجه مصر بوجهه      بلا طالع سعد ولا طائر سهل  
وساوس آمال ومذهب همة      تخيل لى بين المطية والرحل  
تأيت فلا مالاً حويت ولم أقم      فامتع إذ فجعت بالمال والأهل  
بخلت على عرضى بما فيه صونه      رجاء لجتاء الجود من شجر البخل(٥)

وعلى هذه الوتيرة يسير غالب شعره فى مصر ، نفثات متبرم ، وسخط  
مستثقل للإقامة فى بلد رجا الجود من شجره ، فاستبان أن شجره لا ينبت إلا

١ - السابق ج ٤ ص ٤٢٦ .

٢ - الآء والتنوم : ضربان من التبت تأكلهما النعام .

٣ - الحالوم ضرب من الأقطر .

٤ - صوران : قرية بالقشام - وأهناس والقيوم موضعان بنو لحي مصر .

٥ - شرح النيران ج ٤ ص ٥٢٤ .

البخل فأيقن أن ما كان يتوخاه في مصر لن يلقاه وخاصة بعد نشوب العصبية فيها ، بعد مقتل عمير بن الوليد الخراساني ، عامل مصر الذي قتل في ربيع الأول سنة ٢١٤ هـ أثناء فتنة داخلية (١) والذي قتله مبارك الأسود مولى حميد بن كوثر الحرشي فقال أبو تمام :

ألا رزئت خراسان فتاها غداة ثوى عمير بن الوليد  
وأياضا عندما تولى عيسى بن يزيد الجلودي على مصر وانهزم أمام أهل الحوف ، ذكر ذلك أبو تمام فقال :

الله أرهقك الهزيمة إذ جذبتك آجال الردى جذبا (٢)  
ومهما يكن هناك من سبب لترك أبي تمام مصر سواء أكان القضاء المعاكس الذي حال بينه وبين الغنى ، أم كانت الفتنة الداخلية التي نشبت في ذلك الوقت ، فإن أحدا من الناس لا يستطيع أن ينكر فضل مصر على الشاعر .  
( فقد نزلها طفلاً لم يبيع يطلب الغنى ، فوهبت له علما ، وغمرت قلبه نورا وفتحت عينيه على دنيا جديدة ، وأشاعت فيه أملا واسعا ، ولكنها لم تهب له من المال ما كان يطمح إليه ، قذفت به إلى الدنيا بعد أن أعدته أحسن الإعداد وزودته بسراج يستعين به على اقتحام الدهر وأحداثه ، ولكنه كان ممدود اليدين ، يريد أن ينال بهما جميعا . فلم يجد بإحداهما ما طلب ، ألهاه ذلك عما باليد الأخرى فانتقل غاضبا في شئ من يأس الشباب ولكنه لم يكن نذلاً ، فلم يخلط بين الوطن الذي آواه ، وبين الرجل الذي ضن عليه ) (٣).

١ - أبو تمام / عمر فروخ / ١٦ .  
٢ - حماسة أبي تمام وشرحها - حسين محمد نقشة ص ٦٦ ط الهيئة العامة للكتاب . ولكن البيت في الديوان يختلف فيه بعض الألفاظ فهو فيه هكذا :  
الله أرهقك الهزيمة إذ جذبتك آجال الردى جذبا  
٣ - أبو تمام الطائي ص ٨٩ - ٩٠

## رحيله عن مصر الى الشام

رأينا كيف وصل الضيق النفسي والمادي إلى ذروته عند أبي تمام فأصبح متبرما ضيق الصدر بالإقامة في مصر، ويبدو - أيضا - أن حنينه قد نازعه إلى أهله وأحبائه لا سيما بعد أن طال أمد افتراقه عنهم وشوقه إليهم فعاد أبو تمام إلى الشام وأمّ دمشق، ومكث بها وفي العام التالي كان الخليفة ( المأمون )<sup>(١)</sup> مارا بدمشق آيّا من غزو الروم وكان ذلك عام ( ٢١٥ هـ ) فتعرض له أبو تمام بالمديح ولكن المأمون أعرض عنه وويّحه .

ذلك ( لأن المأمون في تلك الأثناء كان قد انقلب على آل علي وأحنقه أن يرى أبا تمام يمدحهم يعيّن القصائد ويعرّض فيها ببني العباس )<sup>(٢)</sup>.

وظل أبو تمام يمدح ثم يعود فيهبو من كان مدحه لأنهم لم يقدره قدره ولم ينحوه ما كان يتطلع إليه ، وبعد أن أوصد المأمون الباب في وجهه وخاب أمله في أن يأخذه معه إلى بغداد ويكون ضمن بلاطه ( لم يجد بداً من التطواف في غيرها من البقاع ، فرحل إلى ما بين النهرين وشمال سورية وأرمينية ثم إلى حمص وألقي بها عصا التسيار زمنا وفيها قصده البحري بشعره يعرضه عليه ويستمع إلى نصائحه ووصاياه )<sup>(٣)</sup>.

وقال الدكتور / عمر فروخ ( اعتزل إلى شمالي الشام وشمالي العراق وإلى أرمينية وقضى معظم أوقاته في الموصل )<sup>(٤)</sup>.

١ - الخليفة السابع من خلفاء الدولة العباسية ، ولي الخلافة عام ١٩٨ هـ / ٨١٢م بعد أخيه الأمين وظل على رأس الخلافة حوالي عشرين عاما.

٢ - معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول / محمد نبيه حجاب ص ٢٤٦.

٣ - السابق ص ٢٤٦.

٤ - تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ص ٢٥٢

ويبدو أنه ظل مدة يتنقل بين الموصل وحمص ويمكث هنا وقتاً وهناك آخر  
ولكن الثابت أنه زار أرمينية خاصة ، وأنه مدح واليها خالد بن يزيد الشيباني -  
بعدة قصائد تنضح أبياتها بكرم خالد على أبي تمام من مثل قوله :

يا مسائلي عن خالد وفعاله      ردّ فاغترف علماً بغير رشاء (١)  
**وقوله :**

إلى ملك لولا مجال نواله      لما كان للمعروف نقي ولا شخب (٢)  
من اللبّيض محجوب عن سوء والخنا      ولا تحجب الأنواء من كفه الحجب  
مصون المعالي لا يزيد أذاله      ولا مزيد ولا شريك ولا الصلب (٣)  
**وقوله :**

بجودك تبيض الخطوب إذا دجت      وترجع في ألوانها الحجج الشهب  
إذا سبب لسي كهاما لدى امرئ      أجاب رجائي عنك السبب العضب (٤)

وفي سنة ١٢٨ هـ - ٨٢٢ م توفي المأمون ، وجاء من بعده على كرسى الخلافة  
أخوه ( المعتصم ) وكانما كان موت المأمون هورتاج الباب الذي قد كسروا كما  
الدنيا أرادت أن تقبل علي الشاعر بوجهها ، وفتح المعتصم ما كان أغلقه المأمون  
وأوصده من أبواب في وجه أبي تمام ، فلقد لمح نجمه ، ويزغ ، وكثر شعره فسمع به  
المعتصم ( فاستدعاه وهو في سامراء " سر من رأى " ومكث في رحابه زمناً يمدحه  
ويظفر بجوائزه ، ويبدو أنها كانت دون ما يطمح إليه ) (٥).

ويبدو أن طبيعة أبي تمام لن تتغير في الإلحاح في الطلب ، واستعجاله فإذا  
ما أبطأ ممدوحه عليه أو كان عطاؤه دون ما يرجو فما يلبث أن يهدد بالرحيل وهذا

١ - شرح الديوان ج ١ ص ١٢ ورد : قل أمر من ورد والرشاء - هو حبل يشد به الدلو.

٢ - النقي : مخ السمين - والشخب / صوت خروج اللين من الضرع.

٣ - شرح الديوان ج ١ ص ١٨٢ والصلب : أحد أجداد الممدوح وقيل اسمه قيس.

٤ - المايق ج ١ ص ١٩٦.

٥ - معالم الشعر وأعلامه / ٢٤٦.



ما حدث بينه وبين المعتصم أولاً، فمكث مدة قصيرة في بغداد ثم رحل عنها إلى خراسان وكأنما استقل ما يوجد به المعتصم عليه، وفي ذلك يقول:

والأبيات توضح مدى تفرقة نفسه بين تلك البلاد فأهله بالشام ، وأحبابه ببغداد ، وهو في الرقة <sup>(٢)</sup> وأخوانه في القسطنطينية وعينه طامحة إلى الاكتحال برؤية بقية أقربائه في خراسان ، وكأنما كانت إقامته في الرقة التي أشار إليها في الأبيات إرهادا منه لإقامته الخالدة بين أهله وبلاده ، فبعد أن ظل أبو تمام متنقلا بين الثغور يمدح ولاتها ويضطرب بين هذا وذلك يبحث عن المال والشهرة زمنا ، نراه يرحل إلى خراسان ، وكان واليها يومئذ ( عبد الله بن طاهر بن الحسين ) <sup>(٣)</sup> وكان قد التقى به أبو تمام في مصر أيام كان فيها .

- (١) - شرح الديوان ج ٣ ص ٣١٠ - وحلوان : موضع بالعراق.
- (٢) - الزرقا مدينة علي الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي ويقال لها الزرقا البيضاء.
- (٣) - والي خراسان من قبل الخليفة العباسي ، ولها بعد أبيه ثم أخوه وكان ذلك عام ٢١٥ ، وكان جوادا كريم النفس وكان بارع الأديب حسن الشعر ، وتلقد الأعمال الجليلة وأول ولايته مصر - (أبو تمام الطائي ص ١١٨).
- (٤) - (أبو تمام الطائي ١١٩).

بقول صاحب ( الأغاني )، لما قدم أبو تمام إلى خراسان اجتمع الشعراء إليه وسألوه أن ينشد لهم فقال : وعدني الأمير أن أنشده غداً ، وستسمعونى (١).

فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عوادي يومئذ وصواحيه      فعزماً فقدماً أدرك السؤل طالبيه  
فلما بلغ إلى قوله :

وقللت نأى من خراسان جأشها      فقلت اطمئنى أنضر الروض عازبه  
وركب كأطراف الأسنة عرسوا      على مثلها والليل تسطو غياهبه  
لأمر عليهم أن تتم صدوره      وليس عليهم أن تتم عواقبه

فصاح الشعراء بالأمير أبي العباس (٢) : ما يستحق مثل هذا الشعر غير الأمير أعزه الله ! وقال شاعر منهم يعرف بالرياحى : لى عند الأمير - أعزه الله - جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاءً على قوله للأمير ، فقال له : بل نضعها لك ، ونقوم له بما يجب له علينا ، فلما فرغ من القصيد نثر عليه ألف دينار ، فللقطها الغلمان ولم يمس منها شيئاً ، فوجد عليه عبد الله وقال : يترفع عن برى ، ويتهاون بما أكرمه به . فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك (٣).

وكما هو واضح من قول ( الأصفهاني ) أن ابن طاهر قد غضب على أبي تمام لأنفته وكبريائه أن يلتقط الدنانير الملقاة على الأرض فلم يرض ابن طاهر بما فعله أبو تمام فمنع عنه بره ووصله ولعل هذا الفعل من أبي تمام لم يكن السبيل الأوحـد لغضب ابن طاهر عليه، فقد روى ( الصولى ) في كتابه سببين آخرين لغضب عبد الله بن طاهر :

١ - الأصح : ستسمعوننى .

٢ - أبو العباس : كنية عبد الله بن طاهر .

٣ - الأغاني ج ١٦ ص ٣٨٩ ط دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومي تحقيق / عبد السلام هارون ومعنى - وجد عليه - أي غضب عليه .

أحدهما: أن أبا تمام حجر<sup>(١)</sup> على بابيه مدة ، هو وجماعة فكتب إليه شعراً يقول فيه ،

أيهذا العزيز قد مسنا الضر      ر جميعا وأهلنا أشتات  
ولنا في الرجال شيخ كبير      ولدينا بضاعة مزجاة  
قلّ طلابها فأضحت خسارا      فتجاراتنا بها ترهات  
فاحتسب أجرنا وأوف لنا الكير      ل وصدق فإننا أموات<sup>(٢)</sup>  
وكتب هذه الأبيات في ورقة وأرسلها إلى ابن طاهر فغضب عبدالله بن طاهر من محاكاته القرآن .

\* والثاني: ( وقيل: بل إن أبا تمام ، لما دخل أبر شهر<sup>(٣)</sup> هوى بها مغنية كانت تغنى بالفارسية ، وكانت حاذقة طيبة الصوت ، فكان عبدالله كلما سأل عنه أخبر أنه عندها فنقص عنده )<sup>(٤)</sup> .

وأرى أن هذه الأسباب - سواء أكان الأول منفرداً أو مضموماً إلى السببين اللذين ذكرهما ( الصولي ) - لا تقوى بحال من الأحوال حتى تصبح سبباً في غضب عبدالله بن طاهر - وإنما هناك سبب آخر كان هو المسبب لغضب ابن طاهر ثم جاءت هذه الأسباب الأخرى مجتمعة لتقوى ذلك الغضب وتزكى جنوته ألا وهو: أن أبا تمام لما نزل خراسان ومدح عبدالله بن طاهر وأغدق عليه الأعطيات واستقبله شعراؤه استقبالا جميلاً ، ظن ابن طاهر أن أبا تمام سوف يقصر مدحه عليه ، ولكن أبا تمام خالف ظن ابن طاهر ومدح شخصا آخر

١ - حجر علي بابيه: أي وقف ممنوعاً من الدخول.  
٢ - أخبار أبي تمام / الصولي ص ١٠٤ ، وهذه الأبيات لم أجدها في ديوانه وما أظنها إلا ضاعت كثير شعره.  
٣ - بلد بخراسان - أو هي نيسابور (معجم البلدان ٦/٦٥١) .  
٤ - أخبار أبي تمام ص ١٠٥ .

يدعى (أبا عبد الله حفص بن عمر الأزدي) وكان ذلك الرجل رئيساً من رؤساء العرب في ذلك الأقليم. ومن مدحه فيه قوله :

توم شهاب الحرب حفصاً ورهطه	بنو الحرب لا ينبو ثراهم ولا يكدي
ومن شك أن الجود والبأس فيهم	كمن شك في أن الفصاحة في نجد
أنخت إلى ساحلتهم وجنابهم	ركابي وأضحى في ديارهم وفدى
إلى سيفهم حفص ومازال ينتضى	لهم مثل ذاك السيف من ذلك الغمد
فلم أغش باباً أنكرتسى كلابه	ولم أتشبث بالوسيلة من يعد
فأصبحت لا ذل السؤال لأصايني	ولا قنحت في خاطري روعة الرد <sup>(١)</sup>

ومضى في تلك القصيدة على هذا النحو من مدح حفص ودشنه برائع المديح وألبسه أثواباً من الثناء ويعد هذا المدح الذي لم يمدح بمثله أبو عبد الله حفص بن عمر الأزدي ، نرى أبا تمام ينفذ الغبار عن صفحة من التاريخ ويظهرها واضحة جلية ، في تلك الصفحة يذكر بالنزاع الذي قد وقع من حين لأخر بين الفرس والعرب ، وأن العرب قد انقسموا على أنفسهم ولكن حفص استطاع أن يجمع صفوفهم وأن يوحد كلمتهم وفي ذلك يقول :

وأنت وقد مجت خراسان داءها	وقد نغلت أطرافها نغل الجسد
وأوباشها خزر إلى العرب الألى	لكيما يكون الحر من خول العبد
ليألى بات العز في غير بيته	وعظم وغد القوم في الزمن الوغد
وما قصدوا إذ يسحبون على أئمنى	بربهم إلا إلى وارث البرد
وراموا دم الإسلام لا من جهالة	ولا خطراً بل حاولوه على عمد
فمجوا به سماً وصاباً ولو نأت	ميوفاك عنهم كان لأحلى من الشهد
ضممت إلى قحطان عدنان كلها	ولم يجدوا إذ ذاك من ذلك من بد

١- شرح النيان / ٢ / ١٢٢.

فأضحت بك الأحياء أجمع ألفة كما لحكت في النظم واسطة العقد<sup>(١)</sup>  
وهذه الأبيات السابقة مترابطة المعنى يقول فيها لحفص إنك إذ فسد  
الخراسان وأضمروا الغدر وجعل أوباشها ينظرون إلى العرب الأحرار نظرة الوقية  
والتريص لكى يتحكم العبد منهم فى الحر من العرب ، وعندما غُصِب العز وتعاضم  
الأوغاد وهموا باحتلال الخلافة ، وتعمدوا أن يخوضوا دم المسلمين الذى بدأ لهم -  
بفضلك - كالسم والحنظل ، إنك عندما جرى ذلك كله جمعت بنى عدنان وقحطان  
والفت بينهم كواسطة العقد ، وقضيت على أولئك الثوار الغادرين .

يقول الدكتور / البهيبي : ( هذه الأبيات ، على ما أرى هى التى  
أغضبت عبد الله بن طاهر على أبى تمام ، فقد كان عبد الله ينحدر من أصل  
فارسي ، فأبوه طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان ، وفى رواية أخرى  
زريق بن أسعد بن رانويه ، وفى رواية ثالثة : أسعد بن زدان : كما يقول ابن خلكان .  
فإذا قال أبو تمام عن فارس خراسان ، وهم الذين كانوا يترقبون الفرصة  
للوثوب :

وأوباشها خزر إلى العرب ..... البيت

أحس عبد الله أمر ما يحسه الإنسان إذا مست قوميته<sup>(٢)</sup> .

ولا ننسى ما فعله أبو تمام أنفا من عدم مس الدنانير التى ألغها عليه  
ابن طاهر حينما انتهى من القصيدة التى مدحه بها فكان ابن طاهر اجتمعت  
في مخيلته تلك الأشياء السابقة : يستنكف أبو تمام أن يمس الدنانير الملقاة عليه  
ثم يقول عن الخراسان أنهم أوباش بل أوغاد ، فلا شك أن هذه الأبيات لا بد وأن  
تغضب رجلا حتى ولو كان فارسيا بالولاء ، وهذا ما جعل ابن طاهر يقاطع أبا

١ - شرح الديوان ج ٢ ص ١٢٢ .  
٢ - أبو تمام الطائي / ١٢٣ .

تمام زماننا ولكن أبا تمام لم ينقطع عن باب ابن طاهر، وخاصة بغد أن حل الشتاء  
بجده القارس واشتدت الفاقة بأبي تمام وهو مازال بنيسابور فأخذ يبكي تلك  
الأمال العريضة التي أملها، حينما ولي وجهه شطر خراسان وأحس بأنه وحيد  
غريب فأخذ يصف سوء مطلبه بنيسابور ويشكو الدمر ويقول -

صريع هوى تغاديه الهموم	بنيسابور ليس له حميم
غريب ليس يؤنسه قريب	ولا يأوى لغربته رحيم
مقيم في ديار نوى شطون	يشافهه بها كمد مقيم <sup>(١)</sup>
يمد زمامه طمع مقيم	تدرع ثوبه رجل عديم
رجاء ما يقابله رجاء	هو الياس الذي عقباه شوم
فلا عجب وإن كظت ركابي	بأرض طار طائرها المشوم <sup>(٢)</sup>

ويسير في الأبيات إلى آخرها شاكياً دهره ونادماً على تركه داره وأهله  
بالشام، وتوجهه تلقاء خراسان :

فقد فارقت بالغربي داراً	بأرض الشام حف بها النعيم
هي الوطن الذي فارقت فيه	وفارقتي المساعد والنديم
وكننت بها الممنع غير وغد	ولا نكد إذا حل العظيم
فإن أك قد حلت بدار هون	صبوت بها فقد يصبو الحلیم
ألمئك لا ألوم سواك دهر	قضى لي بالذي يقضى سدوم <sup>(٣)</sup>
إذا أنا لم ألم عثرات دهر	أصبت بها الغداة فمن ألوم ؟

(١) - شطون : بعية - يشافهه : يحادثه.  
(٢) - كظت ركابي : جهت وتعت طائرها المشوم: أي إنها بلد نص وخسارة.  
(٣) - سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له (سدوم) . وهنا يشير إلى هذا القاضي الظالم المتهتك . وكان يضرب به المثل في الجور فيقال (أجور من قاضي سدوم). (معجم البلدان / ٣ / ٢٠٠ . ط دار أحياء التراث العربي - بيروت).

وفى الدنيا غنى لم أنسب عنه ولكن ليس فى الدنيا كريم<sup>(١)</sup>  
ولعل ما حدث له من شدة الحاجة وأستيلاء اليأس عليه ما جعله يسعى إلى  
إرضاء ابن طاهر ويوسط بينه وبينه شاعره (أبا العميثل)<sup>(٢)</sup>.

يقول صاحب الأغاني، (أخبرنا محمد بن العباس اليزيدى قال : حدثنى عمى  
الفضل قال : لما شخص أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر وهو بخراسان ، أقبل الشتاء  
وهو هناك ، فأستثقل البلد ، وقد كان عبد الله وجد عليه ، وأبطأ بجائزته لأنه نثر  
عليه ألف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها ، فأغضبه وقال : يحتقر فعلى ويترفع  
على ، فكان يبعث إليه بالشئ بعد الشئ كالقوت ، فقال أبو تمام ،

لم يبق للصيف لا رسم ، ولا طلل ولا قشيب فيستكسى ولا سمل<sup>(٣)</sup>  
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما يبكى الشباب ويبكى اللهور والغزل  
يمنى الزمان انقضى<sup>(٤)</sup> معروفها وغدت يسراه وهى لنا من بعدما بدل

فبلغت الأبيات (أبا العميثل) (شاعر آل عبد الله بن طاهر، وعاتبه على  
ما عتب عليه من أجله ، وتضمن له ما يحبه ، ثم دخل إلى عبد الله ، فقال : أيها  
الأمير : أنتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ماله من النباهة في  
قدره ، والإحسان في شعره ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره والتوقى لذمه  
، يوجب على مثلك رعايته ومراقبته ، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن وفراقه  
السكن ؟! وقد قصدك عاقداً بك أمله ، معملاً إليك ركابه ، متعباً فيك فكره وجسمه

١- شرح الديوان / ٤ / ٥٣٨.

٢- هو عبد الله بن خالد بن سعد ، من الشعراء الفضلاء ، كان أبوه خالد مولى لثني العباس اتصل بالأمير  
طاهر بن الحسين ، فاستكتبه طاهر وعهد إليه بتأديب ولده عبد الله ، فإقام معه في خراسان ، ثم كان  
كاتب عبد الله بن طاهر وشاعره إلى أن توفي سنة ٢٤٠ هـ - الأغاني / ٤٢٧/١٦ ط دار الكتب العلمية  
بيروت.

٣- الرسم والطل / البقاي من الديار القشيب / ثوب جميل جديد سمل / ثوب بالي.

٤- في شرح الديوان / طوت ج ٤ / ٥٢٦.

، وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه ، حتى ينصرف راضيا ، ولولم يأت بفائدة ولا  
سمع فيك منه ما سمع إلا قوله ، -

تقول فى قومس صحبى وقد أخذت منا السرى وخطأ المهرية القود<sup>(١)</sup>  
أمطلع الشمس تبغى<sup>(٢)</sup> أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود  
فقال له عبد الله ، لقد نبهت فأحسننت ، وشفعت فلطفت وعاتبت فأوجعت ،  
ولك ولأبى تمام العتبى ، ادعه يا غلام ، فدعاه فنادمه يومه ، وأمرله بالفى دينار ،  
وما يحمله من الظهر ، وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر ببذرقته<sup>(٣)</sup> إلى آخر  
عمله<sup>(٤)</sup>..... قد أكون أسهبت فى ذكر ما كان من أبى تمام حيال عبد الله بن  
طاهر ولكن عذرى أن رحلة أبى تمام إلى عبدالله بن طاهر فى نيسابور تعد أشهر  
رحلاته إلى الأمراء وبعد ... فيبدو أن أبا تمام قد برم بالإقامة فى خراسان فولى  
وجهه شطر بغداد وأغلب ما كان ذلك آخر سنة ٢٢٧ ، أو أول سنة ٢٢٨ وفى أثناء  
رجوعه كما يقول الدكتور / شوقي ضيف :

( مر بهمنان ، فأكرمه أبوا الوفاء بن سلمة ، وحبسه الثلج هناك مدة طويلة  
، فانكب على خزانة كتبه ولم يلبث أن فكر فى تأليف مجاميع من الشعر ، فالف  
خمسة كتب أهمها الحماسة التى دوت شهرتها )<sup>(٥)</sup>.

١ - فى شرح الديوان (يقول) ج ٤ ص ١٢٢ ، وقومس : كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقري  
ومزارع وهي فى نيل جبال طبرستان (ياقوت ج ٤ ص ٤١٤ ) وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أنها  
بين العراق وخراسان وطبرستان بالقرب من أصفهان وكانت على طريق القوافل بين الري وخراسان .  
والمهرية : الأبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان وهم حي عظيم من الزيم (لسان العرب ج ٦ ص  
٤٢٨٧) أو هي العطية التى لها نشاط المهر .  
٢ - فى شرح الديوان - (تنوي) ج ٤ ص ١٢٢ .  
٣ - يذوقه / حراسته .  
٤ - الأغاني ج ١٦ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ ط دار الكتب العلمية - بيروت .  
٥ - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٢٠ ط دار المعارف .



وهنا سؤال يطرح نفسه ألا وهو :

كم كان طول المدة التي مكثها أبو تمام حتى يتمكن من قراءة خزانة كتب  
ثم يفكر في تأليف مجاميع شعرية أو كتب ؟

لم يبين الدكتور / ضيف طول تلك المدة ، ولكنه اكتفى بقوله : ( مدة طويلة )  
بيد أن عبارة ( حبسه الثلج ) تدل ضمناً على مقدار تلك المدة التي مكثها أبو تمام  
في همدان حيث لا تتعدى الشهور القليلة ريثما ينوب الثلج ، وهذا كلام يصعب  
معه تصديق إن أبا تمام قد ألف كتبه الخمسة<sup>(١)</sup> في تلك الأثناء ، إذ ليس من  
السهل تأليف مجموعة من الكتب في بضعة شهور قليلة كان فيها مرهونا بزوال  
الثلج إلا إذا كان أبو تمام قد استعذب الإقامة في همدان فأقام بها مدة تمكنه من  
تأليف تلك الكتب ، وعلى كل فإن ذلك كان في أواخر سني أبي تمام .

يقول الدكتور / عمر فروخ : ( في تلك الأثناء كان الشاعر قد نال حظوة  
عند المعتصم ، وعند أمراء البلاد ورجال الدولة . كأحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن  
عبد الملك الزيات وجعفر الخياط القائد وغيرهم ، وقد عنى الحسن بن وهب<sup>(٢)</sup> به  
عناية فائقة ، وأراد أن يكرمه ؛ فطلب منه الشاعر أن يجعله في الموصل ، قيل  
إختارها لأنه قضى فيها زمناً طويلاً بعد انصرافه عن المأمون<sup>(٣)</sup> وفي الغالب كان  
ذلك عام تسعة وعشرين ومائتين إذ إن أقدم الآثار التي وردت في روايات موت  
أبي تمام تقول : إن أبا تمام قد مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، وذلك في كتابي  
" أخبار الصولي " وأغانى الأصفهاني

١ - لأبي تمام كتب خمسة أو هي طي الأظب ستة جميعها مختارات ، ومنها الحماسة ، واختيار من شعراء  
البحر - واختيار من شعراء القبائل واختيار من شعراء المحدثين .  
٢ - كان الحسن كاتباً لابن الزيات ، ثم تولى ديوان الرسائل .  
٣ - أبو تمام / عمر فروخ ص ١٨ ، ١٩ .

**ويؤكد الدكتور / فروخ هذا بقوله :**

( في الموصل - ولاء الحسن بن وهب بريد الموصل ، ولكنه لم يكت طويلا بل توفي بعد عامين من ولايته <sup>(١)</sup> )

وأغلب الظن أن أبا تمام هو الذي طلب من صديقه الحسن بن وهب ، أن يوليه بريد الموصل ، وما ذلك إلا تلبية لفكرة العمل المستقر الذي ينال من ورائه أجراً ثابتاً بعد أن تعبت نفسه من أثر طول الصراع مع الدنيا ، ومن عبوس وجهها الذي لازم وجهه منذ تطوافه على أبواب الخلفاء والوزراء والأمراء ، بل قل منذ أن كان طفلاً مع أبيه في دمشق يعمل مع قزاز " حائك " وتركه ذلك ، وهجرته إلى مصر وغيرها من البلدان ليجد ما كان يأمله من الدنيا ، بالإضافة إلى أنه كان يريد جمع ثروة - من وراء هذا العمل الثابت - كان يرى كل رجال الدولة يجمعونها من عملهم ، وما ذلك إلا لأنه لم يستطع جمع ثروة من وراء شعره لما اشتهر به من الكرم وإيثاره على نفسه أليس هو القائل :

لا تتكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي ١٢

● موت الشاعر

أردا شاعرنا في أخريات حياته أن يريح جسمه الكليل ، وأن يستقبل الحياة من جديد بوجه جديد ، وأن تستقبله الحياة والبسمة ملء ثغرها ، بدلا من تلك الضحكات الصفراء الباهتة ، التي كانت تستقبله بها كل مرة يهاجر فيها بيد أن الناس لا يقتسمون حظوظهم في هذه الحياة ، فقد لبى الرجل نداء ربه وأسلم روحه لبارئها في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، وعمره إذ ذاك لا يتجاوز الاثننتين والأربعين سنة ، وبذلك صدقت نبوءة أبي يوسف الكندي الفيلسوف حينما مدح أبو تمام الخليفة المعتصم بقوله :

١ - السابق ج ١٩ .

أقدام عمرو في سماحة حاتم      في حلم أحنف في ذكاء إياس  
وكان الكندي جالساً فقال له (١): أتشبه الأمير بإجلاف العرب؟! الأمير  
فوق من وصفت ، فأطرق الشاعر قليلاً ثم رفع راسه وأنشد :

لا تنكروا ضربي له من دونه      مثلاً شروداً في الندى والبأس  
فإنه قد ضرب الأقل لنوره      مثلاً من المشكاة والنبراس  
ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين ، فعجبوا من  
سرعته وفطنته ، فقال الكندي للخليفة : أى شئ طلبه فأعطه ، فإنه لا يعيش أكثر  
من أربعين يوماً لأنه قد ظهر في عينيه الدم من شدة الفكر ، وقيل : قال أنه يموت  
قريباً أو شاباً ، فقبل له وكيف ذلك ، فقال : رأيت فيه من الذكاء والفطنة ما  
علمت أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده ، وأن هذا  
الفتى ينحت من قلبه ، فقال له الخليفة : ما تشتهي ؟ قال : الموصل فأعطاه  
أيامها فتوجه إليها وبقي فيها مدة ثم مات سريعاً وقد نيف على الثلاثين .

ودفن بها وبني عليه ( أبو نهشل بن حميد الطوسي ) قبة ، يقول  
ابن خلكان ، أنه رأى قبره بالموصل خارج باب الميدان ، على حافة الخندق والعمامة  
تقول : هذا قبر تمام الشاعر .

ثم يتابع قوله فيذكر أنه سأل شرف الدين أبا المحاسن محمد بن عنين  
الشاعر عن معنى قوله :

سقى الله دوح الغوطتين ولا ارتوت      من الموصل الحدياء إلا قبورها  
لم حرمها وخص قبورها ؟ فقال : لأجل أبي تمام. (٢)

١ - قول ابن وزير المعتصم هو من قال ذلك . ولكن الصحيح أنه الكندي .  
٢ - وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٧ ط دار صادر بيروت .

يقول الدكتور - الهمبتي ، ( مات كما يموت العظماء جميعاً لا تذرف  
الناس عليهم الدمعة من قلب حزين مكلوم ، ولكن الدمعة التي تعبر عن حس  
بخسارة شئ عظيم ، كان يملأ عليهم حياتهم ، تلك الدمعة الداهلة لانهايار الطود  
الشامخ ، لا الدمعة الالمة الصادرة عن قلب جريح . لم يرث أحد منهم أباً تمام  
ولكنهم رثوا شعر أبي تمام ، وكان في نفوسهم أخلد من شخصه ) (١).

#### ● رثاء أبي تمام

مات أبو تمام ، فبكاه إناس كثيرون ، ولكنهم قلة إذا ما قورنوا بمن رثاهم أبو  
تمام . يقول صاحب " شذرات الذهب " : ( رثاه جماعة منهم أبو نهشل بن حميد  
الذي ولاه الموصل (٢) فقال :

فجع القريض بخاتم الشعراء      وغدير روضتها حبيب الطائي  
ملأنا معا فتجاورا في حفرة      وكذلك كأننا قبل في الأحياء  
وأظن أن الشيخ واهم ، ولم يخالفه الصواب ، لأن من ولاه الموصل هو الحسن  
بن وهب ، وهو ما ذكره ابن خلكان فقال : " ورثاه الحسن بن وهب بقوله :  
ونكر البيتين السابقين . (٣) وقيل أن هذين البيتين : لديك الجن (٤) رثاه بهما .

#### ورثاه الحسن بن وهب بقوله من قصيدة :

مقاً بالموصل القبر الغريباً      سحائب ينتحبين له نحيباً  
إذا أطللنّه أطللن فيه      شعيب المزن يتبعها شعيباً  
ولطمّن البروق به حدوداً      وشققن الرعود به جيوباً  
فلن تراب ذاك القبر يحوى      حبيباً كان يدعى لى حبيباً

١ - أبو تمام الطائي من ١٧٠ .

٢ - ج ٢ من ٧٤ .

٣ - وفیات الأعيان ج ٢ من ١٨ .

٤ - شاعر عيسى اسمه عبد السلام بن رعيان .

ومن الذين رشوه أيضاً ، محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم  
بقوله :

نبأ أتى من أعظم الأنبياء      لما ألم بمقتل الأحناء  
قالوا : حبيب قد ثوى فأجبتهم      ناشدكم لا تجعلوه الطائي  
وقيل : أن هذين البيتين لأبي الزبرقان : عبد الله بن الزبرقان الكاتب مولى  
بني أمية .

ولعل هذين البيتين أكثر ما قيل في أبي تمام جزعا عليه<sup>(١)</sup> .

---

١- أبو تمام الطائي ج ١٧١ .

### المبحث الثالث المقصود بالعروبة عند أبي تمام

#### ● مفهوم العروبة والمقصود بها

لم يسلم أبو تمام - كأي رجل موفق موهوب - من الخلاف حوله ، وحول نسبه على وجه الخصوص فقد دار حول نسبه جدل كثير في الخلاف حول أصله وجنسه ودينه ومؤاده ، من أي أصل ينحدر أبو تمام ؟ وإلى أي جنس ينتمي ؟ أو بعبارة أخرى أدق ، أعربي هو أم يوناني ؟

فقد حاول أن يلقي ظلاً من الشك على نسبه بعض معاصريه ، فزعم أن أباه كان نصرانياً اسمه ( تدوس ) العطار - ولهذا الاسم قراءات مختلفة منها - ندوس " بدوس " ثاذوس " ثديوس " ولعل أقربها إلى الصواب ما قرأه " مرجليوث " فهي عنده " تدوس " التي ربما كانت مجزوءة من ثيودوسيوس اليونانية<sup>(١)</sup> وأنه حرف هذا الاسم إلى أوس وصنع له نسبة في طيئ يقول " طه حسين " أما نسبه فالخلاف فيه أعظم من هذا جداً<sup>(٢)</sup> وهو يشير بالعبارة السابقة إلى الخلاف في مولده فنحن نعرف أنه أبو تمام - حبيب بن أوس الطائي ، وهو يتحدث بذلك ويفخر بأنه طائي ، فهو إذا مدح أحمد بن أبي دؤاد ، وزير المعتصم وزعيم المعتزلة في عصره فاخره وتحدث كما يتحدث الند إلى الند ، فزعم في القصيدة التي مطلعها ،

\* أرايت أي سواف وخذود \*

١ - دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٣٨ ط دار الشعب - القاهرة .  
٢ - من حديث الشعر والنثر ص ٩٥ ط دار المعارف .

فذكر أن مكانه من أحمد مكان الرجل السرى<sup>(١)</sup> الذي يستطيع أن يساميه وأن القبيلتين (طيئ وإياد) تتقاربان وتشتركان في المجد، فطئ حاقها وإياد كعب<sup>(٢)</sup> وفي معرض الحديث عن الخلاف في نسب أبي تمام يضيف ( طه حسين ) قائلاً :

( ولكن قوماً كثيرين من الذين عاصروا أبا تمام وكتبوا عنه بعد موته يتحدثون أن أبا تمام لم يكن من طئ في شيء ، بل لم يكن من العرب في شيء وأويس هذا اسم صنعه أبو تمام وحرف عن اسم أبيه )<sup>(٣)</sup>.

وكانى بأبي تمام وأنا أنظر إليه من ستر شفيف ( إن صح التعبير ) لم يكذب يقيوه مكانته بين الشعراء ومكانه في مجالس الأمراء والوزراء حتى هبت زويدة من الخلاف حوله ، ولكن هذه الزويدة وكما يقول عبدالعزيز سيد الأهل<sup>(٤)</sup>

( إنها كانت من حظه ، فأذاعت صيت الرجل وذكره في أقطار الأرض في زمانه وسابرة شهرته حيثما اتجه وأسلمت ذكره ذائعاً إلى العصور التي تلتها وألهمت أن يختلف الناس حوله كما كانوا في أيامه )<sup>(٥)</sup>.

**فنحن إذن أمام مذهبين :**

**أما الأول :** فأصحابه يرون أن أبا تمام نصراني الأصل يدل اسم أبيه على أنه رومي يقول عمر فروخ : ( نستطيع أن نصل إلى رأى لا يحتاج إلى كثير من

١ - السرو: المروءة والشرف - ومعنى سرو الرجل أي ارتفع يرتفع فهو رفيع . لسان العرب ج ٣ ص ٢٠٠١ .

٢ - هو كعب بن مامة الإيادي - كان أحد أجواد العرب ، يضرب به المثل في الإيثار (هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام) يوسف البديعي ص ٢٤٩ وما بعدها ط مطبعة العلوم بالسيدة زينب - القاهرة .

٣ - من حديث الشعر والنثر ص ٩٥ .

٤ - المستشار الثقافي للجمهورية العربية المتحدة في بيروت سابقاً ص ١٩٦٣ .

٥ - عبقرية أبي تمام ص ٥٣ الطبعة الثانية - الناشر دار العلم للملايين - بيروت .

التحفظ في إبدائه وهو : أن تدوس هذا كان من الجالية الرومية التي كانت في سوريا قبل الفتح الإسلامي ، أو أنه جاء إلى هذه البلاد بعد ذلك <sup>(١)</sup>

#### ويقول الدكتور / عبده بدوي :

( والشك في نسبه وفي دينه قد جاء أصلاً من قول الصولي : قال قوم هو حبيب بن تدوس النصراني فغيره فصار أوسا كما أنه جاء في وفيات الأعيان لابن خلكان أن الأمدى ذكر في الموازنة أن أباه كان نصرانيا من أهل جاسم يقال له : تدوس العطار أو العقاقيري فجعلوه أوسا <sup>(٢)</sup> وقد اعتمد على هذا مرجليوث فذكر أنه كان نصرانيا فأسلم <sup>(٣)</sup> )

وقال كارل بروكلمان (بل هو من النصارى السريان )

فأصحاب الرأي الأول يرون أن أبا تمام نصراني الأصل كما أظهرنا ومن هؤلاء الأمدى في ( الموازنة ) وعمر فروخ ، وطه حسين ، ومرجليوث ، وكارل بروكلمان وغيرهم . من أمثال ابن نباتة المصري والذي قال ( وكان أبوه نصرانيا وكان إذا ذاك أبو تمام بمصر القاهرة في حادثته يسقى الماء بالمسجد الجامع ) <sup>(٤)</sup> بل لقد بالغ الأب ( لويس شيخو اليسوعي ) حينما قال : إن النصرانية لحقت أبا تمام نفسه <sup>(٥)</sup>

واستند من قال بنصرانية والد أبي تمام إلى أشياء منها ،

✓ أن نسبه في طيئ ليس فيها إلا عشرة آباء ، مع أنه لا يصح أن يكون بينهما أقل من ستة عشر آبا .

١- أبو تمام شاعر الخليفة المعتمد ص ١٠ الطبعة الأولى مطبعة الكتاب - بيروت.

٢- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٦ - الهيئة العامة المصرية للكتاب.

٣- دائرة المعارف الإسلامية ج ٦ ص ٣٨ ط دار المعارف.

٤- شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٢٥ . ويقصد بالمسجد الجامع / مسجد عمرو بن العاص.

٥- مجاتي الأدب في حقائق العرب ج ٦ ص ٣٠٥ الطبعة الرابعة - مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت.



- ✓ أن هناك اتفاقاً من الصولى والأممى على نصرانية والده فلا بد أن ابنه حبيباً نشأ على دينه .
- ✓ أن اسم حبيب شائع عند النصارى نادر عند المسلمين ومنها أيضاً :
- ✓ أن النصرانية كانت شائعة فى قبيلة طيى بعد الإسلام.
- ✓ أن فى مزاولته الحياكة والسقاية وهو صغير ما يدل على خموله بسبب دينه.
- ✓ ثم إنه ليس هناك كلام صريح لمن ترجموا له يستدل منه على أن أبا تمام قد حجد دينه المسيحى.
- ✓ وفى ضوء هذا يكون دخوله الإسلام عن مجاملة وطمع فى الدنيا. (١)
- ✓ ومما يؤكد هذا ما رواه المسعودى فى مروج الذهب من أنه كان ماجناً قليل الدين .

\* أما المذهب الثانى ، فأصحابه يرون أنه عربى من قبيلة طيى صليبة وليس منها بالولاء ولا بالتلفيق قال بذلك العديد من المؤرخين والأدباء من أمثال أبى بكر الصولى (٢) فى كتابه ( أخبار أبى تمام ) وأبى الفرج الأصفهانى فى ( الأغانى ) وابن حزم الظاهرى فى ( جهرته ) بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب التى أجمعت على أنه طائى والنسب تكتفى بأن تطلق عليه كلمة ( الطائى ) فيفهم أن المقصود بها هو ( أبو تمام ) .

١- أبو تمام وقضية التجديد فى الشعر / عهده بنوى ص ١٦ .  
٢- هو أبو بكر محمد بن يحيى بن العباس بن صول تكين المعروف بالصولي الشطرنجي ، من الأدباء الظرفاء ، حسن المعرفة بأدب الملوك والخلفاء والشعراء كثير التأليف والتصانيف توفي سنة ٣٣٥هـ ، أو ٣٣٦هـ .

يقول الدكتور / عبده بدوي ، ( لقد اهتم الكثيرون بهذه القضية ولقد كان من هؤلاء الدكتور نجيب البهيتي الذي ركز تركيزاً شديداً على عروبة أبي تمام<sup>(١)</sup> وكذلك الدكتور / عبد المتعال الصعيدي<sup>(٢)</sup> في كتابه ( مدرسة أبي تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين ) والذين يقولون بعروبة أبي تمام يحتجون بحجج لا تخلو من قوة يقول الدكتور / عبد المتعال الصعيدي ،

( وعندى أن من يلفق عشرة آباء يمكن أن يلفق الستة الباقية إذا كانت لازمة في ذلك على أن مثل عدد الأباء لا يمكن القطع بشئ فيه ، لأن العمر يختلف طولاً وقصراً ، وقد يكون عمر عشرة آباء مثل عمر ستة عشر أبا<sup>(٣)</sup> .

وذهب الدكتور / البهيتي إلى أن القول بنصرانية أبيه لا يتعارض مع طائفته . وقال إن عبارة الصولي لا تقدم ولا تأخر لأنه ذكرها شاكا ، وعبارة ابن خلكان التي استشهد بها ليست تامة .

ونخرج من ذلك إلى أن الأمدى لم يؤكد ما نسب إلى أبي تمام كما لم يؤكد الصولي ذلك<sup>(٤)</sup> .

ويضيف د/ عبده بدوي قائلا ، ( ثم إن أحداً من خصومه الكثر لم يقل بنصرانيته ما عدا ( مخلص بن بكار الموصلی ) .

يقول الدكتور / محمد مندور ( ونحن عندما ننظر في الشعر الذي هجى به أبو تمام نجده يدور دائماً حول إتهامه في نسبه ، فمخلص بن بكار الموصلی يقول :

أنت عند عربى	أصل ما فىك كلام
عربى عربى	أجأى ما تـرام <sup>(٥)</sup>
أنا ما ذنبى إن خا	لفنسى فىك الأثام

١ - أبو تمام ص ١٧ .

٢ - أستاذ بكلية اللغة العربية من جامعة الأزهر .

٣ - مدرسة أبي تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين ص ١٥ .

٤ - أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٧ .

٥ - أجـا- بالتحريك جبل لطيف ، يذكر ويونث . لسان العرب ج ٣ ص ٣٠ .

وَأَنْتَ مِنْكَ سَجَايَا      نَبْطِيَّاتٌ لُثَامِ  
ثُمَّ قَالُوا جَاسِمِي      مِنْ بَنَى الْأَنْبِاطِ خَامِ  
كَذَبُوا مَا أَنْتَ إِلَّا      عَرَبِيٌّ مَا تَضَامِ  
أَنْتَ عِنْدِي عَرَبِيٌّ      عَرَبِيٌّ وَالسَّلَامِ

وكان أبو تمام لا يجيب هاجياً له ، وقد سئل يوماً أن يرد على الموصلي فقال:  
( أن جوابي يرفع منه وأستدبر به سبه فإذا أمسكت عنه سكنت شقشقتة<sup>(١)</sup> ) وما  
في فضل عن مدح من اجتديه ( وفي هذا ما قد يشعر بأن أبا تمام قد كانت فيه  
مواضع ضعف لعل منها نسبه )<sup>(٢)</sup> .

وهذه الجملة الأخيرة قد تفيد أن الدكتور / مندور يؤيد تهمة الكفر التي  
نسبت لأبي تمام ولكنه وبعد قليل يرد على نفسه ويقول : ( ويقول شاعر آخر في هجائه :  
واذكر حبيب بن أوشونا ودعوته      فأين طيا إذا سموا به جزعوا  
لو أن عبد مناف في أرومتهم      تقبلوك لما ضرروا ولا نفعوا  
وإن فابو تمام كان يتهم بأنه نبطي وأنه ولد لأب نصراني ولربما كان  
في ذلك ما يفسر اتهامه بالكفر ولكن هذه التهمة كما قلنا لم ترد في كتب النقاد  
الذين ناقشوا شعره ودرسوه .

والرأي عندي ... أن أبا تمام عربي مسلم ، وأن ما قيل في مجال هجائه  
لا ينبغي أن يؤخذ مأخذ الحجة فكما هو معروف في علوم الحديث ( أن جراحات  
الأقران لا يعتد بها ) وذلك مشهور في علم الجرح والتعديل ، لما قد يدخل في ذلك  
من الحقد والحسد . وذلك لأن مبناه على التنافس .

١ - ( الشقشقة: لغة اللعير والجمع شقاشق ومنه سمي الخطباء شقاشق . قال أبو المنصور شبة الذي يتكلم  
في كلامه ويسرده مرددا لا يبالى ما قال من صدق أو كذب بالشيطان وإسقاطه ربه . لسان العرب ج ٤  
ص ٢٢٠٣ .

٢ - ( النقد المنهجي عند العرب ص ٨٢ الناشر / نهضة مصر .

ولعلنى لا أكون مخطئاً إذا قلت ، إن الشعراء كذلك يتنافسون فيما بينهم وخاصة إذا كان هذا التنافس يوصل إلى أبواب الملوك والأمراء الوزراء بل ومجالستهم ومنادمتهم وحصد الأموال من وراء ذلك وقصته فى مدح أحمد بن المعتصم معروفة مشهورة ولا أرى مقاطعة من قاطعه وهو ينشد الشعر إلا حسداً عليه وغيره منه .

بالإضافة إلى أنه إذا كان اسم ( أوس ) المحرف - كما قيل - عن تدوس جرت على أبى تمام النصرانية بل والكفر كما قال ( الصولى ) فهل يلزم من (كاوس) فى قول من جاء بقوله .

ولقد طلبت أبا فاعجز وجدته حتى أنبرى لك كاوس الخمار  
أن يكون أبوه فارسياً ؟! خاصة وأن اسم كاوس من الأسماء الفارسية .

يقول الدكتور / محمد مندور ، ( من الواجب أن نهمل ما يرويه الصولى من أن قوماً قد أدعوا على أبى تمام الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره وتقبيح حسنه ) وعلى هذه التهمة يرد الصولى نفسه بقوله ، ( وما ظننت إن كفراً ينقص من شعروا أن إيماناً يزيد فيه ، وكتب النقد التى بأيدينا لا تحمل أى صدق لهذه التهمة التى لم نجد لها إلا عند الصولى الذى يريد أن ينتصر لأبى تمام بكل الوسائل وأن يجرح خصومه بكافة السبل )<sup>(١)</sup> .

وكانى بالدكتور / مندور وهو يريد أن يقول : إن الصولى هو الذى فجر هذه الفكرة وهو الذى رد عليها ليكثر الكلام حول صاحبه إبعاداً لصيته وشهرته .

وأيضاً : ( أن ظاهرة كون أبى تمام عربى صليبة أو عربى بالولاء كانت تجدى ويكون لها شأن لو أن أبا تمام ولد فى العصر الأموى - حيث كان العرب

١ - النقد المنهجي عند العرب ص ٨١ .

ظاهرين على غيرهم - وحيث كان للنسب العربي ميزة على غيره أى ميزة ، ولكن الرجل ظهر فى عصر كان على العكس تماما من سابقه، عصرية سوى بين العرب وغيرهم وأصبح لا قيمة للتعالي بالنسب بينهم، فقد أفسح بنو العباس صدورهم للموالى من الفرس والترك وغيرهم .

يضيف إلى ذلك الدكتور / عبدالمعتز الصعبدى شيئا آخر فيقول : ( وكذلك نزعة أبى تمام إلى تقليد الشعراء الأوائل وإلى إعادة الشعر إلى قوته وفخامة لفظه ترجع أنه كان عربيا صليبة يتعصب لقديم العرب ، ولو سلم أن أباه كان نصرانيا لم يقدح بشئ فى أنه كان عربيا صليبة لأن النصرانية كانت قديمة فى طى وغيرها من قبائل العرب ، وكذلك لو سلم أن اسم أبيه كان تدوس أو تيودوس ، لأن من نصارى العرب من كان يؤثر هذه الأسماء الرومية بتأثير ديانتهم النصرانية )<sup>(١)</sup>.

من العرض السابق ندرك أن مفهوم العروبة عند أبى تمام . هو انحدار أبى تمام من أصول طائفة يمنية ، ومدى تأثير ذلك فى شعره ، ذلك لأن طى قبيلة يمنية عربية نزلت فى العصر الجاهلى شمالى ( نجد ) واتخذت الفصحى لسانا لها.

وأن ما اتهم به أبو تمام إنما هى مزاعم مبنية على اتهام باطل لبعض شائتيه ممن عاصروه وهذا الاتهام ينقضه نقضا كل من ترجموا لأبى تمام من المؤرخين الثقات إذ أجمعوا على أنه طائى صليبة لا حليفا ولا بالولاء .

وإذا تصفحنا ديوانه وجدنا شواهد كثيرة تقطع بعرويته ، ومن ذلك أنه كان شديد الفخر بطائفته ، وأنه اختار فى مطالع حياته ممدوحيه ومن يقدم إليهم قصائده إما من طى قبيلته الدنيا وإما من قبائل اليمن الأخرى .

ولعل فى هذا وما سوف يرد فى ثنايا البحث ما يدل بل ويقطع بعروية هذا

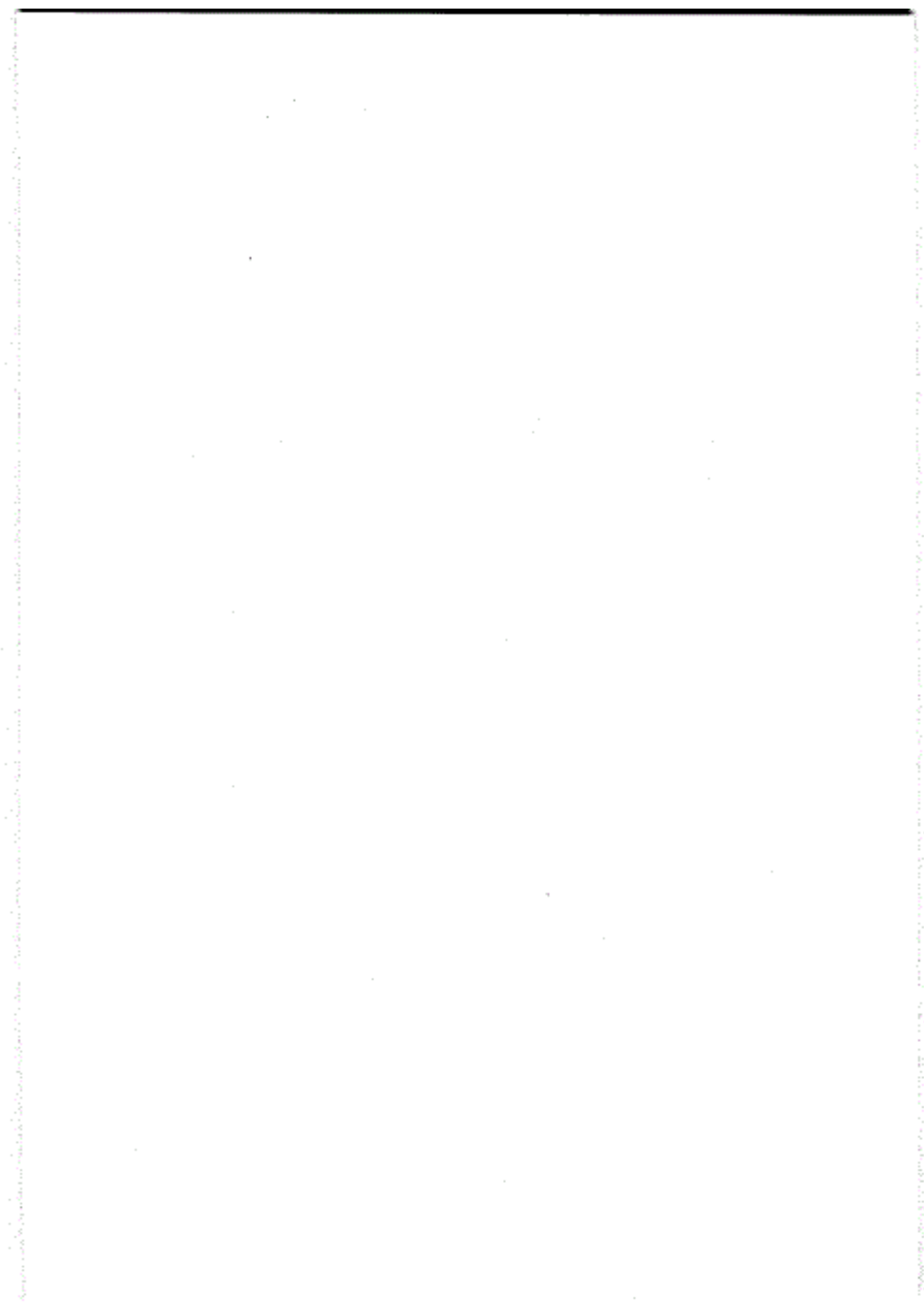
الرجل.

١ - مدرسة أبى تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين ص ١٥ .

---

## الفصل الثاني

### مظاهر العروبة في شعر أبي تمام



## المبحث الأول مظاهر العروبة في مدح أبي تمام

\* المديح :

فن من فنون الشعر العربي ، وباب من أبوابه التي يطرّقها الشعراء في كل عصر من العصور ، وفي كل بيئة من البيئات ، ويكاد يدور المديح عامة ، ومديح الشعراء خاصة في محور متقارب ، وهدف لا يتبدل - في الغالب - إلا تبديلاً غير جوهري .

( والمديح بصورته المعروفة هو إبراز الصفات الحسنة لدى الممدوح وتصويرها بشكل فني ، حتى يصل إلى الغلو في أحيان كثيرة . ويستغل الشاعر أدوات مهمة في إبراز تلك الصور الحسنة، يستخدم الماضي والحاضر، والحسب والنسب ، والأصول والأعراق ، والإسلام والدين ، والإيمان والتقوى والخير والبر والكرم والجود، والخبرة والوفاء ، والإباء والشمم ، والأمن والأمان ، والعلم والمعرفة . وفيه كل الصفات التي تجعل الممدوح رمزاً من رموز الحياة )<sup>(١)</sup>.

\* ولقد عرف الإنسان المديح منذ أن عرف أن الناس متفاوتو الحظوظ في هذه الدنيا فلم يقف مشدوها مكتوف الأيدي ، معقود اللسان ، بل وقف موقف المحترم لمن علوه ، المتوحد إليهم وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على ذكاء فطري قد أودعه الله في الإنسان وعلى اعتراف بالفضل لذويه ، ليتمكن معه من السعي إلى خطب ودهم والسعي إلى رضاهم ، والتجمل لهم بالفعل ؛ فإن لم يستطع في القول المعبر عن مديحه - صادقاً كان أو كاذباً - خارجاً هذا المديح من قرارة نفسه أو من طرف لسانه .

١ - أبو تمام . عصره - حياته - شعره / محمد رضا مروة ص ٧٣ دار الكتب العلمية - بيروت.



و ( المدح فن الثناء والإكبار والإحترام )<sup>(١)</sup> والإجلال يجسد فيه المادحون صفات ومدوحهم الطيبة ، ومزاياهم الرفيعة وأخلاقهم السامية ليخفوا بذلك ما كان مرزولاً من صفاتهم وأخلاقهم ، قاصدين من وراء ذلك رفع ذكر المدح أو الرغبة في استفتاح خزانهم ، وأيا كان هدف المادح ؛ فقد رفع بمدحه لواء المدح بين العامة والخاصة .

وقد اصطبغ فن المديح خلال عصوره المختلفة بأصباغ كثيرة فكلما استجد عصر ؛ ارتدى المديح ثوب العصر الذي يعيش فيه ( فقام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية )<sup>(٢)</sup> .

فتارة يرتدى ثوب الكرم وتارة أخرى يرتدى ثوب الشجاعة ، وثالثة يرتديها معاً مضموماً إليهما صفات أخرى مثل نقاء العرض ، وقوة البأس وجمال الطلعة ، والتمسك بالدين والعدل ، إلى غير ذلك من الصفات التي ينبغي توافرها في المدح ، خليفة كان أو غيره ممن يستحقون المدح والثناء .

يقول : سامي الدهان : فإننا رأيت مديحاً فاعرف أن ورائه يدا أسداها الخليفة إلى الشاعر ، أنقذه من بؤسه ، أو خلصه من حبسه أو أقطعه فحبيب إليه الدنيا وحرك لسانه بالثناء والشكر )<sup>(٣)</sup> والمديح من الأغراض القديمة التي عرفها العرب ، ونظموا فيها – ولا سيما – في العصر العباسي فقد أكثر منه الشعراء واقتنوا في معانيه ، وخلعوا عليه من أدواقهم ما جعله ذا طابع خاص يميزه في هذا العصر عنه في العصور الأخرى ، فقد أرخى الشعراء لأنفسهم العنان في

١ - المديح - سامي الدهان ص ٥ ط دار المعارف .

٢ - السابق ص ٥ .

٣ - المديح - سامي الدهان ص ٢٢ ، ويقصد بكلامه هذا : حال المديح في عصر بني أمية ومشايعته للمديح في العصر الجاهلي - إذ ليس كل مديح موجه إلى خليفة ، بل قد يوجه إلى وزير أو شريف أو وجه ، أو أي إنسان آخر قد يكون من عرض الناس .

المبالغة إلى درجة الانحراف والزيغ والإلحاد بل والكفر ، مجرد أنه يتغيا بلوغ المال ،  
وقضاء المأرب والسعى في لقمة العيش .

#### \* مديح أبي تمام .

والمديح من السجايا العربية الأصيلة التي أعلاها أبو تمام ، فقد صدر  
أبو تمام في مدحه صدوراً طبيعياً عن ذات نفسه ، وعن دخائل وأعماق قلبه ، الأمر  
الذي كان بمنزلة الدليل الحى على أرومته الطائفة اليمنية الأصيلة .

وعلى عادة الإنسان - من احتفائه بأهله والثناء عليهم - سار أبو تمام  
فاختار ممدوحيه إما طى قبيلته ، وإما من قبائل اليمن الأخرى ، إذ نراه يرحل إلى  
( حمص ) ويلزم بنى عبد الكريم الطائيين ، ويقدم إليهم قصائده مادحا إياهم يقول  
من قصيدة بدأها بقوله ،

أرامة كنت مألّف كل ريم      لو استمتعت بالإنس القديم (١)  
أدار البؤس حسنك التصابي      إلى فصرت جنات النعيم  
أنخأ فى ديار بنى حبيب      بنات السير تحت بنى العزيم (٢)  
وما إن زال فى جرم ابن عمرو      كريم من بنى عبد الكريم (٣)

فيذكر أنه أناخ رحله فى ( حمص ) بعدما ترك ( دمشق ) عند بنى  
عبد الكريم وهم أهله من الطائيين ، حيث نسب نفسه إليهم فقال ( بنى حبيب )  
وما أظنه يقصد إلا نفسه فهو ( حبيب بن أوس ) أولعله يقصد حبيبه من بنى  
عبد الكريم الذى صرح باسمه فى البيت التالى وهو ( ابن عمرو ) والذى كان مكرما

(١) - شرح النيدان للثوري ، ج ٣ ص ١٦٠ ، ورأى : اسم موضع ، ويجوز ضم التاء وتحتها ، فالضم على  
النداء والفتح على الترخيم .

(٢) - بنات السير : الأبل - والعزيم : العزم .  
(٣) - جرم - هو القطع أو الخمر - لو زورق من زوارق اليمن ، أو بطن فى طيء ، وقال الليث جرم : قبيلة  
من اليمن - لسان العرب ج ١ ص ٦٠٧ .

لدى أهله يأخذ من أدبهم وجودهم ، فكان من أجل ذلك خليقاً بأن ينيط بهم  
ويمنحهم ولاءه ، وينتسب إليهم فنراه يمدحهم بالكرم ويقول :

فلو شاهدتهم والزائريهم      لما مزت البعيد من الحميم  
أولئك قد هدوا في كل مجد      إلى نهج الصراط المستقيم  
أحلهم الندى سطة المعالي      إذا نزل البخيل على التخوم<sup>(١)</sup>  
فروع لا ترف عليك إلا      شهدت لها على طيب الأروم<sup>(٢)</sup>  
ويمدحهم بالشجاعة وقوة اليأس ممثلين في شخص ( ابن عمرو ) فيقول ،

تراه يذب عن حرم المعالي      فتحسبه يدافع عن حریم  
غريم للملم به وحاشى      نداه من ماطلة الغريم  
سفيه الرمح جاهله إذا ما      بدا فضل السفيه على الحليم  
ويمدحهم بالحكمة أيضاً في شخص ( ابن عمرو ) فيقول ،  
إذا ما الضرب حش الحرب أبدى      أغر الراى في الخطب البهيم<sup>(٣)</sup>  
فإن شهد المقامة يوم فصل      رأيت نظير لقمان الحكيم  
والأبيات تضع بنى عبد الكريم في مصاف النجوم بهذا المدح الذى لم تمدح  
بمثله قبيلة بنى عبد الكريم الطائيين وهو يصرح بذلك ويقول :

لهم غرر تخال إذا استتارت      بواهرها ضرائر للنجوم  
ولطى في نفس الشاعر منزلة لا تداينها منزلة وكذلك لكل من ينتهى نسبه  
إليها أسمع إليه يقول :

لكل من بنى حواء عذر      ولا عذر لطائي لثيم

١ - شرح الديوان ج ٣ ص ١٦١ ومطبة : مصدر وسط يسط سطة مثل وعد يعد عدة ومعناها الوسط والتخوم : الحد .

٢ - ترف : من رف القبات إذا اهتز وتعمم - والأروم : جمع أرومة وهي الأصل .  
٣ - شرح الديوان ج ٣ ص ١٦٢ ( يتصرف ) - وحش الشيء أي جمعه ، وكذلك حش الشيء بالشيء أي طلاه به .

أحق الناس بالكرم أمرو لم يزل يأوى إلى أصل كريم<sup>(١)</sup>  
فكل امرئ معذور - في رأيه - حرفى تصرفه ، بخيلا كان أو كريم ، إلا إذا  
كان من طيئ ، فإنه غير معذور ، ولذلك سماه لثيما ، وإن الإنسان المستحق للكرم  
هو من يرجع أصله إلى نسب كريم ، ثم يتابع أبو تمام مدحه لبنى عبد الكريم  
وبعض أبناء - كندة<sup>(٢)</sup> اليمنيين في قصيدة أخرى ، ويصور شعوره المضطرب حينئذ  
ببمنيته وطائيته في قصيدة يمدح بها ( عمر بن عبدالعزيز الطائي ) من أهل حمص  
بدأها بقوله :

يا هذه أقصرى ما هذه بشر ولا الخرائد من أترابها الآخر  
وفيها يقول :

نعم الفتى عمر فى كل نائبة نابت وقلت له (نعم الفتى عمر)  
يعطى ويحمد من يأتيه يحمده فشكره عوض وماله هدر  
وسائل عن أبى حفص فقلت له أمسك عنائك عنه إنه القدر  
هو الهمام هو الصاب المريح هو الـ حتف الوحى هو الصمصامة الذكر  
فتى تراه فتتفى العسر غرته يمنأ وينبع من أسرارها اليسر<sup>(٣)</sup>

فعمرنعم من يمدح ، ألا تراه يعطى العافى ثم يشكره بعد الإعطاء اغتناما  
لجنيته طالبا معروفه ، فحمده له عوض من حمد العافى له ، والعطاء فضل ونافلة  
ليس لها ثواب بحمد وثناء ، ثم يقول : يا سائلى عن ( أبى حفص ) وهى كنية ( عمر )  
أمسك لسانك عن الخوض فى سيرته فإنه القدر ، لأنه رجل عظيم الهمة و ( همام )  
اسم من أسماء الملك لعظم همته وهو الشجاع السخى إذا همّ بشئ أمضاه لا يرد

١ - السابق ج ٣ ص ١٦٤ .  
٢ - كندة : أبو قبيلة من العرب ، وقيل أبو حي من اليمن ، وهو كندة بن ثور / لسان العرب ج ٥ ص ٣٩٣٦ .  
٣ - شرح النيران ج ٢ ص ١٨٨ .

عنه بل ينفذ كما أراد ، وهو الصاب ، والصاب ( شجر مر كالحنظل ) أو عصارة شجر مر<sup>(١)</sup> ، هذا الشجر أخرج سنبله ، وهو النبات الذى سالت عصارته الشديدة المرارة ، وكذلك هو الموت والهلاك ، وهو السيف الصارم الذى لا ينثنى و (الصمصامة) اسم سيف عمرو بن معد يكرب ويقال للرجل مجتمع الخلق ، والذكر هو الياض الحاد الشفرة ، فصمصامة ذكر أى سيف يابس صارم حاد الشفرة ، ومع كل تلك الأوصاف السابقة التى أثبتتها شاعرنا للمدوح التى ما يكاد يسمعا سامع إلا ويقع فى نفسه قوة ذلك الرجل ، والخوف منه ، يعود أبو تمام فيقول : إنه بمجرد رؤية غرته ينتفى العسر ، ويخرج من خطوطها ( أساريها ) اليسر والكرم .

ثم يستهم متعجبا :

يا ليت شعري من هاتا مآثره      ماذا الذى ببلوغ النجم ينتظر ؟  
وكانه قال : أى أمر ينتظر ببلوغ النجم ؟ فلم لا يبلغه ؟  
ثم يقول :

سافر بطرفك فى أقصى مكارمنا      إن لم يكن لك فى تأسيسها سقر  
هلى أورك المجد إلا فى بنى أد      أو اجتتى منه لولا طيئ ثمر  
لولا أحاديث بقتها مآثرنا      من الندى والردى لم يعجب السمر<sup>(٢)</sup>

وينو أد هم أبناء كهلان القحطانيون يرمز بهم إلى جميع القبائل اليمنية ، فلولاً تلك القبائل جميعاً التى سارت بها الركبان فى الكرم والشجاعة ما وجد السمار مائة لأحاديث السمر الطريفة .

ومن الذين مدحهم أبو تمام من أبناء عبد الكريم ، أحمد بن عبد الكريم الطائى الحمصى ، ومدحه بدالية بدأها قائلا :

(١) - لسان العرب ج ٤ ص ٢٥٢٠ وما بعدها .  
(٢) - شرح النيون ج ٢ ص ١٩٠ .

يا دار دار عليك إرهام الندى      واهتز روضك في الثرى فترأدا  
وكسيت من خلع الحيا مستأسداً      أنفا يغادر وحشه مستأسداً<sup>(١)</sup>  
وفيها يقول:  
من كان أحمد مرتعاً أو ذمه      فانه أحمد ثم أحمد أحمداً<sup>(٢)</sup>  
أضحى عدواً للصديق إذا غدا      في الحمد بعذله صديقاً للعدا  
ولتنظر إلى صور أبي تمام التي ينتظمها خيط واحد وتخرج من مشكاة واحدة، وكيف أن الإنسان يصير عدواً لصديقه إذا عذله على بذل ما له لاكتساب الحمد، صديقاً لعدوه إذا عذره على الجود ثم يقول:

أفنيته منه الشعر في متمدح      قد ساد حتى كاد يغنى السوداء  
عضب العزيمة في المكارم لم يدع      في يومه شرفاً يطالبه غداً  
برزت في طلب المعالي واحداً      فيها تسير مغوراً أو منجداً  
عجباً بأنك سالم من وحشة      في غاية ما زلت فيها مفرداً  
وأنا الفداء إذا الرماح تشاجرت      لك والرماح من الرماح لك الفدا  
وسلمت أنا لا تزال سوا لما      آمالنا لك ما سلمت من الردى<sup>(٣)</sup>  
يقول الدكتور / عبده بدوي:

( نحن نميل إلى القول بأن أبا تمام - بصفة خاصة - ما كان يمدح بمدوحيه بقدر ما كان يمدح المثل الأعلى للإنسان الكامل كما تتمثله الحضارة العربية، وكما يتمثلها هو، فهو يمدح جوهر الإنسان أكثر مما يمدح تلك الأسماء التي يتلى بها

١ - شرح الديوان ج ٢ ص ١٠١: وإرهام: من أرهمة وهي المطرة الصغيرة القطر وتراد: أي تمايل - ونبت مستأسد: أي طال واتصل، وحشة مستأسد أي صار مثل الأسد.  
٢ - في إشراك الشاعر لأحمد مع الله في الحمد مبالغة تؤخذ عليه، ولكن حمده له بمعنى الشكر، ويستفاد ذلك من تقديمه للفظ الجلالة علي الفعل وهو ما يفيد (التخصيص) والتصرع على أية حال فهو قال: ثم أشكر أحمداً لكان أكثر توفيقاً.  
٣ - شرح الديوان ج ٢ ص ١٠٤.

ديوانه ، ولهذا لا نراه يركز على الجانب الحسى من الممدوح ، ذلك لأن تركيزه الحقيقى على الفضائل الكبرى ، وعلى الجانب الروحى فى الحياة<sup>(١)</sup> .

مصدق ذلك تلك الأبيات السابقة من مدحه إذ كان تركيزه على السجايا والفضائل التى أظهرها عند مدوحيه فلم يركز على صفات جسدية مثلاً .  
ويضيف الدكتور / بنوى قلاؤ :

( ومع أن قدامة ذكر أن صفات المدح هى العقل والشجاعة والعدل والعفة إلا أن هناك من يقدمها فقط على الصفات الجسدية ، ذلك لأن الوجه الجميل يزيد فى الهيبة ، ويتمن به ، ويدل على الخصال الحمودة ، وعلى هذا الطريق سار أبو تمام )<sup>(٢)</sup> .

... ونحن نميل لهذا الرأى لأننا عندما نقرأ أى قصيدة من قصائد المديح لأبى تمام نتمثل تلك القيم والصور التى يرسمها والصفات والسجايا التى يحبها فى مدوحه قبل أن يذكر اسمه ، فقبل أن يقول :

\* من كان أحمد مرتعاً أودمه \*

نراه يقول :

متهللاً فى السروع منهلاً إذا مازند اللز الشحيح وصردا  
فلنتأمل هذه الصورة التى تمثل أعلى السجايا العربية وهو ( الكرم ) قبل أن تمثل ( الممدوح ) فيذكر أنه ينسكب بالجود وهو ضاحك ، فى حين يضيق الشحيح على نفسه ، ويمنع عنها الطعام والشراب .

١ - أبو تمام وقضية التجديد فى الشعر من ٦٨ - ط الهيئة العامة للكتاب .  
٢ - السابق من ٦٨ ، والأصح أن يقول ( وعلى هذه الطريق ) لأن الطريق مؤنثة ففى الحديث "إياكم والجلوس فى الطرقات" فجمعها ( بالآلف والتاء ) وقال أيضاً "فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقها".

ويسير أبو تمام في مدحه لأحمد حتى يصل بنا إلى بيت القصيد :  
فيتول :

لا تعدمذك طئى فلقلما      عدمت عشيرتك الجواد السيدا  
وفيه يصرح ويجاهر بأعلى صوته أن ابن عبد الكريم فعل ما فعل لأنه من  
طئى التى قلما تخلو من أمثاله كحاتم وغيره من الأسخياء ، وكأنه أراد أن يمدح طئى  
- قبيلته - في شخص ابن عبد الكريم.  
ولا أظن رجلاً غير طئى يمدح ( طئياً ) بمثل ما مدحها به أبو تمام وهو  
كذلك على علم بكل مشاهيرها من جاهليتها إلى إسلامها وهو يعرض بذلك كثيراً  
في شعره .

\* أبو تمام في مصر :

هجر أبو تمام ( حمص ) والشام وولى وجهه تلقاء مصر طلباً للمال ، ولم يكن  
قد بلغ من الشعر رتبة تلفت إليه الأنظار ، فيولى وجهه نحو ( عباس بن لهيعة  
الحضرمي اليمنى )<sup>(١)</sup> صاحب الخراج بمصر دون سواء لما بينهما من أواصر  
النسب ، فابن لهيعة يمنى من حضرموت ، وأبو تمام من طئى ، وكل من حضرموت  
وطئى متجاورتان بحكم الموقع فى الجنوب .  
ولنا أن نتخيل رجلاً غريباً فى مكان لا يعرف فيه أحداً ولا يعرفه فيه أحد ،  
يفجؤه القدر برجل من جلده يجلس على رأس الخراج ، فصار أبو تمام كمن وجد  
ضالته التى بات ينشدها طويلاً - لا سيما - وقد ضاقت به السبل ، ولم يجد ممتغاه  
من الأموال التى باتت نفسه تمنيه بها ، فذهب إليه يمدحه بقصيدته التى بدأها  
بقوله :

١ - حضرموت : مقاطعة فى جنوبى جزيرة العرب ، وطئى أيضاً من عرب الجنوب ، أو هي قبيلة من  
اليمن - شرح الديوان ج ١ ص ١٥٣ .



• نقي جمحاتي لست طوع مؤنبي •<sup>(١)</sup>

والتي يقول فيها مادحا عياشا :

رأيت لعياش خلائق لم تكن      لتكمل إلا في اللباب المهذب  
له كرم لو كان في الماء لم يفض      وفي البرق ما شام امرؤ برق خلب<sup>(٢)</sup>  
أخو أزلمات بذل محسن      إلينا ولكن عذره عذر مذهب  
فأبو شام يرى عياشاً وقد اجتمعت فيه خصال لم تكن لتجتمع في أي رجل  
من عرض الناس ، بل في رجل كريم مهذب خالص ، وأخذ يفصل تلك الخلائق بعد  
إجمالها فقال :

له كرم ..... الأبيات

ومعلوم أن الكرم من أشهر السجايا العربية ، وأبرز الفضائل ، والصفات  
المثلى على عادة العرب الذين كانوا يعجبون بالكرماء ويقدرونهم ، ويرسمون لهم  
صوراً شتى في قصائدهم ويلبسونهاهم - بسديحهم إياهم - أثواباً من الثناء  
والإعجاب

... وكأنني بياي تمام وقد أصاب هدفين برمية واحدة : فمدح عياشاً اليمنى  
العربى الأرومة مثله ، ثم علل مدحه له بالكرم ، والكرم من أجل الصفات التي يمدح  
من أجلها العربى ، وفي ذلك ما يوحي بعروبة شاعرنا وتتجلى عبقريته أبى تمام  
في أنه خص الكرم وبدأ به مدحه لعياش دون غيره من الصفات ، ليلفت نظر

١ - شرح الديوان ج ١ ص ١٤٦ : نقي : فعل أمر من نقاه يتقيه (مخففاً) (وجمحاتي) من جمع الفرس إذا عز فارسه وقوله (لست طوع مؤنبي) أي لست مطيعه ، والمعنى التقني فيما تنصب فيه فإني لا أطاوع المؤنّب إذا انتخب.

٢ - البرق الخلب: الذي لا غيث فيه ، كأنه خادع يوم حتى تطمع بمطره ثم يخلفك. لسان العرب ج ٢ ص ١٢٢٠.

عياش في رفق إلى أنه في حاجة إلى كرمه وموفور عطاياه ثم ذكر في أعقاب الكرم صفات أخرى كالجرأة والشجاعة وقوة البأس والهيبة فيقول :

يهولك أن تلقاه صدرا لمحفل      ونحراً لأعداء وقلبا لموكب  
مصاد تلاقت لوذا بريوده      قبائل حي حضرموت ليعرب  
بأروع مضاء على كل أروع      وأغلب مقدام على كل أغلب  
كلوذهم فيما مضى من جدوده      بذى العرف والإحماد قيل ومرحب<sup>(١)</sup>

فيذكر أنه كالجبل العالي الذي تحتمى بحروفه النათاة أحياء حضرموت ويعرب ، وهو كذلك رجلاً يروعك بجماله على أروع وأغلب ، ويلوذ الناس ويحتمون به كما كانوا يلوثون في الماضي بأجداده ذوى المعروف والحمد ( قيل ومرحب ) وهي أسماء جدوده .

ويتابع أبو تمام مدحه لعياش إلى أن يقول :

وما ضيق أقطار البلاد أضافنى      إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي  
فيقول : كما أورد التبريزي شارح الديوان :  
( لم يلجننى ضيق البلاد على ، وكساد بضاعتى عند الناس ، ولكن مذهبي  
ألا أسأل إلا الكريم )<sup>(٢)</sup> .

وقال المرزوقي : ( لم يلجننى ضيق البلاد على ، وكساد بضاعتى عند الناس لأن في الأرض فيحة ، وفي أهل الفضل والأفضال كثرة ، ولكن قضاء حقك والقصد إليك والثناء عليك لفضلك وكرمك ، وهو مذهب أعتقده ودين أتدين به )<sup>(٣)</sup> .

١ - شرح الديوان ج ١ ص ١٥٣ .

٢ - شرح الديوان ج ١ ص ١٥٤ .

٣ - نقلاً عن ما ذكره د / محمد عبده عزام محقق الديوان في هامش ص ١٥٥ ج ١ .

ولعلنى لا أتفق مع أبى تمام فى قوله هذا ، ولا أظنه إلا مبالغاً مدعياً ما ليس عنده ، إذ من الثابت أنه قصد مصر طلباً للمال فى مظانه بعد أن ضاق رزقه فى الشام.

ولا أدل على مبالغته وادعائه إلا هجاؤه عياشاً ، حيث أنه هجاه حينما وعده ومامله ، فلما لم يجد عنده ما كان يأمله هجاه هجاء مرأ وظل يتابعه بهجائه حتى بعد موته .

ثم يعلن أبو تمام لعياش أنه ما مدحه إلا لأنه بمنزلة ومكانة الأهل والعشيرة ببلد لم يكن له فيه أحد فيقول :

وأنت بمصر غاييتى وقرابيتى بها وبنو الأبناء فيها بنو أبى  
فيقول : أنت غاية منأى بمصر ، وأنت قرابيتى لأنى أمت إليك بحرمة  
الأدب ووسيلته ، وإن لم يكن بيننا قرابة النسب بها ، أو أنت غاييتى بمصر مع  
قرابيتى بها ولذلك حق له أن يقول :

فقومت لى ما اعوج من قصد همتى وبيضت لى ما اسود ومن وجه مطلبى  
وهاتنا ثياب المجد فاجرر ذبولها عليك وهذا مركب الحمد فاركب<sup>(١)</sup>  
ولأبى تمام قصيدة أخرى فى مدح عياش الحضرمى بدأها بقوله :  
أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوسا<sup>(٢)</sup>  
وفى هذه القصيدة يبوح أبو تمام بخلاجة من خلجات نفسه - قبل مدحه  
عياشاً - وشعور لا أشك فى أنه كان يتقله كثيرا فيقول لللائمة .

لو تشهدين أقاسى الذم منهمرا والليل مرتتج الأبواب مطموسا  
استتبت القلب من لوعاته شجرا من الهموم فأجنته الوساويسا

١ - شرح الديوان ج ١ ص ١٥٦ .  
٢ - السابق ج ٢ ص ٢٥٢ : والحشاشة : بقية النفس من حش الشيء إذا يمس ومخلوسا : من خلست الشيء إذا أختته كالخالف ، والمألوس : مثل المجنون يتل فى عقله لى إذا وصف بالخفة والجنون .

فتحس وكأنما يشكو الحياة التي أوصدت الأبواب في وجهه فأصبح وحيداً  
في جهاده معها وقد حرم فيها المعونة من معين فأخذ يسكب العبرات ولكنه ما  
يلبث أن يجففها سريعاً ويشرع في مدح عياش . فيقول :

لى حرمة بك أمسى حق نازلها      وفقاً عليك - فذلك النفس - محبوبها  
كم دعوة إذا مكروهة نزلت      واستعجل الخطب يا عياش يا عيسى  
فاضت سحائب من نعمائه قطمت      نعماء باليؤس حتى لجئت البوسا  
فلم ينس شاعرنا أن عياشا حضرمي ، وهو طائفي تجاورا في الجنوب  
فكأنما يناشده بذلك الأصل الذي انحدر منه وهو اليمن ويختم قصيدته بقوله :  
شامت بروقك أمالي بمصر ولو      أصبحت بالطوس لم أستبعد الطوسا  
ويخبره بأنه لو كان في أقصى البلاد لضرب إليه أكباد الأبل ولم يستبعد  
مكانه لما بينهما من قرابة .

#### ● أبو تمام في الشام

ترك أبو تمام مصر وعاد إلى الشام بعد أن ضاق رزقه بمصر ، ويبدو أن أهله  
قد أوحشوه أيضاً فهتف يقول :

ما اليوم أول توديع ولا الثاني	البين أكثر من شوقي وأحزاني
دع الفراق فإن الدهر ساعده	فصار أملك من روعي بجثمانى
خليفة الخضر من يربع على وطن	في بلدة فظهور العيس أوطاني
بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا	بالرقتين وبالفسطاط أخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت	حتى تطوح بي أقصى خراسان <sup>(١)</sup>

١ (شرح الديوان ج ٣ ص ٣١٠ .

فأهله في الشام وأحبابه في بغداد وهو في الرقة وإخوانه في القسطنطين ولا يزال به النوى حتى يصل به إلى أقصى خراسان لرؤية أقربائه هناك .

وأبو تمام يصدر في ذلك عن شعور متأصل في طواياه بوحدة العرب مهما اختلفت بلدانهم وتباينت أوطانهم فقد جمع بين بلدان العالم العربي من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وهو بذلك يصبح السابق غير منازع إلى الإحساس بهذا الشعور العام ، الذي يؤمن به كل عربي ، فجميع البلدان العربية حصون ضخمة للعروبة ، وكل من يعيش فيها من أبناء " الضاد " التي تصل الروح بالروح .

● مدح أبي تمام لأصحاب البطولات العربية

بعد ما ترك أبو تمام مصر وعاد إلى الشام كان من الذين مدحهم في تلك الأثناء الخليفة ( المأمون ) وله في مدحه أكثر من قصيدة أحداها مقطوعة لا تتعدى أربعة أبيات بداها بقوله :

يا وارث الملك إن الملك محتسب      وقف عليك إلى أن تشر الصور  
ما ضر من أصبح المأمون سائسه      إن لم يسهه أبو بكر ولا عمر<sup>(١)</sup>  
وأما الثانية: فهي سجل تاريخي ، يبدى لنا فيها أبو تمام صفحة من صفحات التاريخ ، ناصعة لا تشبه في أسلوبها أسلوب المؤرخين ، ولكنها تمتاز بالبسط وطول النفس - كعادته في قصائده التي امتزجت بالتاريخ العام - وتبين الانفعالات النفسية التي كانت تعمل في نفوس قومه يوم ذاك .

وغدا أبو تمام منذ ذلك التاريخ لسانا للعروبة التي كانت ينابيعها تتفجر في قلبه ، لسانا يعبر عن انتصاراتها الحربية ، ويصوغ تلك الانتصارات للعروبة أناشيد مجلجلة ، أناشيد كالرعد القاصف تنذر الأعداء بالويل والتبوء والهلاك

١ - شرح الديوان ج ٢ ص ٢٢١ والأبيات من بحر البسيط وتعليقاته هي مستغلان فاعلن مستغلان فاعلن.

والدمار وكان نافذ البصيرة فرأى ألا ينظمها بعيداً عن ساحات الحرب إعمالاً  
للمثل العربي ( فما راء كمن سمع ) . وكأنه بذلك يصنع صنيع مكاتبي ومراسلي  
الصحف والإنذاعات الحربيين في عصرنا الحاضر ، فيرافق الجيوش حتى يرى  
الوقائع تحت بصره ويرى ما يأخذ به قوادها اليواسل أنفسهم من الصبر والجلد  
واحتمال ما يطاق ، وما لا يطاق حتى يذيقوا الأعداء بأسهم ويمزقوهم شرمزق ،  
ويبدأ أبو تمام تلك القصيدة المأمونية بقوله :

دمن ألم بها فقال سلام      كم حل عقدة صبره الإمام !  
نحرت ركاب القوم حتى يغيروا      رجلى ، لقد عنفوا على ولاموا  
وفيها يقول :

لما رأيت الدين يخفق قلبه      والكفر فيه تغطرس وعرام  
أوريت زند عزائم تحت الدجى      أسرجن فكرك والبلاد ظلام<sup>(١)</sup>

فأبو تمام يمدح المأمون لأنه حام للدين زائد عن حياضه ضد الكفر ، والدين  
وهو (الإسلام) ممثل بالضرورة في العرب ، أما الكفر فممثل في الروم فكنى الشاعر  
عن العرب بالدين وعن الروم بالكفر ، ويقول للمأمون : أعملت فكرك وأخرجت نار  
عزمك بليل ، كما يقال هذا أمر دبر بليل والمعنى إنك بيت الرأي ، وقوله و ( البلاد  
ظلام ) أى قد استولى عليها ظلمة الظلم وظلمة الكفر ، ويأخذ أبو تمام في النظم ،  
نظم المشاهد المعائن مبتهجا بالنصر المبين ، وأولى معارك المأمون . مع ( تيوفيل )  
إمبراطور الروم ، وما أخذ ينزله به منذ سنة ٢١٥ للهجرة من هزائم ساحقة كال له  
فيها هو وجنوده ضربات قاصمة ، وكان أكبرها وأشدّها هولاً معارك سنة ٢١٨ هـ  
إن لم يكد المأمون يبلغ نهر ( البندون ) في الجنوب الغربي لآسيا الصغرى حتى

١ - شرح الديوان ج ٣ ص ١٥٤ .

وفد عليه رسول من ( تيوفيل ) جاءه مسرعاً يعرض عليه في ذلة وانكسار - إحدى ثلاث:

أما الأولى : إما أن يرضى بأن يأخذ كل ما أنفقه في طريقه على جيشه ويعود دون حرب.

والثانية : أن يرضى بأن يرد له ما لدى الروم من أسرى المسلمين دون فداء .

والثالثة : أن يرضى بتعهد الروم أن يصلحوا كل ما أفسدوه من ثغور المسلمين.

ويجيب المأمون غاضباً : قل لتيوفيل : أما قولك ترد على نفقة الجيش فإنني سمعت الله تعالى يقول في كتابنا حاكياً عن ( بلقيس ) :

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ  
أَتَيْدُوكُنَّ إِنَّمَا الْإِنسَانُ خَيْرٌ مِّمَّا مَا تَنكِحُونَ ﴿٣٦﴾

[سورة النمل ٣٥: ٣٦]

وأما قولك : تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم فما في يدكم إلا أحد رجلين إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار إلى ما أراد، وإما رجل يطلب الدنيا فلا فك الله أسره .

وأما قولك : تعمركل بلد للمسلمين خريته الروم ، فلو أني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت ذلك بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها فصرخت : وامحمداه ، وامحمداه ثم صاح برسول ( تيوفيل ) عد إلى صاحبك فليس بيني وبينه إلا السيف والتفت إلى من معه قائلاً اضربوا الطبول ايذاًنا بتحريك الجيش الجرار إلى الحرب ، وضرب الطبل ، وتقدم الجيش يزلزل الأرض زلزلاً عنيفاً بما أشاع المأمون في روحه من الحماسة .  
يقول أبو تمام :

فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه حسن اليقين وقاده الإقدام

متعجّر لجنب ترى سلافه      ولهم بمنحرف الفضاء زحام  
 ملأ الملا عصبا فكاد بأن يرى      لا خلف فيه ولا له قدام  
 بسواهم لحق الأياطل شزب      تعليقها الإسراج والألجام<sup>(١)</sup>  
 ومقابلين إذا انتموا لم يخزهم      في نصرك الأحوال والأعمام  
 سفع الذعوب وجوههم فكأنهم      وأبوهم سام أبوهم حام<sup>(٢)</sup>  
 بهذا الجيش العالى الصوت الذى لا يعرف أوله من آخره ، ويمتطى فرسانه  
 جياداً متغيره الوجوه ، ضامرة الكشح - وتلك سمة الخيل العربية - ومن المبالغة في  
 السير فقد اسودت وجوههم فصاروا كما يقول التبريزى شارحه ( فكأنهم وهم من  
 ولد البيضان من ولد السودان وسام هو أبو البيض وحام أبو السود )<sup>(٣)</sup> يجتاح  
 المأمون حصون الروم ويسقطها حصنا وراء حصن ، وهم لا يملكون له رداً و( تيوفيل )  
 ينتفض خوفاً وهلعاً ، وكل ذلك برأى من أبى تمام وسماع ، وكأننا عاد إلى العروبة  
 مجدداً الحريى القديم فى الفتوح ، وتغمره نشوة هذا النصر العظيم ويتغنى به  
 ويبسالة تلك الجموع العربية التى محقت الروم عند كل حصن محقاً ذريعاً قائلاً :  
 تخذوا الحديد من الحديد معاقلاً      سكانها الأرواح والأجسام  
 مسترملين إلى الحتوف كأنما      بين الحتوف وبينهم أرحام  
 آساد موت مخدرات مالها      إلا الصوارم والقنا آجام  
 حتى نقضت الروم منك بوقعة      شنعاء ليس لنقضها إبرام  
 فى معرك أما الحمام فمفطر      فى هيوثيه والكمأة صيام<sup>(٤)</sup>

١ - ( السواهم : المتغيرات الوجوه ، لحق الأياطل شزب - مضمرة الكشح والمعنى يركبون خيولاً ضامرة الكشح ويطلق عليها بالإسراج والألجام بدلاً من القنضم (الشعر).

٢ - سفع : سود      الذعوب : المبالغة في السير - لسان العرب ج ٢ ص ١٣١٠ .

٣ - شرح النيبان ج ٣ ص ١٥٦ .

٤ - السابق ج ٣ ص ١٥٦ .



فهم دائماً يعيشون تحت ظلال السيوف والرماح ، ودائماً يقتحمون  
ميادين الحروب للفتك والإقدام ومنازلة الأقران ، وكأنما بينهم وبين الموت وشائج  
قاربة فهم دائماً يسقون أعداءهم كؤوسه وسمومه القاضية الفتاكة ، وكأنهم أسود  
أجماتها<sup>(١)</sup> رماح وسيوف مشرعة ما تنى أن تنشب أظفارها فى فرائسها حتى  
تلفظ الفرائس أنفاسها ، أسد صائمه لا تعباً بطعام ولا شراب ، بينما الموت فاعرا  
فاه مكشراً عن أنيابه يلتهم الأشباح .

وأخذ أبو تمام يردد هذا المديح الممزوج بالفخر الذى يكتظ بمشاعر العروبة  
التي تروق وترع ، وهو ما دفعه الى استظهار أمجادها فى القديم والحديث  
والتغنى بها غناء لا يجف معينه ، وكأنما أراد بمدحه هذا أن يشفى حقد العروبة  
المتأجج في دخائله ضد ( تيوفيل ) وأتباعه ، ولذلك نراه يقول شعراً يشبه بالتمام  
ذلك السيف الذى يتقلده الفارس المغوار ، فصار أبو تمام بقوله ذلك ، ومن الوقوف  
في مصاف الفرسان ، تستوى أقدامهم مع قدمه ، لأن التفاضل بينهم وبينه غير  
حاصل يقول :

والضرب يقعد قرم كل كتيبة	شرس الضريبة والحتوف قيام
فقصمت عروة جمعهم فيه وقد	جعلت تقصم عن عراها الهام
ألقوا - دلاء فى بحورك أسلمت	ترعاتها الأكراب والأوذام <sup>(٢)</sup>
ما كان للإشراك فوزة مشهد	والله فيه وأنت والإسلام

فشدة الضرب تقعد كل قرم وهو ( السيد العظيم ) في الكتاب وجعلت  
الهامات تتطاير ، وكأنما تنقصم من عراها حينئذ كما يقول التبريزي شارحه

(١) - أجمات : جمع أجم وهو كل بيت مربع مسطح والمعنى أنهم أسود بيوتهم الرماح والسيوف - لسان  
العرب ج ١ ص ٣٤ .

(٢) - شرح النيان ج ٣ ص ١٥٦ - الكريب : خيط يقتل ويشد بوسط العرقوتين والأوذام : جمع ودم :  
وهو سير من جلد أو خيط أو ليف يدخل في العروة ثم يدخل في ثقب رأس العروة .

(كادوك برأى خانهم كما خانت هذه الدلاء المملوءة أودامها وأكرابها) <sup>(١)</sup> فلم يتحقق للشرك فوز وإنما لله ثم للمأمون ثم للإسلام وأبو تمام ذو عاطفة صادقة صادقة ولذلك جاءت الأبيات تنضح بالعاطفة المتعاطفة مع بنى جنسه (العرب) ومتعاليه على أعدائهم، وينفخ الشاعر أيضاً في الأبيات روح القداسة إذ يجعل الحرب هنا ملحمة إسلامية، حرباً تدور بين شرك وإسلام لا بين أمير وأمير أو عظيم وخليفة، والغلبة في هذه الحرب لدينه.

ويمضى أبو تمام في قصيدته حتى النهاية واصفاً للحرب منضوياً تحت لوائها يناضل ويدافع وكان لا يملك من الأسلحة سوى شعره فاستحال في يده قوساً ينزع عنه أبياتاً مصمية يسدها إلى صدور الأعداء الغاشمين حتى يذيقوهم كل ما يمكن من ألوان الفتك والبطش والنكال واشتعلت في صدره حينئذ الغريزة العربية غريزة (الأخذ بالثأر) أقوى اشتعال مما جعله يستشعر في صدق وإخلاص فرحة غامرة مع كل نصر وكل ثأر يشفى غليل العروبة المجيدة التي كانت تتوهج في ميراث أعراقه وظلت تتوهج في دمه وقلبه وروحه وحسه وشعوره وظل يقدها ويمجدها ويرتل لها انتصاراتها المظفرة أناشيد حربية خالدة.

#### ● مدح أبي تمام لخالد بن يزيد الشيباني <sup>(٢)</sup>

على نحو ما رأينا من امتداح أبي تمام للمأمون وجدنا مدحه لخالد بن يزيد الشيباني وكلما أنعمنا النظر في ديوان أبي تمام وجدنا صفحات أمجاد العروبة تتجلى صفحة تلو الأخرى ويصور شاعرنا ذلك من بعض الوجوه فنراه يمدح خالداً بن يزيد الشيباني وإلى الموصل للمأمون وأحد قواد جيشه المغاوير بقصائد عدة منها قصيدة بدأها بقوله :

لقد أخذت من دار ماوية الحقب أنحل المغاني للبللى هي أم نهب <sup>(١)</sup>!!

١- السابق ج ٣ ص ١٥٦ .

٢- هو خالد بن يزيد الشيباني وإلى الموصل للمأمون ويتصل نسبه بقبيلة شيبان العربية.

وفي هذه القصيدة ينفذ أبو تمام الغبار عن صفحة من التاريخ قبل الإسلام  
 إذ في مدحه خالد تلمع في مخيلته موقعة أسلافه الشيبانيين في يوم ( ذى قار )<sup>(٢)</sup>  
 الذى انتصرت فيه شيبان على الفرس قبل الإسلام وكان ذلك كان إيذاناً بما  
 سيحدث عما قليل من تقويض العرب لدولتهم ( الفرس ) ويرفع أبو تمام الموقعة  
 شعاراً لهذا المجد الحربى القديم قائلا :

لهم يوم ( ذى قار ) مضى وهو مفرد	وحيد من الأشباه ليس له صاحب
به علمت صهيب الأعاجم أنه	به أعربت عن ذات أنفسها العرب
هو المشهد الفصل الذى ما نجا به	لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب
أقول لأهل الثغر قد رثب الثأى	وأسبغت النعماء والتأم الشعب <sup>(٣)</sup>

يقول : يكفى الأعاجم هذا اليوم ( ذى قار ) الذى ظفرت فيه بنو شيبان  
 بجيوش كسرى وبهذا اليوم علمت الأعاجم ما كانت تنطوى عليه العرب لها من  
 طلب الفرصة فى الوثوب عليهم حتى إذا تمكنوا من ذلك لم يتركوا لكسرى من  
 جيشه شيئاً ، ومن الواضح من كلمات أبى تمام وقصائده فى ذلك أنه لا يضع هذا  
 النصر الحربى العظيم على مفرق شيبان وحدها بل على مفرق العرب قاطبة ، إنه  
 يوم فخار من أيام العروبة المجيدة روعت فيه الفرس بما أذاقتهم من البطش  
 والنكال وما صبته على ملكها كسرى من الهزيمة والاندحار .

وفي القصيدة نفسها وبعد بيتين فقط من الأبيات السابقة يسجل أبو تمام (   
 لخالد ) مجداً حربياً ظفربه وأبلى فيه هو وجنوده بلاء حسناً ، فقد تبع خالد

١ - شرح الديوان ج ١ ص ١٧٧ : وماوية : من أسماء النساء ، والحقب : الدهر أو البرهة الطويلة التى لا  
 حد لها . والمعنى أصبحت المغاني للبلبل تحلاً لم نهيا ؟ .

٢ - وكانت هذه الواقعة بين بكر بن وائل والهرمزان صاحب كسرى أبرويز . وهو اليوم الذى قال فيه  
 النبي ﷺ " هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بنى " . مروج الذهب ج ١ ص  
 ٢٨٩ مدار الفكر بيروت .

٣ - شرح الديوان ج ١ ص ١٨٨ . وأصل (الرأب) الإصلاح و (التأى) الفساد .

بجنوده ( تيوفيل ) حين ولى على وجهه هارباً من بين يدي المأمون وأوغل وراءه في بلاد الروم بأسروينغم ويراسله ( تيوفيل ) مدعنا خانعاً يطلب الصفح والصلح ولا يجيبه خالد فيوغل في فراره وقد أخذه الرعب والهول من كل جانب ويمجد أبو تمام خالدا وانتصاراته فيقول :

ولما رأى تيوفيل راياتك التى	إذا ما التلأت لا يقاومها الصلب <sup>(١)</sup>
تولى ولم يأل الردى فى اتباعه	كأن الردى فى قصده هائم صب
كل بلاد الروم عمت بصيحة	فضمت حشاها لو رغا وسطه السقب <sup>(٢)</sup>
بصاغرة القصوى وطمين واقتري	بلاد قرنطاووس وابلك السكب <sup>(٣)</sup>
غدا خائفاً يستجد الكتب مدعناً	عليك فلا رسل تثتك ولا كتب
وما الأسد الضرعام يوماً بعاكس	صريمته إن لآ لو بصيص الكلب <sup>(٤)</sup>

فبجرد أن رأى (تيوفيل) طاغية الروم رايات خالد وجموعه التى لا تثبت لها أعتى العتاة أمعن فى الهروب والردى يلاحقه يريد أن يغنم منه فرصة أو يصيب منه غرة وكأنها عمت بلاد الروم صيحة خلعت القلوب وكأنها الصيحة التى أذرت ثود من قبلهم حين رغا ولد الناقة التى عقروها عصياناً لله وكفراناً ، وتتبع جيش خالد الذى يشبه الوايل (تيوفيل) فى كل مكان فصار يستعين عليه بإنفاذ الكتب والرسل فلا يره ذلك عن نيته إذ ليس من طبيعة الأسد أن يرجع عما اعتزم فعله ، مهما توجع الكلب أو حرك ذيله تقريباً ومدارة ، ولما علم العدو أنه لا مفر من الحرب التى تطلحن بين قطبى رجاها عظام جنوده وعظامه من قبلها

١ - التلأت : تتابعت هزتها ، وأصل (التلأب) استقام.

٢ - السقب : يعني ولد الناقة التى عقروها ثود فصارت ثوداً عليهم.

٣ - صاغرة - وطمين وبلاد قرنطاووس أسماء أماكن فى بلاد الروم ولقري أى تتبع.

٤ - العكس : قلب الشيء - وصريمته : ما يصرمه من عزمه أى يمضي عليه فلا يرجع ويقال بصيص الكلب : إذا حرك ذيله تقريباً ومدارة . شرح الديوان ج ١ ص ١٩٠ .

أخذ يولي الأديبار وهو يرى كل شئ أمامه عدواً له حتى نفسه التي بين جنبيه لا  
تأمن من سوء ظن نفسه لذلك :

مضى مدبر شطر الديور ونفسه على نفسه من سوء ظن بها إلب<sup>(١)</sup>  
جفا الشرق حتى ظن من كان جاهلاً بدين النصارى أن قبلته الغرب  
أما رجالك وجنودك فهم :  
كما إذا تدعى نزال لدى الوغى رأيتهم رجلى كأنهم ركب  
فهم يقاتلون قتال الفرسان وهم رجلى لطولهم والعرب تمدح بالطول ولذلك  
قالوا ( طوليل النجاد ) وقالوا :

● وأن أعزاء الرجال طيالها ●<sup>(٢)</sup>

أما أنت أيها المدح فـ :

جعلت نظام المكرمات فلم تدر رجا سؤدد إلا وأنت لها قطب  
إذا افتخرت يوماً ربيعة أقبلت مجنبتى مجد وأنت لها قلب<sup>(٣)</sup>  
فإذا افتخرت ربيعة بأن منها شجعان القوم لم تقل شيبان إنك منها بل  
جاءت ميمنة وميسرة الجيش لتشهد بشجاعتك وأنت في قلب الجيش لأن ذلك  
هو مكان عميد الجيش وذلك لأنك الخيط الذى انتظم المكرمات فلم تدر رجا سؤدد  
ومجد إلا كنت أنت شقاً لها .

● مدح أبو تمام لبعض قواد العرب .

ونطوى صفحة الحروب المأمونية التيوفيلية إلى حروب المأمون مع بابك  
الخرمى<sup>(٤)</sup> ومن بعد المأمون المعتصم ، تلك الحروب التى كان من ضحاياها  
( محمد بن حميد الطوسى الطائى ) والذى أفتك به بابك وكان قائداً من قواد

١- إلب : يقال هم لب عليك أي قد تلبوا .

٢- الأصح طولها .

٣- شرح الديوان ج ١ ص ١٩٤ .

٤- هو رجل ادعى الألوهية وعكر صفو الدولة في عهد المأمون وكذلك في عهد المعتصم إلى أن قتل  
ويسمى بابك الخرمى نسبة إلى (خرما) زوجة مزدك الذى أسس الحركة المزدكية في عهد كسرى  
وتفرع منها الخرمية البابكية نسبة إلى بابك .

العرب العظام<sup>(١)</sup> امتدت تلك الحروب أماناً متطاولة وكان من أبرز القواد الذين أبلوا فيها بلاء حسناً (أبي سعيد الثغري)<sup>(٢)</sup> ومما يجلى وجه العروبة عند أبي تمام كثرة مدائحه لذلك القائد وآله ، جاعلاً له الحظ الأوفر في انتصارات المعتمصم على بابك الخرمي ، ومعه من القواد (أبو دلف العجلي)<sup>(٣)</sup> وكثيراً ما تغنى أبو تمام بهذه الانتصارات ، ويرد الحديث عنها في مدائحه لأبي سعيد الثغري كقوله :

فتى هز القنا فحوى سناء      بها لا بالأحاطى والجنود  
إذا سفك الحياء الروح يوماً      وقى دم وجهه بدم الوريد

وقوله :

رآه العليج مقتحماً عليه      كما اقتحم الغناء على الخلود  
فمر ولو يجارى الريح خيلت      لديه الريح ترسف في القيود  
شهدت لقد أوى الإسلام منه      غداً نثني إلى ركن شديد<sup>(٤)</sup>

وهو في تلك الأبيات السابقة يصور أبا سعيد الثغري كأنما نذر نذيراً لربه أن يحارب بابك الخرمي وأتباعه ويقضى عليهم قضاء مبرماً ، وقد وفى بها نذراً وراء نذر ، وتلك سيوفه المفللة تشهد له بنكايته في أصحاب بابك حتى أصبحوا لحمياً على وضم ، حينئذ شفت النفوس من حقدّها الذي كان قد تراكم عليها منذ مقتل (ابن حميد الطوسي) لا نفس أبي سعيد الثغري وحده بل - أيضاً - نفس أبي تمام وغيره من العرب ، فكلهم كان يريد أن يشفى حقد العروبة المتأجج في دوائله ضد بابك وأتباعه ، وحينئذ أيضاً أصبح الإسلام في عزة ومنعة إذ يرى عدوه يسابق الريح هلعاً وفزعاً ، حتى لو قيست سرعته في الهروب بالريح ، لكانت الريح إزاء ذلك ترسف في قيودها .

١ - سوف افصل القول في ذلك في بحث (الرياء) التالي لهذا البحث.  
٢ - أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري من كبار القادة في جيش المعتمصم في حروبه مع بابك ، وهو من طيء ويلقب بالثغري نسبة إلى عمله معتمد أيامه في ثغور المسلمين.  
٣ - أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي الشيباني قائد كبير من قواد المسلمين وصاحب الكرخ.  
٤ - شرح الديوان ج ٢ ص ٣٧ .

فالخوف والفزع قد ملك على بابك كل أقطار نفسه، وذلك البطل المغوار  
(أبو سعيد) يضرب ضرباً ترقص له الأحشاء في الأجساد وتطرب له القلوب إذ  
ناشت سيوفه شطر أعدائه، والشمر الآخر ناشته حرائق المجانيق، فهم بين مقتل،  
وبين محرق، وهي قسمة لا يخص شرفها أبو سعيد وحده، بل يعم العرب جميعاً  
وهذا هو معنى قولنا: إن نفس أبي تمام كانت تكتظ بمشاعر العروبة فإذا انتصر  
أحد قواد تلك الحرب أحس بقوة يحسها كل عربي إذا انتصر بنو جنسه وكأنما  
يشاركه في هجماته وضرياته وانتصاراته، ويذيب أبو تمام في ذلك غريزة الأخذ  
بالتأثر المكتنة في نفوس العرب منذ العصر الجاهلي، ومنذ كانوا لا يتنادون بشئ  
ندائهم بطلب الثأر، حتى غدا ذلك عندهم وكأنه عقيدة دينية لها شعائرها  
وطقوسها من تحريم الخمر والنساء والطيب على أصحاب القتيل، حتى يأخذوا  
بثأره، مما ولد فيهم نزعة قوية لسفك الدماء من وأترتهم.

ويكرر أبو تمام ذلك النصر في غير ما قصيدة متلذذاً بذكره إذ نراه يقول  
في قصيدة في مدح أبي سعيد:

فتى يوم بذ الخرمية لم يكن بهيابة نكس ولا بمعرد<sup>(١)</sup>  
قفا مستدبايا والرماح مشيحة تهدى إلى الروح الخفى فتهتدى<sup>(٢)</sup>  
ويقول أيضاً:

وقائع أصل النصر فيها وفرعه إذا عدد الإحسان أو لم يعدد  
فمهما تكن من وقعة بعد لا تكن سوى حسن مما فعلت مردد<sup>(٣)</sup>

فأبو سعيد لم يكن جباناً ضعيفاً يفر يوم الزحف، وكيف يفر ورماحه تبصر قلب  
(بابك) ولكن ستر القضاء حال بينها وبينه، فنجا وإن هلك من معه، وفي كل تلك

١ - البذ: اسم تل والمعنى يوم الحرب ببذ الخرمية - والهيابة: فعالة من الهيبة وزيدت التاء للمبالغة -  
والمعرد: الفار الذي يبعد في الهرب.

٢ - قفا: أي خلف.

٣ - شرح الديوان ج ٢ ص ٢٩.

الوقائع كان النصر حليف أبي سعيد ، ومهما تكن هناك من وقعة بعد تلك الوقائع فما هي إلا مريدة مكروية لما فعله الثغري أولاً ولذلك حق لشاعر العروبة أن يتساءل :

تالله ندرى : ألاسلام يشكرها من وقعة أم بنو العباس أم أدد ؟<sup>(١)</sup>

فهذا الفخار حائز بين الإسلام، وبنى العباس، وأدد وهم قوم الممدوح ( لأنه من طي ) فإذا ما نسبت تلك الانتصارات لأى من الإسلام أو بنى العباس أو طي كانت بمثابة التاج يأتلق على مفرقه ، وحق لكل منهم أن يشترتب عنقه ويتطاول زهوا بتلك الوقائع على أعدائهم .

وامتداح أبى تمام لأبى سعيد الثغري وافتخاره بذلك النصر على الخرمية احتل موقعا كبيرا وجانباً عريضاً من شعره<sup>(٢)</sup> .

- ١ - الأصم - الإسلام بقلب همزة الوصل حرف مد مجالس لحركة همزة الاستفهام مثل - (الله أنن لكم) و (قُلْ مَا لَكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ حَرْجٌ ..... [سورة الأنعام: ١٤٣]) وذلك لأن همزة الاستفهام إذا دخلت على همزة الوصل المفتوحة قلبت همزة الوصل حرف مد مجالس لحركة همزة الاستفهام.
- ٢ - ذكر في ذلك قصيدة له في مدح الثغري أيضاً بدأها بقوله:
- أبي فلا شنباً يهوي ولا قلجاً  
ولا احسوراراً يراعيه ولا دججاً
- وفيها يقول :
- كثرت حوادث في موقان ما تركت  
لما قرأ الناس ذاك الفتح قلت لهم
- شرح الديوان ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها.
- وفي قصيدة أخرى بدأها بقوله:
- أما إنه لولا الخليل المودع  
لردت علي أعقابها أريحجة
- وفيها يقول:
- لدي سندباليا والهضاب وارشق  
وأبر شتو بيم والسذاج ومثقي
- شرح الديوان ج ٢ ص ٣٣٢ .
- وفي قصيدة أخرى وهي من المنحول بدأها بقوله:
- ملايك عني لا أبا لك والقصدي
- وفيها يقول:
- أبا سندباليا لا نمسيت محمداً  
صبيحة غير الخرمية والضحي
- شرح الديوان ج ٤ ص ٦٥١ .
- والخرميمة لا رأساً ولا تيجاً  
وقائع حدثوا عنها ولا حرجاً
- وربع عفا منه مصيف ومربع  
من الشوق واد بها من الهم مترع
- وموكان والسمر اللسان ترعزع  
سنايكها والخيل تردى وتمزع
- جدود أناس وهي حصري وظلع
- كفالك ملاهي وعظ شبيب ومقد
- واقامه بين القنا المقصد  
طريد دجي ليل من النقع أريد



وتظل شاعرية أبي تمام تستمد فيضها من هذه الوقائع ، بين الثغرى وبابك ،  
فكلما أبلى أبو سعيد في موقعة تجدد عزم أبي تمام ، ومتلاً عزمًا وأملًا عل العروبة  
تشتفى من أعدائها وقاتلى أشجع قوادها .

ومن مدوحى أبي تمام أيضاً ( أبو دلف العجلي الشيباني ) وهو من أشهر قواد المعارك  
التي دارت رحاها بين المعتصم وبابك ( وكان أبو دلف كريماً مشهوراً بكرمه ، شجاعاً  
تتمثل فيه صورة العربي ببائته وأنفته ، فنال منه أبو تمام كثيراً يقول صاحب الأغاني : إنه  
أعطاه خمسين ألف درهم ، وهو يعتذر إليه لما أنشده قصيدته :

على مثلها من أربع وملاعب      أنزلت مصونات النموع للسواكب  
وكان الأفشين يحسده لحسن سيرته مع عرويته (١)

ويصور أبو تمام النزعة العربية العتيقة في مديحه لأبي دلف ، إذ يقول  
في تهنيئته بالانتصار هو ومن معه من القواد على بابك .

إن الخليفة والأفشين قد علما      من اشتفى لهما من بابك وشفى (٢)  
في يوم أرشق والهيحاء قد رشقت      من المنية رشقا وإيلاً قصفا  
نضوته دلفيا من كنانته      فأصبحت فوزة العقي له هدفاً (٣)  
ومر بابك مر العيش منجذما      محلوليا دمه المعسول لو رشفاً  
حيران يحسب سجب النقع من دهش      طودا يحاذر أن ينقض أو جرفاً  
فكل من المعتصم وقائده الأفشين يعلمان من جلب لهما النصر واشتفى لهما  
من بابك في يوم ( أرشق ) إذ كانت السهام تتابع كتتابع الوايل المصحوب

١ - أبو تمام المطاني ص ١٣٥ .  
٢ - قائد تركي اسمه (خير بن كاوس) وكان الأفشين عبداً للمعتصم ، فأسقطعه ، ورفع شأنه ثم قتله بعد ذلك ، وكان الأفشين من أهل أتروسنة فسماه المعتصم الأفشين لأن ملك ذلك البلد جرت عادته بأن يسمي الأفشين كما يسمي ملك الروم فيصر يقول د / البهيتي (وأغلب الأمر أنه من القرم وليس من الأتراك ، فإن أفشين كلمة فارسية معناها الكريم ، واسم أبيه كاوس وهي كلمة فارسية معناها الكريم والقاهر والفتاح) ص ١٥٣ .  
٣ - نضوته: أي استخرجته والضمير راجع علي الرأي في البيت السابق . شرح الديوان ج ٢ ص ٣٦٧ .

بالرعد القاصف، حينئذ قلت رأيا مثل السهم كان فوز العاقبة هدفاً له ، وأبو تمام  
يصور هروب بابك لرعبه وفزعه بأن أصبح يخال الغبار الكثيف جبلاً يخشى أن  
ينقض عليه ، ويتصور شاعرنا دم بابك حلوا مذاقاً ويتمنى لورشقه هو وأمثاله من  
العرب ليشتفوا مما انطلوت عليه نفوسهم له من حقد دفين ، ويعدد أبو تمام تلك  
الوقائع التي انتصر فيها العجلي على بابك وأتباعه إلى أن يقول :

و ظل بالظفر الأفضى مرتدياً      و بات بابكها بالذل ملتحفاً  
أعطى بكتلتا يديه حين قيل له      هذا أبو دلف العجلي قد دلفا  
تركت أجفانه مغضوضة أبداً      ذلا تمكن من عينيه لا وطفاً<sup>(١)</sup>  
وطفلاً<sup>(١)</sup>

ويختم قصيدته قائلا :

نامت همومي غنى حين قلت لها      حسبي أبو دلف حسبي به وكفى  
● مدح أبي تمام للخليفة ( المعتصم )

في تلك الأثناء - من انشغال جيوش الدولة في القضاء على بابك الخرمي  
وانشغال أبي تمام بمدح الخليفة وقواده في حروب بابك - كان ( تيوفل بن  
ميخائيل ) طاغية الروم قد انتهز الفرصة ، فأغار على مدينة ( زبطرة ) وهي من  
ثغور الجزيرة على الحدود الفاصلة بين الدولتين العربية والرومية وخربها ، وكان  
ذلك حدث جلل طار نبؤه إلى ( المعتصم ) فهاله ما حدث لأهلها من أسر الرجال  
وسمل أعينهم ، وتقطيع أذانهم وأنوفهم وسبي الكثير من النساء ، فضج العرب في  
الأمصار ، واستصرخوا الدولة في المساجد ، يقول ابن الأثير ( فخرج توفيل في مائة  
ألف ، وقيل أكثر ، منهم الجند ذيف وسبعون ألفا ، وبقيتهم أتباعه ، ومعهم من

١ - شرح الديوان ج ٢ ص ٣٧٥ . والوظف : كثرة الشعر في الحاجبين وأهداب العينين . والمعنى أن هذا  
هذا المنهزم قد غص أجفانه من الذل لأن الشعر غشيها .

المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال ، فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب جماعة قبلخ زبطرة ، فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء، وأغار على أهل ( ملطية ) وغيرها من حصون المسلمين ، وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم ، وقطع أنوفهم وأذنانهم ، فخرج إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة ، إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح <sup>(١)</sup> .

ويقول المسعودي : ( فضج الناس في الأمصار ، واستغاثوا في المساجد والديار ، فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم فأنشده قائماً قصيدة طويلة يصف فيها ما نزل بالناس ، ويحثه على الجهاد فيها :

يا غارة الله قد عاينت فسانتهكى      هنك النساء وما فيهن يرتكب  
هب للرجال على إجرامها قتلت      ما بال أطفالها بالذبح تنتهب  
طارنياً الكارثة إلى المعتصم ( ببغداد ) وطار معه أن امرأة من بين  
الأسيرات كانت لا تنى تصيح : وامعتصماه ، واسلاماه يقول ابن الأثير :  
( ويلغى أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم : وامعتصماه :  
فأجابها وهو جالس على سريره لبيك لبيك : ونهض من ساعته ، وصاح في  
قصره : النفير النفير ، وثم ركب دابته ، وسمط خلفه شكلاً ، وسكة حديد ، وحقيبة  
فيها زاده ، فلم يمكنه المسير إلا بعد التعبئة ، والعساكر ، فجلس في دار العامة <sup>(٢)</sup> .

١ - الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٧٩ ط دار بيروت - بيروت .  
٢ - الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٨٠ والسمط : الدرع يعلفها الفارس على محجز فرسه ، وقيل السمط هي سيور تعلق من السرج - لسان العرب ج ٣ ص ٢٠٩٢ - والشكال العقال وشكلت الفرس بالشكال ، وشكلها : شد قوائمها بحبل واسم ذلك الحبل الشكال ، والشكال في الرجل ضبط يوضع بين الحقب والتصدير لنلا يلح الحقب على ثيل البعير فيحقب : أي يحتبس بوله . لسان العرب ج ٤ ص ٢٣١١ ولعل المعنى أنه شد الخيل بهذا الحبل حتى يحتبس بولها فلا تبول كثيراً وهذا كناية عن شدة الإسراع والتعجل ، وسكة الحديد : الدرع الضيقة الحلق . لسان العرب ج ٣ ص ٢٠١٥ .

ويلخ من ثورة نفسه وعزيمته على التضحية أنه استحضر القضية والشهود فأشهدهم أنه قد وقف أملاكه وأمواله أثلاثاً ( وأحضر قاضى بغداد وهو عبدالرحمن بن اسحاق ، وشعبة بن سهل ومعهما ثلاثائة وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة فأشهدهم على ما وقف من الضياع ، فجعل ثلثاً لولده، وثلثاً لله تعالى، وثلثاً لمواليه )<sup>(١)</sup>.

وثار به الغضب ثورة عنيفة ، فجهز لحرب تيوفيل جيشاً جراراً لم يسبق لخليفة أن جهز جيشاً مثله ، يقال إنه بلغ مائتى ألف أو يزيدون ، يقول ابن الأثير ( وتجهز جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح والعدد ، وحياض الأدم ، والروايا والقرب وغير ذلك )<sup>(٢)</sup>.

يقول المسعودى : ( خرج المعتصم من فوره نافراً وعليه دراعة بيضاء من الصوف وقد تعمم بعمامة الغزاة ، فعسكر غربى دجلة وذلك يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٢٢٣ ، ونصبت الأعلام على الجسر ، ونودى في الأمصار بالنفير مع أمير المؤمنين ، فسارت إليه العساكر، والمطوعة من سائر بلاد الإسلام )<sup>(٣)</sup>.

يقول الدكتور / نجيب البهبيتي : ( في هذا كله ما يرى مبلغ ما كان لغارة تيوفيل البربرية على المسلمين فى ديارهم من أثر في نفوس الناس يومئذ ، وفي وصف التاريخ لنفرة المعتصم ، واضطراب الأقطار الإسلامية لهذا الخطب ما

١ - الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٨٠ .  
٢ - السابق ج ٦ ص ٤٨١ وحياض الأدم هو ما يؤكل بالخيز أي شيء كان . لسان العرب ج ١ ص ٤٥ .  
والروايا : جمع رواية وهو : البعير أو البغل أو الحمار الذي يستقي عليه الماء . لسان العرب ج ٣ ص ١٧٨٤ .  
٣ - مروج الذهب ج ٤ ص ٦٤ .

يجعلنا نحس مدى انفعال النفوس بهذا الحادث ومقدار ما أحفظها على من لم يرع في غارته حرمة النساء ولا براءة الأطفال (١).

وسأل المعتصم : أي بلاد الروم في آسيا أمنع وأحصن ؟ فقبل له عمورية ، فأمر أن يكتب اسمها على البنود والأعلام وكان المنجمون قد تنبؤا له بأن لن يفتحها حينئذ ، فأخذ كلامهم مأخذ الهزل وضرب به عرض الحائط ، وسار الجيش الكثيف وجد في المسير وقطع البلاد حتى إذا كان في الموصل ، انقسم قسمين كبيرين ، قسم إتجه إلى الشمال فدخل أرض الروم من درب الحدث ، وقسم كان المعتصم على رأسه دخل أرضهم من الشام من درب طرسوس شمالي سورية ، وأخذ القسمان المغيطان الموتوران ببیدان من يلقونهم من الروم ، إلا من نجا بنفسه وهرب مع ( تيوفيل ) في البلاد ، ويلقى المعتصم بكلاكله على أنقرة فتصبح أثرا بعد عين ، ويتحول إلى عمورية ، ويرى أسوارها الشاهقة ، فيأمر ببناء عرادات (٢) كبيرة توضع على منصات تحملها عجلات ، ويأمر بأن يوضع فوق العجلات أبراج توازي السور في ارتفاعه ، وتتسع لعشرة رجال ، حتى تجتمع قوتهم على الرمي البعيد بالمجانيق - وقد نسي إليه أن في سورها مكانا ضعيفا ، فسلط منجنيقاته عليه ، وما زالوا يرمون بها حتى احترق أكثر عمورية ، وحتى انصدع سورها واشتد الحصار على الروم وكانوا قد أرسلوا إلى ملكهم يطلبون نجدة ، ولكن المعتصم أخذ رسلهم ، فأرادوا خديعة المسلمين وتخذيّلهم عنهم ، عسى أن يصل اليهم مدد ، فبعثوا إلى المعتصم يقولون : إنا نرى في كتبنا أن مدينتنا هذه لا تفتح قبل نضج التين والعنب ، وأنها لا يفتحها إلا أبناء زنا ، فضحك المعتصم وقال :

١ - أبو تمام الطائي ص ١٤٠ .  
٢ - جمع عرادة: وهي شيء صغير يشبه المنجنيق - لسان العرب ج ٤ ص ٢٨٧٢ .

أما فتحها قبل نضج التين والعنب فذلك ما سافعله - إن شاء الله - وأما إنها لا يفتحها إلا أبناء الزنا ، فمعى من أبناء الروم الكفاية ، وكان أن فتحها<sup>(١)</sup> . ودخل الجيش الفاتح يقتل ويأسر ، ويقال إن عدد القتلى فى هذه المعركة بلغ تسعين ألفا ، واستأسر للعرب عشرات الألوف كانوا يباعون خمسة خمسة وعشرة عشرة .

وكان كل ذلك بمراى من أبى تمام وسميح ، وأحس بابتهاج لا حد له كما أحس كل عربى هناك ، وناق للنصر حلاوة لا تماثلها حلاوة ، فقد أخذ المعتصم وجنوده ثأر مدينة ( زبطرة ) وأطفالها ونسائها ، ورجالها ، من الروم الأوغاد وحطموا أكبر مدنها فى أسيا الصغرى حينئذ تحطيمًا ، لم تبق فيهم بعده قوة ولا قدرة على المقاومة .

وياله من أخذ للثأر أبرأ قلوب العرب الكليمة ، وهبط على أفئدتهم الجريحة هبوط البلسم الشافى ، إذن فليصدر أبو تمام عن هذه الفرحة الهنيئة ، وليجلجل بصوته القوى فيها جلجلة تدوى فى كل الأفاق ، فقد انتصرت العروبة انتصارًا عظيمًا ، وحق على شاعرها أن يمجده ، ويمجد قائدته ( المعتصم ) وجنوده ، وسرعان ما ينظم فى عمورية فريده وقصيدته الكبرى :

السيف أصدق أنباء من الكتب	فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى	متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماع لامعة	بين الخمسين لا فى السبعة الشهب
ابن الرواية أم ابن النجوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

١ - أبو تمام الطائي ص ١٤٠ - ويعني بأبناء الروم الذين معه من الأتراك الذين كانوا فى جيشه أو من أسره من الروم وهو فى طريقه إلى عمورية - شرح الديوان ج ١ ص ٦٩ .

تخرصا وأحاديثا ملفقة      ليست ينبع إذا عدت ولا غرب<sup>(١)</sup>  
وهي ليست قصيدة مديح كما تعودنا في القصائد العربية ؛ بل هي ملحمة  
رائعة تصور هذا المجد الحربي الخالد الذي حققه العرب لعهد المعتصم ويعلن  
الشاعر في فاتحتها إيمانه بالقوة وأنها فوق العقل وفوق الكتب مشيرا بذلك إلى  
المنجمين وحساباتهم الفلكية وتنبؤاتهم التي طاشت وفتح الله للمعتصم هذا  
الفتح العظيم ، ويطلق أبو تمام في سخريته يعلم التنجيم وما يذكره المنجمون من  
أيام السعد والنحس ومن تحكم الأبراج في طوابع الناس . فكل ذلك كذب وافتراء  
وأن الأمر موكول لحسن التدبير والإعتصام بحبل الله والرغبة في الإنتقام لدينه  
ولذلك يقول :

تدبير معتصم بالله منتقم      لله مرتقب في الله مرتغب<sup>(٢)</sup>  
لقد تحققت أمنية طالما حلم بها العرب ، إذ استسلمت لهم أعظم مدن الروم  
في آسيا الصغرى ، عمورية العتيقة منذ عهد الإسكندر المقدوني بعد استعصائها  
على كسرى ، وملوك العرب العظام ، وإذا هي تسقط مهيضة تحت أقدام المعتصم  
وجنوده البواسل ، وكأنها أصابها سريعا جرب الخنوع والانكسار الذي فشا في  
أنقرة ، فإذا شجعانها ويطارقتها يتهاوون مخضبين بدمائهم خضاب الإسلام  
الدموي الذي طالما خضب به رؤوس أعدائه وأجسادهم ، ويتحدث في ابتهاج ما  
بعده ابتهاج عن حرق ( عمورية ) وكل شيء فيها بعد العزة قد ران عليه الذل وغطاه  
سواد الاحتراق وغمرته حسرة الاكتئاب ، والسنة النار تندلع في ليلها البهيم ،  
حتى صار كأنه صبح مضى وكان الظلام رغب عن لونه أو كأن الشمس لا تزال  
طالعة أو كما يقول أبو تمام :

١- شرح الديوان ج ١ ص ٤٢ ، والنبع : شجر صلب ينبت في رؤوس الجبال وتتخذ منه القسي ، والغرب  
: شجر ينبت على الأنهار ليست له قوة .  
٢- السابق ج ١ ص ٥٨ .

حتى كان جلابيب السدجى رغيبت عن لونها وكان الشمس لم تغب<sup>(١)</sup>  
وهو يستغل في البيت قصة ( يوشع ) وما يقال فيها من أن الشمس  
تأخرت له عن مغربها<sup>(٢)</sup> فكان يوم عمورية من أيام يوشع .  
ومضى أبو تمام يتغنى ببطولة العرب في هذا - النصر الباهر مصوراً هزيمة  
( تيوفيل ) وجموعه المندحرة ، حتى قال والفرحة تفر قلبه وكيانه :

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحصب  
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تتال إلا على جسر من التعصب  
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو زمام غير منقضب  
فبين أيامك اللاتى نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب  
أبقت بنى الأصفر الممرض كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب  
وهو دعاء للخليفة يصور التحام العروبة عنده بالدين الحنيف ، ويدعو الله أن  
يكافئ المعتصم على ما بذله في سبيل إعلاء كلمة الدين والعروبة ويصور فيه همة الأسلاف  
البعيدة وكيف كانوا لا يترددون في التضحية بحياتهم ، والتعرض للخطر مصيحين وممسحين  
يبتغون أجرة الأخرة ، ويقرن موقعة ( عمورية ) إلى موقعة ( بدر ) الكبرى التى كانت فاتحة  
انتصارات الدين الحنيف يأمل فى أن تكون وقعة ( عمورية ) وهزيمة الروم فيها هزيمة  
ساحقة فاتحة انتصارات عربية جديدة لها شأن أى شأن ، ويصور الروم وقد نهكهم العرب  
وأنشبو فيهم أظفارهم فنضب الدم من وجوههم فاستحالت شاحية ياهتة ، حتى  
أصبحوا بحق خليقين باسمهم ( بنى الأصفر ) بينما استدارت من حول أوجه العرب  
هالات جلال ومهابة رفيعة .

١ - شرح النيبون ج ١ ص ٥٣ .  
٢ - ذكر أبو تمام ذلك في منحة لأبي سعيد المغربي فقال :  
فوالله ما أدري الحلام نلتهم الممت بنا أم كان في الركب يوشع ؟  
يقول المعري ( وهو أستاذ التبريزي ) ( هذا المعنى محمول على ما يحكيه أهل الكتاب أن الشمس ردت ليوشع  
ابن نون . شرح النيبون ج ٢ ص ٣٢٠ .



## المبحث الثاني مظاهر العروبة في رثاء أبي تمام

### ● الرثاء -

( فن من فنون الشعر وغرض من أغراضه ، يشبه المديح إلى حد كبير ، لكن المديح يكون في الأحياء ، أما الرثاء ففي الأموات ، أى أنه مديح الأموات وفيه يذكر الشاعر الصفات والمواقف ، والحسنات للمرثى )<sup>(١)</sup> وهذا الغرض يدور بين الناتية والقبلية والقومية<sup>(٢)</sup> .

ولا توجد أمة مهما أوغلت في البداوة أو صعدت في مراقي الحضارة إلا وهى تبكى موتاهها بكاء يصور حزن الإنسان على أخيه الإنسان ، بل لم نحسب مغالين إذا قلنا إنه يصور حزنه على نفسه فالقصة واحدة ، وكل يوم يسقط فصل من فصولها ، ومن يبكى اليوم غيره يصبح بعد قليل من الزمن محمولا إلى نفس المصير .

يقول الدكتور / شوقي ضيف :

(عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي ، إذ كان النساء والرجال جميعا يندبون الموتى كما كانوا يقفون على قبورهم مؤنين لهم مثنين على خصالهم وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت وأن ذلك مصير محتوم)<sup>(٣)</sup> وقد اصطبغ فن الرثاء فى عصور الأدب بصبغات مختلفة ما بين رثاء للنفس أو رثاء للغير أو رثاء للمدن والممالك الزائلة وذلك الأخير

١ - أبو تمام - عصره - حياته - شعره / محمد رضا مروة ص ١٠٩ .  
٢ - حين يعبر الشاعر عن حزنه لفقد أحد أهله يكون الرثاء (ذاتيا) وحين يبكي فقيدا من قبيلته يكون قبليا  
لما حينما يبكى شهيدا في محيل الأمة فإنه يكون قوميا .  
٣ - الرثاء - شوقي ضيف ص ٧ ط دار المعارف .

تهض به أكثر شعراء الأندلس ، عندما اقتطع الفرنجة بلادهم . ونم ذلك عن عاطفة قوية وحزينة نحو بلادهم .

( ولا ترتاب في أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سحراً حتى يطمئن الميت في مرقده ، ولا تصيب روحه الأحياء من وراثته بشر ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن ، وما زال حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن ، قبل الموتى ومحاولة ذكراهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم مع التفكير في القدر وقصور الناس أمامه وعبثه بهم ولعبه بحياتهم وموتهم )<sup>(١)</sup> وإن أصابها بعض النمو وبعض التطور لتطور العقل وتطور الحياة ، إلا أنها في جملتها تعود إلى تلك الصورة الأولى وتشتق منها كما يشتق الفرع من أصله . بيد أن أضواء الإسلام لما عمّت في النفوس أخذت تصاحب تلك الصورة نزعة جديدة تقوم على التسليم لله والرضا بقضائه ، والصبر على امتحانه احتساباً وطلباً للمثوبة من عنده ، فالرثاء إذن غرض يلبس ثوب العصر الذي يحياه .

#### ● الرثاء عند أبي تمام .

وكما كثرت مدائح أبي تمام كثرت كذلك مرثيته فمن المعلوم أن أبا تمام كان كثير السفر لا يكاد يستقر بمكان إلا ويتركه إلى آخر ، ولقد ساعدت هذه التنقلات والعلاقات الواسعة في إكسابه الخبرة والتجربة ، وغدا شعره سجلاً حافلاً بالأحداث التي كانت تدور على ساحة الوطن العربي من مصره إلى عراقه فضلاً عن ثغوره ، فهو مسجل لتاريخ عصره لم يترك حادثة ذات أثر إلا وقال فيها .

١ - السابق - ص ٧

( ومراثى أبى تمام لا تقل عن مدائحه روعة ، وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمة ؛ فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه )<sup>(١)</sup> ويقول أحد القاد المحيئين فى هذا الصدد :

( كان البحتري موفقاً كل التوفيق حين قال عن أبى تمام إنه ( مداحه نواحه ) فقد أعطى هذين الغرضين حياته ..... ثم موته ! )<sup>(٢)</sup> .

( والرتاء عند أبى تمام رقيق العاطفة ، وأقل تكلفاً من مدحه ، وفيه يظهر أبو تمام ، ذلك الإنسان الجبار على الخطوب ، القوى أمام المآسى ، ونوب الدهر القاسى فى الشدائد ، رقيق الحس ، وثيق الوداد ، ثم هو لا يفقد رشده عند المصيبة مهما كانت كبيرة ، وتعاطفت ولا يشتبه رأيه فيمضى فى التفجع ، ويصف ما يدل على التأوه فى مبالغات لا جدوى تحتها ، إنه يبالغ ولكن فى استعارات وكنائيات وتشابيه كما يفعل فى مدحه ، ثم يبقى على هدوئه فيستطيع طرق الأغراض على نحو ما ترى فى بعض مدائحه )<sup>(٣)</sup> .

ومن المعروف أن شاعرنا كان على صلة حميمة بالموت ، فقد كان إنساناً مرزاً عرف الموت فى أوقات مبكرة ، فقد مات أبوه وهو صغير وأغلب الظن أن أمه قد غادرت - كذلك - الحياة وهو فى سنه المبكرة كما ماتت زوجته وأولاده فى حياته ما عدا ( تماماً ) فعاش حياته لا يكف عن الأنين .

حتى لقد أصبح كما يقول / ماجد فخري عن حد الإنسان :

( الحى الناطق المائت )<sup>(٤)</sup>

١ - الشعراء المحيئون فى العصر العباسي / العربي جمن درويش ص ١٥٤ ط الهيئة العامة للكتاب .

٢ - أبو تمام وقضية التجديد فى الشعر / عبده بنوي ص ٧٤ .

٣ - أبو تمام - محمد رضا مروة ، ص ١١٠ .

٤ - دراسات فى الفكر العربى / ماجد فخري ص ٤٠ ط بيروت .

وعن الرثاء عند أبي تمام يقول الدكتور / عمر فروخ :  
 ( وفنون أبي تمام البارة الرثاء ، ثم المديح ، وله حكم كثيرة منتثرة في ثنايا  
 القصائد ولأبي تمام وصف وعتاب وهجاء ، ولكنها لا تداني شعره في الرثاء ولا  
 في المديح وكان أبو تمام يجيد المدائح والمراثي في الأشخاص )<sup>(١)</sup> .  
 ويقول الدكتور / محمد نبيه حجاب عن الرثاء عند أبي تمام :  
 ( كان ميدانه العاطفي الأصيل ، فإذا كان العطاء يستهوي الشعراء بالمديح ،  
 فإن الحزن يعتصر المراثي ؛ فتسيل دموعاً ونحيباً وقصيداً )<sup>(٢)</sup> .  
 وكان أبو تمام من الشعراء المعدودين في إجادة الرثاء كما يقول ابن  
 رشيقي<sup>(٣)</sup> وليس في ابتدئات المراثي المولدة مثل قوله :  
 أصم بك الناعي وإن كان أسماً وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا<sup>(٤)</sup>  
 يرثى ما محمد بن حميد الطوسي :  
 ويقول الأمدى : ( هو أشعر الناس في المراثي ، وليس له فيها أجود من  
 قوله :

ألا إن في ظفر المنية مهجة      تظل لها عين العلى وهى تدمع  
 هى النفس إن تبك المكارم فقدما      فمن بين أحشاء المكارم تتزعج<sup>(٥)</sup>  
 قال أبو دلف : ما مثل هذا القول إلا ما رثيت به ( محمد بن حميد ) قال :  
 وأى ذلك أراد الأمير ؟ قال : قصيدتك التى مطلعها :  
 كذا قليجل الخطب وليفدح الأمر      فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

١ - تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي ص ٢٥٣ ط دار العلم للملايين - بيروت .  
 ٢ - معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٢٥٨ ط دار المعارف .  
 ٣ - العمدة ج ٢ ص ١٤٩ ط دار الحل - بيروت .  
 ٤ - البلقح : الأرض الكفراء الخالية - المختار من كتاب الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ص ١٦٤ ط  
 وزارة الثقافة .  
 ٥ - الموازنة ص ٣٦ والأبيات في رثاء إدريس بن بدر الشامي القرشي شرح الديوان ج ٤ ص ٩٧ .

وددت والله أنا لك في: فقال: بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم قبله، فقال: إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر<sup>(١)</sup>.

● رثاء أبى تمام لأبطال العروبة

يمضى أبو تمام في رثائه وكان العروبة هاتف في بؤرة شعوره لا يكاد يبارحه حتى يعود إليه، ويلمع في مخيلته، ولا يستطيع الفكك من أسره فتنبجس نفسه بالرثاء الموجه إلى أولئك الأبطال المغاوير الذين كانوا فرساناً يذودون عن حياض العروبة وحصونها، ويفدون بها بالمهج والأرواح.

ومن أولئك الأبطال الذين خلدهم أبو تمام بمدحه ثم عاد فخلدهم برثائه (خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني) أحد أبطال المعارك المأمونية في حروبه مع الروم، والتي أبلى فيها بلاء حسناً، وله في رثائه قصيدتين الأولى منهما بدأها بقوله: نعاء إلى كل حى نعاء فتى العرب احتل ربع الفناء<sup>(٢)</sup> أصبنا جميعاً بسهم النضال فهلا أصبنا بسهم الغلاء!<sup>(٣)</sup> وفيها نرى أباً تمام وقد هجم على غرضه دون مقدمة، وكأنى به ينعى للعروبة، بله شيبان فارسها المغوار صاحب الانتصارات والأمجاد الحربية المظفرة ولذلك حق له أن يلقبه (بفتى العرب) وقد هلك هذا الفتى وأصبنا منه بالخطر الجليل الذى كنا نعدده لدفع الأعداء وهذه القصيدة إذا ما تقرأها لا تشك قط في أن

(١) - الأغاني ج ١٦ ص ٣٩٠.

(٢) - نعاء كلمة في معنى الأمر، وهي مبنية على الكسر، ونعاء فلان أي اتعوه فقد هلك، وأصل النعي: رفع الصوت بالقبيح، والريع: المنزل.

(٣) - سهم النضال: هو الذي يرمى به العدو والرامي، وقد تستعمل النضال في معنى ترامي القوم لينظروا أيهم أجود. وقد تستعمل المناضلة في المفارقة وسهم الغلاء: من قولهم غاليت الرجل إذا رميت وتنتظر أيكما أبعد موقع سهم في الأرض. شرح الديوان ج ٤ ص ٨.

الشاعر تسيل نفسه لوعة وأسى ، وأن الأسى كان في نفسه في قرارتها ، ويشف عن عاطفة متأصلة تكاد تعرفها في قوله :

ألا أيها الموت فجعتنا بماء الحياة وماء الحياء<sup>(١)</sup>  
فماذا حضرت به حاضرا وماذا خبأت لأهل الخباء<sup>(٢)</sup>  
نعاء نعاء شقيق الندى إليه نعيًا قليل الجداء<sup>(٣)</sup>

وكثير شعره في الرثاء على هذا النمط فقد أجاد في أكثر مراثيه إظهار الحزن والأسى لدرجة توحى أحياناً للقارئ أن من يرثيه بمنزلة ولده الوحيد، أو أن عاطفة الحزن والأسى عند ذلك الرجل دائمة التوهج - لا سيما وأنه كان رجلاً ذا صلة حميمة بالموت ، ويتحين الفرصة لإظهار تلك العاطفة ( ويتخذ موت الميت سبباً ليعرب عن أحزان نفسه لأنه من أولئك الذين صاحب الحزن نفوسهم )<sup>(٤)</sup> اسمع إليه يقول :

سل الملك عن خالد والملوك بقمع العدى وينفى العداء  
ألم يك أقتلهم للأسو د صبراً وأوهبهم للظباء ؟  
فلا ينسى وسط هذا النحيب المتواصل أن ينشر مآثره ويذكر بشجاعته وكيف أنه استطاع إخضاع العدا لكلمة سيفه فيقول :

طوى أمرهم عنوة فى يديه طى السجل وطى الرداء<sup>(٥)</sup>

١ - قال الصولي: ماء الحياة : يعني من كان الناس يقيمون حياتهم به ، وماء الحياء : يريد أنه يعطي بلا سؤال فيصون وجوه الناس عن الطلب بسبقه بالمعطفية.

٢ - أهل الخباء : هم الذين.

٣ - قليل الجداء : أي الغناء.

٤ - أبو تمام - محمد رضا مروة ص ١١٩ .

٥ - طى السجل : مأخوذ من قوله تعالى "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ" . سورة الأنبياء - الآية ١٠٤ .

ويظل على ذلك ، تارة يتماسك ويتصبر ، وأخرى يتهاوى ويجزع حتى يأتي  
على قوله :

غلبلى على خالدٍ خالدٌ وطيف همومى طويل الثواء  
فيعلن صراحة أنه أمام فداحة تلك الخسارة لا يستطيع إلا أن يكون دائم  
الحنن والغليل لفقدان ذلك الفارس. وأما القصيدة الثانية في رثاء خالد فبدأها  
بقوله:

أالله إنسى خالدٌ بعد خالدٍ وناسٍ مراح المجد نجم المحامد  
ونراه في تلك القصيدة أيضاً على غرار السابقة يستغيث الدمع ويستنجد  
الشعر ناصرين له على أساه وحننه فيقول :

ألا غرب دمع ناصر لى على الأسى ألا حر شعر فى الغليل مساعدي  
فلم تكرم العينان إن لم تسامحا ولا طاب فرع الشعر إن لم يساعد  
وكل بيت من المراثية يفيض بالدمع والأسى ليس لشيء إلا لأن خالدًا كان  
من القواد الذين غمروا العروبة بانتصارهم على أعدائها حتى غدا اسمه مشهوراً  
على كل لسان ، ووقف أبو تمام من أولئك القواد موقف المقيم في قبة زجاجية يرى  
كل ما يحدث من حوله ، حتى إذا قلبت الدنيا لأحدهم ظهر المجن ؛ كان من أسرع  
من يحوطنون أولئك الاشواوس بهالات التمجيد لذكراهم ، المسجلين لمناقبهم ، فصارة  
مراثي الشعراء فى أولئك الأبطال سجلات حافلة بمن لمعوا في عصورهم ، ثم  
اختفوا وراء ظلمات الموت فتركوا بموتهم جروحاً لا ترقأ في قلوب الناس - ولا  
سيما الشعراء فظهرت في نبرات أصواتهم آلام الفجعة يقول أبو تمام :

على أى عرنين غلبنا ومارنٍ وأية كف فارقتنا وساعد<sup>(١)</sup>

١ - العرنين: هو أول الألف حيث يكون فيه الشم (ما بين العينين من الألف) لسان العرب ج ٤ ص ٢٩١٦. والمارن : طرف الألف اللين - لسان العرب ج ٦ ص ٤١٨٧ .

كأننا فقدنا ألف ألف مدحج      على ألف ألف مقرب لا مباعد  
 فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسة      ووحدة من فيها لمصرع واحد  
 ويقول:  
 أشيبان لا ذاك الهلال بطالع      علينا ولا ذاك الغمام بعائد  
 أشيبان عمت ناراها من مصيبة      فما يشتكى وجد إلى غير واجد<sup>(١)</sup>  
 وهكذا فإن شاعرنا من أولئك الشعراء الذين جللوا دنواوينهم وأشعارهم  
 بسواد الحزن على من سبقوهم إلى دار الخلود.

● رثاء أبي تمام لابن حميد الطوسي .

كان من الحوادث الدامية في عصر أبي تمام أن قتل في بعض حروب  
 العباسيين بطل من أشهر أبطالهم ، ففي سنة ٢١٤ للهجرة يفاجأ أبو تمام ويفاجأ  
 معه العالم العربي بقتلك بابك الخرمي بقائد من قواد العرب العظام وهو ( محمد  
 بن حميد الطوسي الطائي )

فيروي ابن الأثير في أخبار عام ٢١٤ هـ ما يلي :

( ... ووقف محمد بن حميد خلفهم في جماعة ينظر إليهم ، ويأمرهم بسد  
 خلل إن رآه فكان بابك يشرف عليهم من الجبل ، وقد كمن لهم الرجال تحت كل  
 صخرة فلما تقدم أصحاب محمد وصعدوا في الجبل مقدار ثلاثة فراسخ ، خرج  
 عليهم الكماء ، وانحدر بابك إليهم فيمن معه ، وانهمز الناس ، فأمرهم أبو سعيد  
 محمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم ، والقتل يأخذهم ، وصبر  
 محمد بن حميد مكانه ، وفر من كان معه غير رجل واحد ، وسارا يطلبان الخلاص  
 فرأى جماعة وقتالا فقصدهم ، فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه ، فحين

١ - شرح التبريز ج ٤ ص ٧١ .



رأه الخرمية قصدوه لما رأوا من حسن هيئته ، فقاتلهم ، وقتلوه ، وضربوا فرسه بمزراق<sup>(١)</sup> ، فسقط إلى الأرض وأكبوا على محمد بن حميد فقتلوه وكان محمد ممدحاً جواداً شجاعاً ، فرثاه الشعراء وأكثروا ومنهم الطائي ، فلما وصل خير قتله إلى المأمون عظم ذلك عنده<sup>(٢)</sup> - هذا الحادث ألم أبا تمام وألم معه الأمة العربية كلها فنصبت له المآتم في كل مكان ، وأخذت تكيه بدموع غزار ، وتهول أبا تمام الكارثة ، ويمتلاً قلبه حسرة وحزناً ولوعة ، فيغمس طرف رداءه في مداد شديد السواد ويضرب به وجهه وكتفيه وصدره كما يقول ( يوسف البديعي ) صاحب ( هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام )<sup>(٣)</sup> وما ذلك إلا لوجده وجزعه على ذلك البطل العربي ، ثم شرع يرثيه برأيته الخالدة التي تمنى أبو دلف العجلي لو كان هو المقتول وقيلت فيه والتي بدأها بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر      فليس لعين لم يفض ماءها عذر<sup>(٤)</sup>  
توفيت الأمال بعد محمد      وأصبح في شغل عن السفر للسفر<sup>(٥)</sup>

وفيها يقول :

فتى مات بين الطعن والضرب مية      تقوم مقام النصر إن فاته النصر  
وما مات حتى مات مضرب سيفه      من الضرب واعتلت عليه القنا السم  
وقد كان فوت الموت مهلاً فرده      إليه الحفاظ المر والخلق الوعر  
ونفس تعاف العار حتى كأنه      هو الكفر يوم الروح أو دونه الكفر

١ - المزراق من الرماح : رمح قصير - وقد زرقة بالمزراق إذا طعنه أو رماه به - لسان العرب ج ٣ ص ١٨٢٨

٢ - الكامل في التاريخ - ج ٦ ص ٤١٢ وما بعدها حوادث سنة ٢١٤ هـ

٣ - هبة الأيام - ص ١٤١

٤ - يجل : يعظم ، يقدح : يقتل ويصعب

٥ - شرح الديوان ج ٤ ص ٨٠ - السفر : قطع المسافة ، السفر : المسافرون

«أثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من أخصمك الحشر<sup>(١)</sup> وليس هذا رثاء وإنما هو تمجيد لا يدانيه تمجيد لأبطال العروبة الذين يفدون قتل شعوبهم بهجهم وأرواحهم فيكتبون لها بذلك نصراً مؤزراً ، فابن حميد لم يهزم ولم يفر جيناً أمام هجوم بابك ، بل أقدم إقداماً لا يشبهه إقدام حتى تقصنت السيوف والرماح في يده وهو ثابت في مستنقع من الدماء حتى الموت ، وابن حميد بذلك مثلٌ للشجاعة التي ليس دونها شجاعة ، والبطولة التي ليس بعدها بطولة ، بطولية تحل محل النصر الذي فاتته وحتى تتمنى كل روضة مزهرة لو أنها ضمت في ثراها جثمانه الطاهر وحقق ما قاله : أبو دلف لأبي تمام :

( لم يمت من رثى يمثل هذا الشعر ) وأى رثاء ! لقد أحال استشهاد ابن حميد في تلك المعركة الخاسرة نصراً باهراً حتى يتأسى به الشباب العربي المعاصر وتنتقل إليه العدوى فيبذل روحه ويضحي بنفسه في سبيل قومه وكان جزاء وفاقاً لأبي تمام أن بنى بنو حميد أبناء الشهيد وأهله (قبة) بعد وفاته على قبره ، أداء لبعض حقه .

وكان مقتل ابن حميد الطوسي الطائي في حروب بابك لا يبرح خيال المأمون وصمم على أن يأخذ بثأره وأن يكسر حد بابك وجنوده الخرمية وانتدب لذلك ( اسحق بن إبراهيم المصعبى ) أحد قواده المغاوير فمضى إليه وأخذ ينازله في الإقليم الجبلى ( بأذربيجان ) وأرمينية حيث كان يحتمى وراء الجبال الوعرة وظل المصعبى في نزاله – وفى تلك الأثناء يتوفى المأمون<sup>(٢)</sup> ويتولى المعتصم بعده

١ - وقف كثيرون عند هذا البيت . فمثلاً سأل القاسم بن عيسى في مجلس حاشد اجتمع له ، عن أشجع بيت قالته العرب فأنشد لعنترة ، وأقيس بن الخطيم ، وعمر بن الأظلمة ، وعباس بن مرداس السلمي ورجل من بني مزينة ، حتى ذكروا نحواً من مائتي بيت شعر في هذا المعنى فقال مشيراً إلى أبي تمام – وكان جالساً عنده – هذا والله أشعر من مضى ومن بقي ثم أنشد بيته (تاريخ الموصل للأزدي – تحقيق د/ علي حبيبة ص ٣٩٢ ، ٣٩٣) . وحين تحدث ابن عربي عن رجال المطلع وهم الذين لهم التصرف في الأسماء الإلهية ، عرض للحديث عن الشيخ أبي السعود ثم قال : كان أبو السعود منهم ، وكان كثيراً ما ينشد بيتاً لم يسمع منه غيره ، وهذا البيت هو (أثبت في مستنقع الموت ..... إلخ) (الفتوحات المكية ج ٣ ص ١٩٢ تحقيق د/ عثمان يحيى).

٢ - من العجيب أني لم أجد لأبي تمام أي بيتاً في رثاء المأمون من ديوانه !

مقاليد الخلافة - حتى حانت له فرصة من جموع غفيرة لبابك فلم يبق منهم ولم يذروا أمران نحر أن من كل قتيل ، حتى إذا بلغت عدة الأتبان ستين ألفا أرسل بها إلى المعتصم ليريه مدى تنكيله بهم ومقدار من سفك دماءهم منه أخذاً بثأرا بن حميد ومن جاهدوهم معه جهاداً شاقاً ، ودقت البشائر في كل مكان ابتهاجا بهذا النصر وتغنى أبو تمام - كعادته حينما يتحقق نصر العروبة على أعدائها - بمثل قوله :

لَقِيْتَهُمْ بِحِلَابِ الْمَنَارِيا      بعيد الرِّزِّ نائِي الحِجْرَتَيْنِ<sup>(١)</sup>  
فَمَا أَبْقَيْتَ لِلسَّيْفِ الِيمَانِي      شِجَا فِيهِمْ وَلَا الرَّمْحَ الرَّدِينِي  
وَقَائِعَ أَشْرَقَتْ مِنْهُنَّ جَمْع      إِلَى خِيفَى ( مَنَى ) فَالْمَوْقِفَيْنِ  
رَدَدْتَ الدِّينَ وَهُوَ قَرِيرَ عَيْنٍ      بِهَا وَالْكَفْرَ وَهُوَ سَخِينِ عَيْنِ<sup>(٢)</sup>

فجمع والخيف ومنى والموقفان بالمزدلفة وعرفة كل تلك الأماكن المقدسة التي يهل بها الحجاج ويلبسون كأنما انساب من هذه الوقائع في أرمينية وأذربيجان نور تالق فوق جبالها وكأنما أهرق في تلك الوقائع من الدماء ما يهرق في أيام النحر والتشريق ويذكر هنا معظم وقائع الجاهلية وأيامها المشهورة ليقول إنها ليست شيئاً مذكوراً بجانب هذه الوقائع العربية الجديدة وكأنها نسختها نسخاً ومحتها محواً .

وفي ذلك يقول :

مَحَوْتَ بِهَا وَقَائِعَ مَنْ مَلُوك      وَكُنْ وَقَدْ مَلَأَ الْخَافَقَيْنِ  
صَبِيحَةَ خَازِرٍ أَتَمَّتْ وَمَهْوَى      عَبِيدَ اللَّهِ فِيهَا وَالْحَصِينِ<sup>(٣)</sup>

١ - الأبيات في مدح إسحاق بن إبراهيم - شرح الديوان ج ٣ ص ٢٩٨ ، والرِّز : الصوت والمجرتان - الناحيتان .

٢ - شرح الديوان ج ٣ / ص ٢٠٧ .

٣ - خازر / مكان بناحية الموصل - شرح الديوان ج ٣ ص ٢٠٠ .

يقول التبريزي شارحه : ( إنما يعنى وقعة إبراهيم بن الأشتر ، والمختار بن عبيد الله بن زياد ، والحصين بن نمير السكوني ، فقتل عبيد الله والحصين يقول : وقعتك أريت على وقعات من كان قبلك ، وأنست حروب الملوك المتقدمة . ثم أخذ يعددها فقال :

وفيف الريح إذ دلفت معد بأجمعها وأسرة ذى رعين<sup>(١)</sup> وهو إنما يعنى حرباً قديمة كانت بين معد واليمن . ويقول :

وأيام الذنائب زعزعتها ويوم مهلهل والشعثمين يقول المرزوقي : هذه الأيام من حرب البسوس ، وكانت بين بكر وتغلب بسبب قتل كليب<sup>(٢)</sup> وائل الذي قتله جساس بن مرة الشيباني بسبب ناقة جاز له تسمى ( بسوسا ) وكانت رعت فى حماء ، فرمى كليب ضرعها فأحقد ذلك جساساً فأمهل كليبا إلى أن ركب يوماً فى عقب مطر ، فتبعه جساس مع عمرو بن الحارث ، وطعنه جساس وأذراه عن ظهر فرسه ، ونزل عمرو ، وكان كليب يطلب ماء فقدر أن عمرا يسقيه ، فدنا منه وأجهز عليه ، فلذلك قيل .

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار وأما الشعثمان ( فليل هما رجلان يقال لأحدهما ( شعثم ) وللآخر ( شعثب ) وقيل كان الآخر ( لعثما ) وهما ابنا معاوية بن ذهل قتلها مهلهل فى طلب دم كليب )<sup>(٣)</sup> .

ومن أيام العرب أيضاً قوله :

وأيام الكلاب غداة هزت مرارين فيها مترفين  
أخ تركت أسننته أخاه تليلا للجبين وللبيدين

١ - وفيف الريح / اسم موضع - وذو رعين من حمير .  
٢ - إنما سمي بكليب فيما حكى : لكليب كان له جعل لباحه وأثر قوائمه سبباً فيما يجعله حمى من البقاع فكان أي موضع سمع نباح كلبه فيه من حماء ، يتجنب ويتحامي إلا بإذنه .  
٣ - شرح الديوان ج ٣ ص ٣٠٦ بتصريف .

يقول شارحه نقلا عن المرزوقي<sup>(١)</sup> :

( هذا يوم هزمت ربيعة فيه قسيما ، والكلاب : ماء بين الكوفة والبصرة  
وهذان الأخوان من بني آكل المرار واسمهما شرحبيل وسلمة ابنا الحارث بن عمرو  
آكل المرار )<sup>(٢)</sup> .

وظل أبو تمام يعدد تلك الوقائع التي تدلل على علمه الجيد الملم بأيام العرب  
ووقائعهم وانتصاراتهم ويقارن بينها وبين تلك الوقائع الحديثة ولم تقتصر تلك  
الوقائع والأيام على ما كان في الجاهلية وفتطبل قال :

ولكن أنكرتسا يوم بدر ومشجر الأسنة في حنين  
فذكر خلال ذلك أيضاً أشهر وقائع الإسلام التي كان للمسلمين فيها الغلبة  
على عدوهم .

ولأبى تمام في ابن حميد مراثى كثيرة تصور تصويراً دقيقاً جزع ذلك الرجل  
على ذلك المراثى ، ويعلو فيها صوته بالنواح حتى يبج ، ولا ضير في ذلك إذ رأى  
أبو تمام عضواً من أعضاء العروبة وقد بتر بترأً وسقط سقطلة لا إقالة له منها  
فأضحت العروبة من بعده هو واضرابه كالأعمى يضع يده ويتحسس فلا يجد له من  
يمد كف العون - وأول مرثية له في ابن حميد بدأها بقوله :

أى القلوب عليك ليس ينصدع وأى نوم عليك ليس يمتنع ؟  
يقول :

من لم يعاين أباً نصر وقائله فما رأى ضبعاً في شدقه سبع<sup>(٣)</sup> !

١ - السابق ج ٣ ص ٣٠٢ .  
٢ - سمي بأكل المرار : فيما ذكر بعض الناس لأن ملكاً من قضاعة أشار علي رجلته وأخذ امرأته وكان  
يقال لها ( هند الهنود ) فقالت للملك الذي أخذها : كأي بالحارث وقد اتبعك كأن بعيراً أكل المرار ! والأبل  
إذا رعت المرار تقلصت مثالبها ، أرادت أنه قد كبح وقلصت شفتاه . قال قوم : إنما سمي بذلك لأنه  
كان في غزو قتي زاده وزاد أصغابه فماتوا ، وأكل هو المرار قسماً . وقيل غير ذلك .  
٣ - شرح الديوان ج ٤ ص ٩١ - أبو النصر : كنية محمد بن حميد .

فيم الثماتة إعلاناً بأسد وغي      أفناهم الصبر إذ أبقاكم الجزع ؟  
لا غرو أن قتلوا صبراً ولا عجب      فالقتل للصبر في حكم اللقنا تبع  
وكانه أراد أن يقول للثامتين من الأعداء : من لم يدركه الموت اليوم ،  
يدركه غداً ، فيشطر منه أصله أو فرعه ، وتقرح جفونه في أهل مودته ، وأبو تمام  
وإن قال ذلك محاولاً التجلد أمام ما حدث من موت ابن حميد إلا أنه قد يخونه  
هذا التجلد أحياناً فينعى إلى طيبى هول ما ألم بها بل وباليمن كلها فيقول :  
رزء على طيبى القى كلاكه      لا بل على أدد لا بل على اليمن<sup>(١)</sup>  
ولأبى تمام في ابن حميد مراثى أخرى وكلها لا تفتقر فيها عاطفته حيال فقد  
ذلك البطل المفقود .

١ - شرح الديوان ج ٤ ص ١٤٠ .

### المبحث الثالث مظاهر العروبة في فخر أبي تمام

#### • الفخر-

وهو تعداد الصفات وتحسين السيئات ، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب<sup>(١)</sup> وهو باب واسع من أبواب الشعر العربي ، عرفتة النفس البشرية ، منذ أول يوم لها على وجه البسيطة ، بل لعله وجد قبل ذلك ، إذ ما الذي أخرج إبليس من رحمة الله ، وجر عليه اللعائن إلى أبد الأبد غير الفخر والكبر والاعتداد بالنفس؟

والفخر هو الغرض الوحيد الذي ينبت في النفس تلقائياً إذ ليس أعز على الإنسان من نفسه وإن ادعى غير ذلك .

يقول حنا الفاخوري : ( الفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها ، والإنسان - كما لا يخفى - سجين ذاته منذ الولادة ، يديم النظر في مرآتها ، مستجلباً محاسنها صابغاً قبائحها بما يجعلها في ميزانه دون قبائح الناس أجمعين مقارناً فيما بينها وبين غيرها ، وهذا الأيثار للنفس ، إذا تجسم في عبارات شعرية كان الفخر وكانت الحماسة )<sup>(٢)</sup>.

والفخر من الأغراض التي لازمت الشعر جاهلية ، وإسلاماً وهو خلال تلك يتلون بلون العصر الذي يحيا فيه ، واحتال لذلك حتى تبقى له تلك المكانة بين فنون الشعر وأغراضه . ففي الجاهلية عظم شأن الكرم وصار مفخرة عند العربي وذلك لأن شبح الفاقة يلوح في البادية كل حين لقسوة الأرض ، وقسوة السماء

١ - الفخر والحماسة - حنا الفاخوري ص ٥ ط دار المعارف الطبعة الخامسة .  
٢ - السابق ص ٥ .

أحياناً ، فراح الشعراء يتغنون بالكرم ، ويفخرون بالبذل والغسراع فيه ، بالإضافة إلى الافتخار بالإباء والشرف ، والعفو مع القدرة ، والوفاء بالوعد ، ونجدة الملهوف وإغاثة المكروب ، والدفاع عن المرأة .

ومع كل تلك الخلال المحمودة التي افتخر بها العربي الأول ، نجد على النقيض وفي الجانب الآخر بعض الشعراء - ولعل ذلك من الغرابة بمكان - يفخرون بظلمهم وبغيهم ومقابلتهم الجهل بالجهل لا بالحلم والعفو ، وأخذوا يجاهرون بذلك غير مباينين ، ولا متحسين للامة ، ويمسحون بأعلى صوت :

ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ملأنا الير حتى ضاق عنا	وماء البحر نملؤه سفينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدرا وطينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا	ولكننا سنبدأ ظالمينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع	تخر له الجبابر ساجدينا <sup>(١)</sup>

فإذا جاء الإسلام قام بتهذيب الشخصية العربية ، وانتهج لها نهجا قويا وأخذ يبيديها إليه وخلع عليها من حله ، ونصب من الفخر محامياً عن الدين وجعل من الفخر بالدين وبالأسبقية إليه والدفاع عنه وعن أصحابه ، وبذل النفس فضلاً عن المال والأهل والولد في سبيل إعلاء كلمته بطولية يتغنى بها كل من انتصر للدعوة وجند نفسه لها ولكل ما يتعلق بها .

وظل الفخر في العصر الأموي على معنى قريب من ذلك ، وقد بداخله أحياناً معنى قريب من العصبية ، فنرى الشاعر يسعى أبداً إلى إعلاء قومه ونفسه فيخلع

١ - (الأيوات من معلقة عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي ، سيد تغلب وقائدها وقطب رحا الحروب التي دارت بين بكر وتغلب ، وهو شاعر عصر البيهية ، رائق الأسلوب نبيل الغرض ، إلا أنه مقل. تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات ص ٦٥ بتصرف .



عليهم صفات المكارم والفضائل ، وقد لا يتورع عن إيذاء غيره بالهجاء وكلما رادت هجنة الشاعر لأعدائه وذمة إياهم ؛ انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه وكان من أشهر شعرائه الفرزدق<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ١١٠ هـ .

فلما انتهى مطاف الفخر إلى بني العباس ، كانت مظاهره مختلفة ، وثيابه التي اكتسب بها متنوعة ، ودار في فلك جديد غير الذي كان يدور فيه .

يقول حنا الفاخوري : وإذا الفخر يدور حول العقل والرأى والحكمة ، وحول الانفلات والتحرر والشجاعة الحكيمة والحزم في الأمور والأصل العريق في الحضارة والرقى ، والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة بالفن ، والأصباغ المتماوجة في أجواء الجمال ، وحول الوقار والتعالى في سلم المجد المعنوى ، وما إلى ذلك مما نلمسه بقوة في الأدب العباسي ، ولئن عثرنا بعض الأحيان على فخر بدوى يشبه الفخر القديم ، فما ذلك إلا نفحات صحراوية في بلاد اليمن والرخاء وما ذلك إلا أصوات ناشزة في عالم من الأنغام المتناسقة<sup>(٢)</sup> .

وفي الفخر يكمن المدح الذي يتوج به الشاعر نفسه وآله وقومه ويشيد بذكرهم .

يقول ابن رشيقي : ( والافتخار هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخصص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار )<sup>(٣)</sup> .

ولعلنا لا نجد غضاضة من ذكر مدحه في موضع فخره أو العكس .

١ - هو أبو فراس همام بن غالب التميمي ، ولد ونشأ بالبصرة ، كان فخورا بأسله مدلا بأهله ولوعا بتعداد مائت أبلته حتى أمام الخلفاء ، فأغلب شعره في الفخر "تاريخ الأدب العربي" - أحمد حسن الزيات ص ١٦٤ بتصرف .

٢ - الفخر والحماسة ص ٢٤ .

٣ - العدة ج ٢ ص ١٤٣ .

### ● الفخر عند أبي تمام

إن الناظر في شعر أبي تمام يرى فخره العام بنسبه ويقومه ، فهو كثير في ثنايا ديوانه ، تشع منه روح الاعتزاز بأصالة النسب إلى القبيلة ، بل إلى العروبة ذلك الاعتزاز الذي يعكس انتماءه إلى أصوله الطائفة اليمنية ، ويرد مزاعم شائنيه وحاسديه ممن ادعوا أنه يوناني الأصل ، أو سرياني ، أو رومي رداً لا يبقى معه شبهة في أنه غير عربي ، اسمع إليه يقول : من قصيدة يفخر فيها بنفسه ويقومه :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم      وسمى فيهم وهو كهل ويقاع  
سما بي أوس في السماء وحاتم      وزيد القنا والأثرمان ورافع<sup>(١)</sup>  
وكان لباس ما لباس وعارق      وحارثة أوفى الوري والأصامع<sup>(٢)</sup>  
نجوم طوالع جبال فوارع      غيوث هوامع مسيول دوافع  
مضوا وكان المكرمات لسيدهم      لكثرة ما أوصوا بهن شرائع  
فأى يد في المجد مدت فلم تكن      لها راحة من جودهم وأصابع ؟  
فلا يكاد إنسان يشك في عروبة هذا الرجل خاصة حينما تسمع أذنه هذا الشعور القوي الذي يمتح من معين العروبة الطائفة اليمنية وينضح به أيضاً ، وأنى لرجل دعى أو حليف معرفة بهؤلاء الأعلام الذين مدحهم بعد بقوله :

بهايل لـو عابنت فضل لكفهم      لأبقت أن الرزق في الأرض واسع<sup>(٣)</sup>  
إذا خفقت بالبنل أرواح جودهم      حذاها الندى واستنقتها المطامع

١- أوس: يعني أوس بن حارث بن لام ، وحاتم مشهور ، وهو حاتم بن عبد الله بن مسعود بن الحنجر ، وزيد القنا يعني "زيد الخيل" وقد أدرك الإسلام ووفد علي النبي ﷺ ثم انصرف فمات قبل أن يصل إلى أهله ، والأثرمان : رجلان من طيء ، ورافع : يعني به رافع بن حميرة وكان أبذل العرب .

٢- إيلس : هو إيلس بن قبيصة الطائي وكان كسري ولاء الميرة بعد النعمان بن المنذر ، وعارق : هو قيس بن جروة الطائي ، وحارثة : هو أبو حنبل الطائي واسمه حارثة بن مر . والأصامع من طيء أيضاً ومنهم سدوس بن أصمع . شرح النيران ج ٤ ص ٥٨٥ .

٣- البهليل: جمع بهلول وهو العزيز الجامع لكل خير وقيل الحبي الكريم - لسان العرب ج ١ ص ٣٧٥ .

وهؤلاء الرجال من طئ من أمثال ( أوس بن سعدى ، وحاتم الطائي وزيد الخيل أو ( زيد الخير ) كما سماه الرسول " صلى الله عليه وسلم " والأثريين وإياس بن قبيصة وعارق .

يقول الدكتور / حسين محمد نقشة : ( هذا الفخر بطئ لا يصدر إلا من طائي كما اعتقد )<sup>(١)</sup> وكيف لا وهو الذي ارتضع لبان الجود وتربى في بنى طئ ، فأخذ منهم صفاتهم ، وله في ذلك القدوة والمثل من إياس وحاتم .... إلخ وهؤلاء الرجال بمنزلة النجوم المطالع والجمال الشاهقة والغيوث الهاطلة – والسيول الجارفة فلكثرة ما احتضنوا المكرمات وتواصوا بها ؛ صارت لهم عادة وخلقا ، وصارت لمن بعدهم شرعة ومنهاجا ، فأصبح كل جواد في الأرض مسبوqa بهم ، وما جوده إلا مشتق من جودهم ، وأخيراً يصرح أن ما تقدم من فخر إياس هو لطي فيذكر ذلك سراحة في قوله :

إذا طئ لم تطو منشور بأسها      فأنف الذي يهدى لها السخط جادع<sup>(٢)</sup>  
وقال يفخر بقومه عند انصرافه من مصر بقصيدة بدأها بقوله :  
تصدت وحيل البين مستحصد شزر      وقد سهل التوديع ما وعز الهجر<sup>(٣)</sup>  
فقال :  
وهل خاب من جنماه في ضنء طئ      عدى العدين القلمس أو عمرو<sup>(٤)</sup> ؟  
لنا غرر زبدية أدبية      إذا نجمت ذلت لها الأنجم الزهر  
لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت      وبطنائها منه وظهراتها تبر

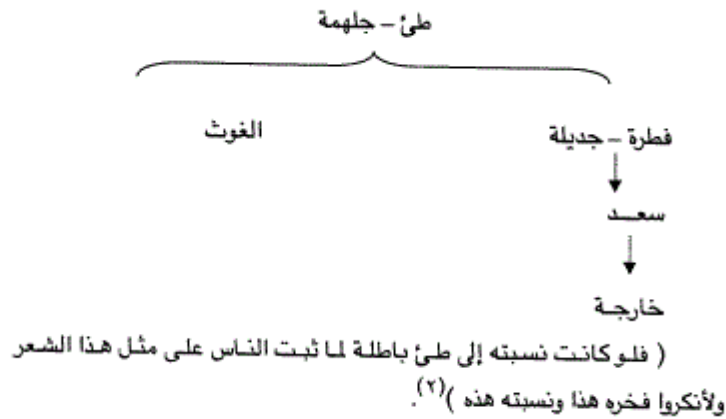
١ - حماسة أبي تمام وشروحا - حسين نقشة ص ٦٢ ط الهيئة العامة للكتاب .

٢ - شرح الديوان ج ٤ ص ٥٨٨ .

٣ - تصدت : تعرضت . مستحصد : أي محكم القتل ، الشزر : الشديد القتل والمعني : سهل بالالتقاء للوداع ما كان توعد . شرح الديوان ج ٤ ص ٥٦٧ .

٤ - جنماه : مثني جنم وهو الأصل - وعدى العدين - أي هذا الرجل الذي يقال له "عدي" رئيس لكل من سمي بهذا الاسم ، وهو (عدي بن نصر بن ربيعة) ولد الملوك المناذرة ملوك الحيرة ، وعمرو هو عمرو بن العوث الطائي أول ملوك الحيرة من المناذرة ، والقلمس : الكثير العطاء / شرح الديوان ج ٤ ص ٥٧٢ بتصرف .

جديلة والغوث اللذين إليهما صغت أنن للمجد ليس بها وقر  
مقاماتنا وقف على الحلم والحجى فأمردنا كهل واشيينا حبر  
فمن افتخاره بطائيته ، واعتزازه بها جعل ( جذماه ) أى أباه وأمه كليهما  
من قبيلة طئ ورمز بـ ( أدد ) إلى القبائل اليمنية جميعا ويعلن أن هذا الأصل وهذا  
الجوهر لو مزج بالناس كلهم لاستحالوا أشرافا عظماء ، ولو كان بنو طئ عنصراً  
طبيعياً ثم مزج هذا العنصر بمادة الأرض لأصبحت الأرض كلها تير وأشار بـ  
( جديلة ) إلى ( جديلة بنت سبيع ) وهى امرأة من حمير، ولم تلد أحداً من بطون  
الغوث فلذلك أفردوا منها ، وإنما ولدها المنسويون إلى خارجة بن سعد بن فطرة  
بن طئ<sup>(١)</sup>.



١ - شرح الديوان ج ٤ ص ٥٧٢ .  
٢ - أعلام الشعراء العباسيين - سلمان هادي الطعمة ص ٦٢ ط بيروت .

وانبرى أبو تمام يأتى بالحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة على عرويته  
وطائيته ، وأزاد على ذلك فجعل الطائي مفضلاً على كل بنى حواء وجعل العرب  
منزهة تجل عما يلحق غيرها من البشر ، فالكرم صفة من أسمى صفاتهم ، ومثلهم  
الأعلى ( حاتم الطائي ) أجود العرب الذى صار كرمه وجوده مثلاً يضرب . يقول :  
لينجح بجود من أراد فإنه عوان لهذا الناس وهو لنا بكر  
جرى حاتم فى حلبة منه لو جرى بها باذلاً فأنظر لمن بقى الزخر !  
فمن شاء فليفخر بما شاء من ندى فليس لحى غيرنا ذلك الفخر<sup>(١)</sup>  
فالطائية والعروية نسب جعل أبا تمام يستعلى ويثبه على من سواه وهذا ما

حداه أن يقول منتخراً على رجل من تميم :

جمعت جمع العرب الأشدا

جمعا يلد الظالم الأشدا

يهد أركان الجبال هدا

كان تميم لأبينا عبدا

أسود نضاج المقد جعدا<sup>(٢)</sup>

ونحن كنا للنبي جندا

يوم براخات وردن وردا<sup>(٣)</sup>

وعد لى بدرا وعد أحدا

وطئ قد البستنى بردا

١- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٧٥ .  
٢- المقد : القاع والتضيق : ما بقي عليه من أثر الطين أو الدم ، وجعد : أي قصير .  
٣- يوم براخة يوم كانت المسلمين به وقعة في خلافة أبي بكر الصديق .

حتى فخرت فهزمت العباد<sup>(١)</sup>

وظنى أنه بعد سماع هذا الفخر من أبى تمام لا يرتاب ، ولا يشك شك  
فى عرويته الخالصة التى لا تشوبها شبهة ، فقد قال هذا الشعر فى عهد بنى  
العباس ، وفى وقت كان الشعراء لا يتخرجون من إظهار الشعوبية<sup>(٢)</sup> مثلاً أو  
الزندقة ، فلو قال ذلك فى عهد بنى أمية مثلاً : لقلنا كان قوله تقية من أن يوقع  
به أحد الخلفاء عقاباً ، أو يمنعه من قربى إلى خليفة أو يحتوشه من حظوة لدى  
وزير ، أو على الأقل يحول بينه وبين مهنة يمتهنها .

على هذه الوتيرة وهذا النحو سار فخر أبى تمام فتارة يفخر بطى وأخرى  
باليمن وثالثة بهما من مثل قوله :

هل اجتمعت عليا معد ومذحج	بملتحم إلا ومنا أميرها ! <sup>(٣)</sup>
بل اليمن استعلت لدى كل موطن	وصار لطى تاجها وسريرها
محرمة أكفال خيلى فى السوغى	ومكلمة لبائتها ونحورها
حرام على أرماحنا طعن مدبر	وتدق بأسا فى الصدور صدورها <sup>(٤)</sup>

ووسط هذا كله من المديح والفخر لطى وبها وللعروبة والإسلام وبه ، لم نجد  
له سقطة لسان واحدة تقول بغير عرويته وإسلامه ومن المعروف أن صدق اللسان  
دليل صدق القلب وأيضاً فلم تمدح طى ولم يفتخر بها ولا باليمن كلها بمثل شعر  
أبى تمام فيهما ولا استشعر أحد من أبنائهما مفاخر قومه على نحو ما استشعرها  
أبو تمام ، فلو أن مؤرخيه لم ينصوا على يمنيته وطائيته ، لكان فى هذه الأشعار ،

١- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٦٦ .  
٢- الشعوبية: نزعة ظهرت فى العصر العباسي تقضي بتفضيل غير العرب على العرب .  
٣- معد ومذحج أسماء قبائل يمنية .  
٤- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٧٩ .

وما يماثلها مما يصدر فيها أبو تمام صدورا طبيعياً عن دخائل وأعماق نفسه وقلبه  
الدليل الحى على أرومته العربية الأصيلة . وعلى أية حال فقد كان الشعراء قبل  
أبى تمام السنة قبائلهم يسجلون مفاخرها ويذيعون على الدنيا مآثرها أما هو فبدأ  
مثلهم بهذه الصورة الضعيفة وهى مدح القبيلة ثم أخذت العروبة تتسع فى نفسه  
وتتعمق حتى شملت جميع القبائل اليمنية والعُدنانية ويصور ذلك فى بعض  
أشعاره فيقول :

بزهر والحذاق وآل برد      ورت فى كل صالحة زنادى<sup>(١)</sup>  
وإن يك من بنى أدد جناحى      فإن أثيث ريشى من إياد  
غدوت بهم أمد ذوى ظلا      وأكثر من ورائى ماء واد  
وواضح بأنه يجاهر بأن اليمن التى رمز إليها بـ ( أدد ) إن كانت هى التى  
أنبتت جناحه فإن عدنان التى رمز لها ( بإياد ) هى التى أنبتت الريش فى جناحه  
ووهبته القوة على النهوض والطيران وبهما غدا أفضل معاصريه ولاحقه ، وتحس  
وأنت تسمع هذا الفخر من أبى تمام وكأنه أراد أن يملأ به الدنيا جلجلة وضجيجا  
على شاكلة قوله :

سافر بطرفك فى أقصى مكارمنا      إن لم يكن لك فى تأسيصها سفر  
هل أورك المجد إلا فى بنى أدد      أو اجتتى منه لولا طيئ ثمر  
لولا أحاديث بقتها مآثرنا      من اللدى والردى لم يعجب السمر<sup>(١)</sup>

١ - الأبيات من قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز الطائي ، وقد ذكرت الأبيات في باب المديح ، إلا أنني  
أثرت ذكرها في باب الفخر ثانية لما فيها من نغمة الفخر القوية.

#### المبحث الرابع مظاهر أخرى للعروبة في شعر أبي تمام ظاهرة عامة لشعر العروبة عند أبي تمام

استعماله لغة طيئ، -

لقد أكثر أبو تمام من استخدامه لغة<sup>(١)</sup> طيئ في شعره بشكل عفوى وذلك ملحظ جدير بالاهتمام من شأنه أن يوثق عرى طائفته وعرويته التي تملأ عليه لهجتها دون اعتمال وتكلف ومن أمثلة ذلك قوله :

أغرت همومي فاستلبن فضولها نومي ونمن على فضول وسادي<sup>(٢)</sup>

فقال ( فاستلبن ) وفي رواية أخرى للبيت ( فاصطحبن ) وفي كلتا الروايتين يأتي بنون الجمع في الفعل وهي اللغة التي يعبر عنها النحاة بلغة ( بنى الحارث بن كعب ) اولغة ( اكلوني البراغيث )<sup>(٣)</sup> ويعبر عنها ( ابن مالك )<sup>(٤)</sup> في كتبه بلغة ( يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ..... الحديث ) .

يقول المرزوقي : ( وقوله : فضولها ، ارتفعت ( باصطحين ) والنون منه لم تجئ للضمير وإنما هي علامة تؤذن بالجمع كالتاء في ( قامت هند )<sup>(٥)</sup> وهو كثير الاستعمال لهذه النون من مثل قوله :

شجا في الحشا ترداده ليس يفتر به صمن آمالي وإني لمفطر

١ - أعني باللغة هنا اللهجة السائدة في القبيلة.

٢ ( البيت من قصيدة يمدح أبا المغيرة موسى بن ابراهيم الوراق ) / شرح الديوان ج ٢ ص ١٢٨ .

٣ - وهذه اللغة تجيز إلحاق علامة التنبيه أو الجمع إذا أسند الفعل لاسم ظاهر مثني أو جمع مثل - قاما الزيدان - أقبلا الزيدون - قمن الهندات . وهي لغة طيئ وأزد شنوءه .

٤ - هو الإمام الحجة الثابت / أبو عبد الله محمد جمال الدين بن مالك صاحب الإلفية المعروفة .

٥ - شرح الديوان ج ٢ ص ١٢٨ .



يقتل التبريزي عن أبي العلاء في الكلام عن هذا البيت قوله :  
( يبين في كلام الطائي أنه كان يختار إظهار علامة الجمع في الفعل ، مثل  
قوله ( صمن آمالي ) ولو قال ( صام آمالي ) لاستقام الوزن <sup>(١)</sup> وقد جاء بمثل ذلك  
في غير هذا الموضع <sup>(٢)</sup> ومثل ما تقدم قوله :

ولكيس بمجد عاد فيه نواله وشاعر قوم عدن فيه قصائده <sup>(٣)</sup>  
قال ( عدن قصائده ، وأتى بالنون في الفعل ) .

يقول الدكتور / نجيب الهبيتي في معرض استعمال أبي تمام للغة طيئ ( وفي  
مقابل هذا يحذف علامة التانيث التي تلحق الماضي ، حين يكون فاعله جمعا لغير  
العاقل ، واستشهد بقول الشاعر :

كم أنجبوا قمرا جلا أفعاله قمرا ، ومكرمة تناعى الفرقدا  
قال - ولو قال : ( جلت أفعاله لاستقام الوزن ) <sup>(٤)</sup> ولكن صحة البيت في  
الديوان هكذا :

كم أنجمو قمرا حمى بفعاله قمرا ومكرمة تناعى الفرقدا <sup>(٥)</sup>  
وعلى ذلك لا يكون في البيت حذف ، ولا يقوم شاهدا على استعمال الشاعر  
للغة طيئ .

• ومن استعمال الشاعر للغة طيئ أيضاً : استعماله ( ذو ) اسماً موصولاً ، وهي ما  
يسمونها النحاة بـ ( ذو ) الطائية يقول :

أنا ذو عرفت فإن عرتك جهالة فأنا المقسيم قيامة العذال <sup>(٦)</sup>

١ - معني استقامة الوزن هنا : ليس الوزن العروضي وإنما المعنى أنه لم تلجئه الضرورة الشعرية لذلك .  
٢ - شرح الديوان ج ٢ ص ٢١٤ . والبيت من قصيدة له في جعفر الخياط .  
٣ - السابق ج ٤ ص ٦٣٤ . والبيت من قصيدة يمدح بها آل عبد العزيز الطائي بقروين .  
٤ - أبو تمام الطائي ص ٧٥ .  
٥ - شرح الديوان ج ٢ ص ١٠٣ . والبيت من قصيدة في مدح أحمد بن عبد الكريم الطائي .  
٦ - السابق ج ٣ ص ٧٦ . والبيت من قصيدة في مدح الحسن بن الرجاء .

- ومن أمثال العرب التي جاءت على هذه اللغة قولهم ( أنى عليه ذو أنى على الناس ) أى الذى أتى عليهم :
- قال أبو منصور : وهى لغة طيئ وذو بمعنى الذى <sup>(١)</sup>.
- ويقول قوم من طيئ ( دفن البناه من المكرماه ) موضع قول غيرهم ( دفن البنات من المكرمات ) فيقول أبو تمام :
- إحدى بنى بكر بن عبد مناه بين الكثيب الفرد فالأمواه  
ألقي النصف فأنت خاذلة المها أمنية الخالي ولهو اللاهى <sup>(٢)</sup>
- فقول أبى تمام ( عبد مناه ) على أنه أجراه في الوصل مجراه في الوقف فجعله هاء ثم حركه كما حرك في قوله :

يا مـر حـبـاه بحـمار عـفـرا

وكان أبا تمام أراد أن يهتدى لمثل هذه الاشياء التي تقل وتعز ، وفى شعره من لغة طيئ أيضا قوله :

وبقيت لولا أننى فى طيئ علم لقال الناس أنست جرير  
يا عبرة الله التى من طرزها نشأوا فكانا القرد والخنزير  
يقول التبريزى شارحه في تعليقه على البيت الأخير : ( قوله نشأوا قدم الضمير فى الفعل المتقدم كما قال الآخر ) .  
ألفيتا عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذا واقيه

١ - شرح ابن عقيل ج ١ ص ٤٨ دار التراث - ويعني بابي منصور أي الثعالبى.  
٢ - شرح النيران ج ٣ ص ٢٤٣ . والأبيات من قصيدة مدح في يحيى بن عبد الله.

وهذا أوجه من أن يثنى ( نشأ ) أو يوحد ( كان )<sup>(١)</sup> لأن ذلك يؤدي إلى تعسف في اللفظ ، وبعض النحويين لا يجيزه ، وعلامة التثنية في هذا البيت قد لحقت ( كان ) و ( نشأ ) جميعاً<sup>(٢)</sup> .

ولست أدري لماذا قال التبريزي ( علامة التثنية ) مع أن الذي لحق ( نشأ ) هي علامة الجمع لا التثنية وأظن أن الشيخ وقع في ذلك سهواً .

وقد أورد الدكتور / نجيب الهبيقي<sup>(٣)</sup> البيت الأخير في كتابه هكذا :

يا خليفة الله التي من طرزها نشأ فكان القرد والخنزير  
وعلق عليه بقوله : ( وما أشبه ( فكان ) بأن تكون زائدة في البيت فتصح العبارة : ( نشأ القرد والخنزير ) من لغة طيئ السالفة الذكر )<sup>(٤)</sup> .

ويبدو أن استعمال المثنى عند أبي تمام واضح جداً وبكثرة ونجد ذلك في قوله :

لولا قبولى نصح العزم مرتحلاً لراكضاني إليه الرجل والجمال<sup>(٥)</sup>  
وهذا البيت صريح في أنه من لغة طيئ ، ومع أن أبا تمام استعمل لغة قومه في كثير من أبيات شعره إلا أننا نجده في بعض الأبيات يخالف تلك اللغة ولا يتحراها ومن ذلك قوله :

هل أورك المجد إلا في بنى أدد أو اجتتى منه لولا طيئ ثمر

١ - في نسخة المدينة من شرح الصولي (كان) موحدة و (نشأ) مثناة ، والأبيات من قصيدة له في هجاء عيثل بن أهبعة بعد موته - الديوان ج ٤ ص ٣٦٠ .

٢ - شرح الديوان ج ٤ ص ٣٦٠ .

٣ - أبو تمام ص ٧٧ .

٤ - يعني بها لغة أكلوني البراغيث ، ونري أن البيت أوردته الدكتور الهبيقي كما في نسخة المدينة (نشأ) مثناة وكان موحدة وعلي تلك الرواية يكون كلام التبريزي / صحيح بالنسبة ل (نشأ) أما علي ما أوردته التبريزي في شرحه في غير نسخة المدينة يكون كلامه غير صحيح لأن نشأ لحقتها علامة الجمع .

٥ - شرح الديوان ج ٣ ص ١٠ . والبيت من قصيدة في مدح المعتصم .

يتقل التبريدى عن أبى العلاء المعرى في الكلام عن هذا البيت قوله :  
إذا كان آخر الفعل الماضى ياء وقبلها كسرة فطبيئاً تقلبها ألفاً فيقولون  
(اجتنى) في (اجتنى) و(اقتدى) في (اقتدى) ومن العرب من يسكن الياء هاءنا  
ولم يستعمل اللغة الطائية (١).  
ولعل أبا تمام أراد بذلك أن يثبت معرفته بلهجات القبائل ، أما لغة قومه  
فيستعملها متى شاء ويتركها متى أراد .

ظاهرة عامة لشعر العروبة عند أبى تمام

#### ● القص والتاريخ

كان أبو تمام مؤرخ عصره ومصوره يستخدم الحوادث أدوات تعينه  
في الوصول بدقة إلى ما يهدف ، خاصة إذا كان لها علاقة مباشرة بممدوحه أو بآله  
أو بقبيلته وقومه ، ولم يقتصر بذلك على قصيدة واحدة ، ولكنه يدخل باب التاريخ  
الواسع ويحول أحداثه شعراً حتى تبدو الحوادث عنده وهجا يمد به حياة جديدة ،  
ودفق شعري يفوح منه عطر الماضى وعبق الحاضر يقول الدكتور / نجيب البهبيقي  
( وأغرب ما في هذا الرجل هو استغلال الواقع في شعره استغلالاً يبعث في النفس  
الدهشة ويساعد المحقق التاريخي أنشئ مساعدة ) (٢).

وكيف لا ؟ وهو الذى نأخذ من الأحداث العارمة غذاء لشاعريته ومداداً يستمد  
منه موضوعات شعره ، وظلت هذه الأحداث يتردد أثرها في شعره فهو إذا مدح  
الخليفة المأمون ذكر ما كان من شأنه مع عظيم الروم ( تيوفيل ) وجنوده وكيف أنه  
ردهم مهزومين منكسى الرؤوس ممزقى الثياب تلعنهم وجوه الأرض يقول :  
لما رأيتهم تساق ملوكهم حرقاً إليك كأنهم أنعام

١ - شرح الديوان ج ٢ ص ١٩٠ .  
٢ - أبو تمام الطائي . ص ١٤٢ .

جرحى إلى جرحى كأن جلودهم يطلى بها الشبان والعلام<sup>(١)</sup>  
متساقطى ورق الثياب كأنهم دأوا فأحدث فيهم الإحرام  
أكرمت سيفك غربه وذبابه عنهم وحق لسيفك الإكرام  
فرددت حد الموت وهو مركب فى حده فارتد وهو زولم<sup>(٢)</sup>  
أيقظت هاجعهم وهل يغنيهم سهر النواظر والعقول نيام ؟  
جذبتك منهم ألسن لجاجة أقررن أنك فى القلوب إمام  
اسلم أمير المؤمنين لأمة نتجت رجاءك والرجاء عقام<sup>(٣)</sup>

وهذه الوقائع وغيرها قد أعطت شعر أبى تمام لوناً جديداً ، ذلك أن شعره قبلها كان لا يكثر فيه وصف الحرب أما بعد هذه الوقائع فقد كثر كثرة جعلته من مميزات شعره .

وفى مدحه خالد بن يزيد الشيباني يحاول أبو تمام أن يجلو نسبه في أجمل إهاب ويكسوه من المجد أغلى ثياب إذ يذكره بأيام آبائه وأجداده الذين انتصروا على الفرس في موقعه ( ذى قار ) فيقول :

لهم يوم ( ذى قار ) مضى وهو مفرد وحيد من الأشباه ليس له صاحب<sup>(٤)</sup>  
به علمت صهيب الأعاجم أنه به أعربت عن ذات أنفسها للعرب  
هو المشهد الفصل الذى ما نجا به لكسرى بن كسرى لا منان ولا صلب<sup>(٥)</sup>

وفي قصيدة أخرى فى مدح خالد أيضاً يصف ممدوحه بأجداده وبآبيه الكريم وأنه ورث مجد آبائه وأجداده الذين حفظوا الدين ، وحفظه بعدهم وبذل من أجله

١ - الشبان : دم الأخوين - والعلام : الحناء . والمعنى تطلى جلودهم بالدم أو الحناء ولكنه قلب المعنى.

٢ - زولم : موت سريع ولا يوصف بهذه الصفة إلا الموت.

٣ - شرح الديوان ج ٣ ص ١٥٧ .

٤ - ذى قار : معركة خاضتها تميم وانتصرت فيها على الفرس.

٥ - شرح الديوان ج ١ ص ١٨٨ .

نفسه وكذلك أعطى المال للمحتاجين وبهذا يكون الممدوح قد جمع السماح  
والسماحة والقوة والندى والفداء لأنه حارب أعداء الإسلام والمشركين فيقول :  
مطر أبوك أبو أهلة وائل      ملأ البسيطة عدة وعديداً  
أكفاه تلد الرجال وإنما      ولد الحثوف أسودا وأسوداً<sup>(١)</sup>  
ومنها :

ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا      جمعوا جدودا في العلى وجدوداً<sup>(٢)</sup>  
وفي حروب المسلمين مع (بابك) وأتباعه الخرمية أو (تيوفيل) عظيم الروم  
وجد أبا تمام وقد ذكر ما رآه بعينه وما سمعه بأذنيه فجعل من فنه الشعري سجلا  
للواقع التاريخي من غير خروج عليه أو تزيف فيه فلا تكاد تبحث عن حادثة من  
الحوادث التي وقعت في أيامه نقلا عن التاريخ إلا وجدت في قصائده :

قال يمدح المعتصم ويذكر فتح الخرمية :  
آلت أمور الشرك شر مأل      وأقر بعد تخمط وصيال  
غضب الخليفة للخلافة غضبة      رخصت لها المهجات وهي غوالي  
لما انتضى جهل السيوف لبابك      أغمدن عنه جهالة الجهال  
فلأذربيجان اختيال بعد ما      كانت معرس عبدة ونكال<sup>(٣)</sup>

يقول الدكتور : الهبيتي ( والقصيدة مثل من أسمى ما بلغ إليه فن القصص  
الشعري في العربية ، فهو يذكر فيها قصة ثورة بابك من يوم اتصل بها وهزائمه ،  
وصراعه في أريش ، وموقان وما كان بالبذ ومحاولته الهرب وكيف أوقعه أجله  
الداني وهو لا ينسى صغيرة ولا كبيرة ولا يكذب ولا يغلو وأن الإنسان ليجده يسير

١- الأسود: جمع أسود وهو العظيم من الحيات . والحثوف : جمع حثف وهو الموت.  
٢- الجدود الأولى جمع جد وهو أب الأب ، والجدود الثانية جمع جد وهو الحظ . شرح الديوان ج ١  
ص ٤١٥ .  
٣- شرح الديوان ج ٣ ص ١٣٢ .

فى حدود ما ذكره التاريخ ولكنه يغمر الأحداث بفيض حسه ، ويفهمه لخفايا النفس ويعمل خياله فى الإبراز للوقائع ولكنه لا يغير حقيقتها (١).

ولعل أروع نموذج فى شعر أبى تمام يمثل هذا النوع من القص أو التاريخ هو قصيدة ( عمورية ) فقد تجلت فيها مقدرته الشعرية فى الرسم بالكلمات تعبيراً عن كل ما ترمقه العين أو تسمعه الأذن وهى قدرة فائقة فى الوصف قل أن نجد نظيرها حتى ليخيل للمتلقى أن هذه الحروب - بغبارها وبخانها وقعقة أسلحتها ولون الدماء على الأرض - تحدث أمامه ويرأى المشاهد المعاین يقول :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت      منك المنى حفلا معسولة الحلب (٢)  
أبقيت جد بنى الإسلام فى سعد      والمشركون ودار الشرك فى صيب (٣)  
أم لهم لو رجوا أن تقتدى جعلوا      فداءها كل أم برة وأب

فى هذا اليوم أدرك بنو الإسلام غاية العلا وصار خصومهم فى الدرك الأسفل من البشر ، وهذه القلعة الحصينة هى من القلاع العزيزة على قلوب الروم يقدونها - لو استطاعوا - بالآباء والأمهات لقد وقفت فى وجه الأكاسرة وعجز الأسكندر عن تذليلها وارتدت صروف الدهر عنها خائبة منحدرة ، فلما انتوى الخليفة فتحها خلعت عليه حجابها وكأنما امتنعت على من قبله حتى لا تفتح إلا له فكأنما جمع الله الأمجاد والعظائم ومخضها ليكون هذا الفتح هو فتح الفتوح يقول أبو تمام :

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها      كسرى وصنت صنادا عن أبى كرب (٤)  
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد      ثابت نواصى اللبالي وهى لم تنسب

١ - أبو تمام الطائي ص ١٣٨ .  
٢ - الحفل: جمع حافل ؛ وهى الناقة التى حفل ضرعها باللين . الحلب : ما يحلب منه . معسولة : يخالطها العسل .  
٣ - الجد: الحظ . الصيب: الانحدار .  
٤ - البرزة: الحسنه الوجه الجميلة . كسرى ملك فارس . أبو كرب : ملك يمني .

بكر فما افترعتها كف حادثة ولا ترقى إليها همّة النوب  
حتى إذا مخض الله السنين لها مخض البخيلة كانت زبدة الحقب  
والخليفة إنسان متدين مؤمن بالإسلام دين الله وهو منتقم له ما ينسب  
أن يسمع صوت امرأة تصيح (وامعتصماه) حتى يجيش الجيوش لنصرها يقول  
أبو تمام :

ليبت صوتاً زبطرياً هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب<sup>(١)</sup>  
عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب  
أجبتة معلناً بالسيف منصلناً ولو أجبت بغير السيف لم تجب  
حتى تركت عمود الشرك منعفراً ولم تعرج على الأوتاد والطنب<sup>(٢)</sup>  
ويقول مشيراً إلى عدد من كان بعمورية من الرجال وما كان من قولهم  
( إن مدينتهم لا تفتح قبل نضج التين والعنب فجعل تسعين ألفاً من محاربي  
الأعداء تنضج جلودهم قبل نضج التين والعنب .

تسعون ألفاً كأساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب  
ويقول :

والحرب قاسمة في مآزق لجج تجثوا القيام به صغراً على الركب  
كم نيل تحت سناها من سنا قمر وتحت عارضها من عارض شنب  
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها إلى المخدرة العنقاء من سبب<sup>(٣)</sup>

وهذه المقارنة بين القصيدة والتاريخ ثرى مبلغ ما كان أبو تمام يعتمد  
على الواقع في نظم شعره وأن فنه كان في صياغة هذا الواقع صياغة شعرية  
فهو في فنه أشبه بالقاص الذي يصف ما رأى وما سمع<sup>(٤)</sup> .

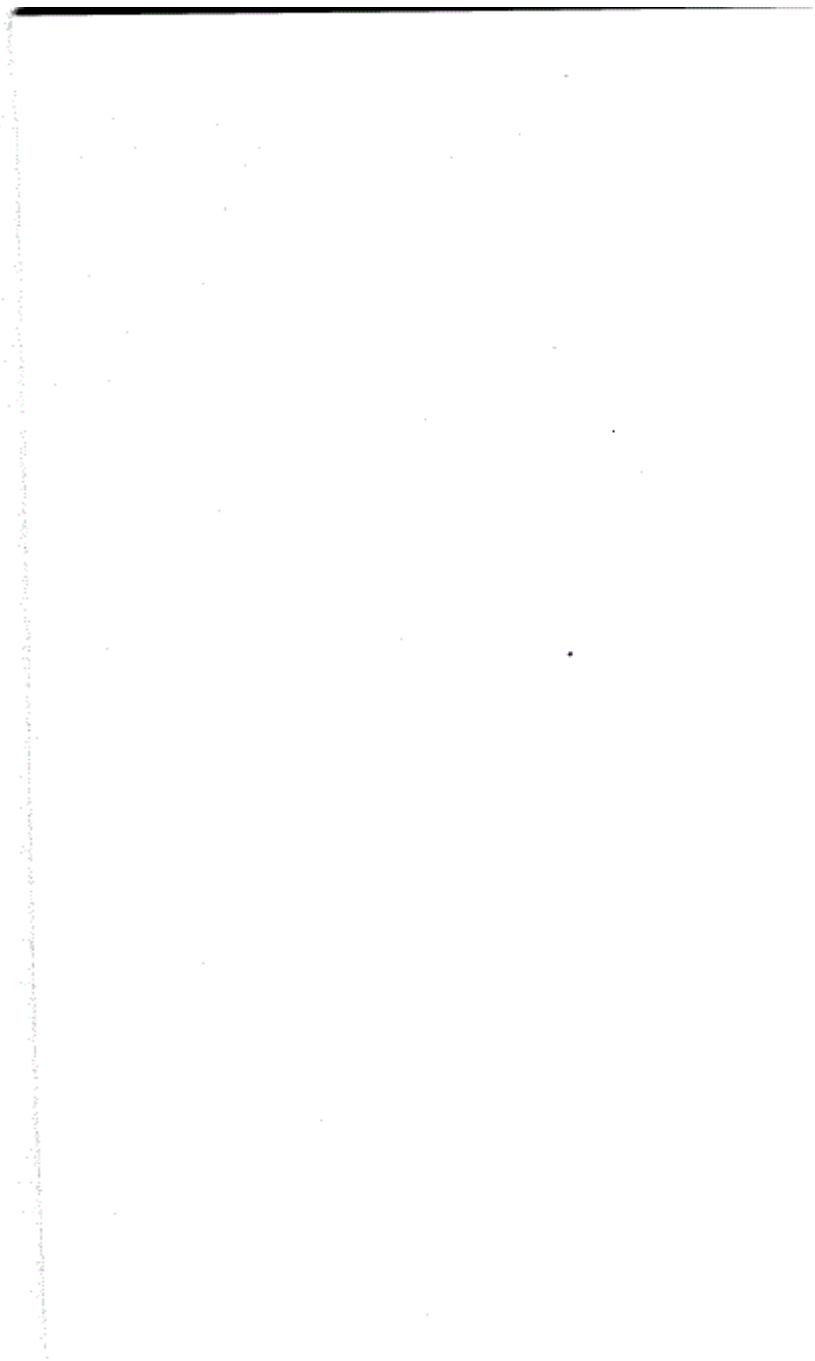
١ - الخرد : الحبيات والعرب جمع عرب وهي المتحبة إلى زوجها.

٢ - المنعفر : الملتصق بالتراب وهو العفر.

٣ - شرح الديوان ج ١ ص ٧١ .

٤ - أبو تمام الطائي ص ١٤٣ . البهيتي.





## الفصل الثالث

الدراسة الفنية لشعر العروبة عند أبي تمام

- ❖ ويشتمل على ثلاثة مباحث .
- ❖ **المبحث الأول :** الصورة الأدبية .
- ❖ الأساليب – الألفاظ والمعاني – بناء القصيدة .
- ❖ **المبحث الثاني :** العاطفة والخيال .
- ❖ **المبحث الثالث :** الموسيقى .



## المبحث الأول الصورة الأدبية ( الألفاظ والأساليب )

### ● الصورة الأدبية، -

في مقدمة سريعة نبين المقصود بالصورة الأدبية وإن كان تحديد مفهومها في سطور أو فقرات من الصعوبة بمكان ، لأن ذلك قد يقلل من شأن المقصود بقولنا ( الصورة الأدبية ) ويحد من رحابة مفهومها ، إذ أن مصطلح ( الصورة الأدبية ) لا يخضع لإيجاز المناطقة ولا لتركيز العلماء والرياضيين وحسبنا أن نعلم أن مصطلح ( الصورة الأدبية ) تردّد في أقوال وكتب المتقدمين فضلاً عن المتأخرين .  
ولسنا الآن بصدد التأريخ لهذا المصطلح ولا بصدد تتبع معناه خلال العصور المتعاقبة ؛ وإنما بصدد الكشف عن معناه القريب وبيان مظهر الجمال فيه وتوضيح مغزاه وأثره .

( فكلما الصورة تستعمل - عادة - للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسى ، وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعارى للكلمات )<sup>(١)</sup> .

يقول الزيات : ( والمراد بالصورة : إبراز المعنى العقلى أو الحسى في صورة محسنة ، والصورة عنده خلق المعانى والأفكار المجردة أو الواقع الخارجى من خلال النفس خلقاً جديداً لتبرز إلى الوجود مستقلة عن حيز لتجريد المطلق ، وتتخذ لها هيئة وشكلاً يأتى على شط خاص وتركيب معين بحيث تجرى فيها - على هذا النسق - الحياة والروح والقوة والحرارة والضوء والظلال والبروز والأثر وبذلك يتلقى السمع من الصورة أصوات الفكرة وترى العين ألوانها وترقب حركاتها وتحس

١ - الصورة الأدبية د/ مصطفى ناصف ص ٣ دار مصر للطباعة .

الخنفس نسيما وانطلاقها وتستروح الأناف رائحتها وتستعذب الأذواق  
طعومها<sup>(١)</sup>.

ويرى أحمد الشايب : أن الصورة لها معنيان حسب نوعية الجنس الأدبي :  
أحدهما : هي منهج الكتاب - أو خطته العامة من حيث المقدمة والفصول والخاتمة  
وتناسقها معاً وبراءتها من الشذوذ والاضطراب وذلك يكون في الشعر  
التمثيلي وما يشبهه من النثر الفني كالقصة والأقصوصة والرواية  
والمسرحية النثرية وهي بهذا المعنى لا دخل لها فيما نحن بصدده. <sup>(٢)</sup>  
ثانيهما : اللغة والخيال ، وتقابل المادة وهي الفكرة والعاطفة <sup>(٣)</sup>.

فالصورة هي المادة التي تتركب من اللغة بدلالاتها اللغوية والموسيقية  
من الخيال الذي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن  
التعليل<sup>(٤)</sup> ثم يزيد الشايب قائلا : ( فمن البديهي أن مقياس الصورة الأدبية هو  
قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة ، والصورة هي العبارة الخارجية  
وهذا هو مقياسها الأصيل ، وكل ما نصفها به من جمال إنما مرجعه إلى التناسب  
بينهما وبين ما تصور من عقل الكاتب ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة  
والتعقيد فيه روح الأديب وقلبه كأننا نحادثه ، ونسمعه كأننا نعامله )<sup>(٥)</sup>.

وأما المازني : فيرى أن الصورة الأدبية غير فن التصوير والرسم ، فهي غنية  
بالحركة والحيوية وتعاقب الزمن وقتاً بعد وقت حتى يأتي الشاعر على الحركة  
المقصودة من الصورة بينما فن الرسم جامد ليس له إلا لحظة واحدة من الزمن

١ - دفاع عن البلاغة : ص ٦٣ الطبعة الثانية ، الناشر عالم الكتب القاهرة.

٢ - أصول النقد الأدبي / أحمد الشايب ص ٢٥١ .

٣ - السابق ص ٢٤٢ .

٤ - السابق ص ٢٤٨ وما بعدها.

٥ - السابق ص ٢٥٠ .

وهي تلك اللقطة التي يختارها الرسام من الزمن ليودعها فنه وريشته ، كما أن الصورة الأدبية تنفرد أيضاً بخاصية لا توجد في فن التصوير وهي أن الشاعر ينقل للقارئ المنظر المراد تصويره من خلال مشاعره وخواطره ويلونها من داخل نفسه فتؤدى عند القارئ إلى إثارة مثل هذه الأحاسيس والمعاني والآمال والخوارج يقول : ( إننا يسع الشاعر أن يقضى إليك بوقع هذا المنظر وبما يثيره في النفس من الإحساسات والمعاني والذكر والآمال والآلام والمخاوف والخوارج على العموم بأوسع معاني هذا اللفظ وعلى العكس من ذلك يسع الشاعر أن يصف لك الحركات المتعاقبة في الزمن وأن يحضرها إلى ذهنك ويمثلها لحاظك ذلك ما لا سبيل إليه في التصوير )<sup>(١)</sup>.

وأما العقاد : فيرى أن الصورة الأدبية عند الشاعر تتجلى في ( قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال ، أو هي قدرته على التصوير المطبوع لأن هذا في الحقيقة هو فن التصوير كما لا يتاح لأنبغ نوابغ المصورين )<sup>(٢)</sup>.

وبعد هذه المقدمة تلفت النظر إلى أبي تمام في الغاظة وأساليبه .

#### أسلوب أبي تمام

الأسلوب : هو المظهر المادي لإنتاج الأديب والصلة بينه وبين المخاطبين أو هو طريقة المتكلم الخاصة في نقل أفكاره إلى الناس وصوغها في جمل وعبارات روعى فيها تحقيق ما يذبح في صياغة الصور والخيالات الجزئية كما روعى فيها تنظيم أجزاء الموضوع وحسن تنسيقها .<sup>(٣)</sup>

١ - حصان الهشيم : المازني ص ١١٨ .

٢ - ابن الرومي - حياته من شعره - العقاد ص ٢٠٧ .

٣ - النقد الأدبي عند العرب : د/ محمد طاهر درويش . ص ٢٣٧ . طدار المعارف .

ويقول الدكتور / محمد الصادق عفيفي عن الأسلوب ( هو القلب الذي تفرغ فيه الفكرة والصورة أو المنوال الذي تنسج فيه التراكيب الوافية بصورها الصحيحة وأفكارها المقصودة الواضحة )<sup>(١)</sup>.

وقال الزيات : ( الأسلوب هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، وهذه الطريقة فضلاً عن اختلافها في الكتاب والشعراء تختلف في الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذي يعالجه والموضوع الذي يكتبه والشخص الذي يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه )<sup>(٢)</sup>.

ومثل هذا ذهب إليه الدكتور مندور في قوله : ( ليس المقصود بالأسلوب طرق الأداء اللغوية فحسب بل المقصود منحى الكاتب العام وطريقته في التأليف والتعبير والتفكير والإحساس على السواء بحيث إذا قلنا إن لكل كاتب أسلوبه يكون معنى الأسلوب كل هذه العناصر التي ذكرناها )<sup>(٣)</sup>.

من هذا نرى أن الأساليب لم تخرج كثيراً عما قاله الإمام عبد القاهر الجرجاني في كلمته الموجزة من ( أن الأسلوب هو المذهب من النظم والطريقة فيه )<sup>(٤)</sup>.

وللأسلوب خصائص يجب توافرها فيه منها : الصحة ، والوضوح ، والدقة أما صحته فهي أساس جودة الكلام وتستلزم هذه الصحة أموراً منها : صحة استعمال الكلمات التي تربط الكلام ببعضه بعض ، وكذلك تسمية الأشياء بأسمائها ثم لا بد من مراعاة قواعد اللغة في الألفاظ مؤنثها ومذكرها مفردا ومثنىها وجمعها .

١ - النقد التطبيقي والموازات د/ محمد الصادق عفيفي ص ٢٠٠ للنشر مؤسسة الخاتمي / مصر.

٢ - دفاع عن البلاغة - الزيات ص ٥٦ .

٣ - في الأدب والنقد د/ محمد مندور . ص ٦ ط نهضة مصر .

٤ - دلائل الإعجاز . ص ٣٦٦ . مطبعة الشري - مصر .

وأما وضوحه فشرط جودة الأسلوب لأن الكلام الذى يعجز عن أداء معناه فى وضوح يفوت الغرض منه .

وأما دقته : فهى أن تتجنب فيه ما لا ميررله من ابتذال أو سمو<sup>(١)</sup> ولما كان أبو تمام رائدا من رواد التجديد فى الشعر العربى كان لا بد أن يكون له أسلوب خاص تميز به عن سواه وما ذلك إلا لأنه شاعر عبق من معين الثقافات السائدة فى عصره من فارسية ويونانية وهندية وقبلها جميعا العربية وهذا ما جعله سيد أرباب القول فى عصره ، إلى جانب ذلك فقد أخذ نفسه بحفظ أغلب دواوين الشعر القديم ومحاكاته ، ولا سيما شعر البوادرى فجاء شعره مليئا بالألفاظ الوعرة وما ذلك إلا لولعه بالاصطناع والتكلف من باب التجديد ، لذا نراه يصطدم بمن يتهمه بالضعف أحيانا أو بالعبث أحيانا أخرى وبخاصة من النقاد المحافظين الذين عابوا عليه غلبة الصناعة وتكلف البديع وإظهار نفسه فى كثير من قصائده بمظهر المكد الكادح .

ونستطيع الحكم على أسلوب أبى تمام إذا وضع فى كفة ميزان مقايلا لأحد شعراء عصره الذين لم ينالوا شهرته ؛ لنعلل بذلك السبب الذى نهض بأبى تمام وقعد بغيره .

لقد أتاحت الحياة لأبى تمام أسباب النبوغ وعوامل الإجابة وميادين السبق فلم يقصر فى غاية ولم يضعف فى غرض وقد أفاده تنقله فى جوانب الدولة ( حاضرة وبادية ) ومشافهته الأعراب وانتجاعه إلى الأمراء والخلفاء وطموحه إلى المجد الشئ الكثير فى أسلوب شعره ، وقوة ملكته ، ونضج قريحته ، واتساع أفقه ،

١ - النقد الأدبى الحديث د/ محمد غنيمى هلال من ١٢٢ ، ١٢٣ بتصرف - الطبعة الثالثة - ط مطابع الشعب.



فاستقام لسانه وقوى بيانه وخلق خياله وفاضت شاعريته واتجه اتجاه ( صريح الغواني )<sup>(١)</sup> في البديع والتعمق في التأنيق ومزج المجاز بالبديع فجاء شعره ظاهره براعة الألفاظ وباطنه خفيات المعاني ، ودل على ما عنده من أصالة الملكة الشعرية وتمكن المقدرة البيانية من لسانه وسلامة الأسلوب ، وسهولة قرض النظم للكلام ، فأصبح شعره خليقاً باسم السهل الممتنع .

أما سهولته فإن أول ما يطالعنا منه سرعة انسياق معاني الألفاظ إلى الذهن مع ترادفها على السمع .

وأما امتناعه فلما يردفه من أخيلة وصور يظن من يسمعها - للوهلة الأولى - أنها من أودية بعيدة ، وجهات نائية ، ولكن بعد التتبع لها سرعان ما نجدها مرتبطة مقرونة في خيط واحد . وللابتكار في الأسلوب أثره البالغ فهو يصدر عن موهبة وطول مران ، وخير الكلام ما فيه ابتكار يوصلنا إلى أفكار جديدة ، ولا بد أن يراعى في ذلك كله الشكل العام الذي يصاغ فيه ذلك الابتكار وتلك الأفكار ورعاية هذه الروابط ضرورية إذ لا يكفي أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال ، بل يجب أن يقول كما ينبغي ، ولا يخرج بذلك عن حدود المألوف ولذلك كان الأسلوب وطيد الصلة باللغة ( فاللغة في الشعر هي أول ظاهرة تحتاج إلى النظر )<sup>(٢)</sup> لأن لها شخصية كاملة تتأثر وتتأثر وهي تنقل الأثر من المبدع إلى المتلقي نقلاً أميناً .

وقد اعتز الأقدمون بالأسلوب اعتزازاً كبيراً وتبين لنا هذا من كلامهم في اللفظ والمعنى وما تداولوه حولهما من الآراء ومن وراء هذا الاعتزاز بالأسلوب بدا الاهتمام الشديد بالنظر فيه وتقويمه ونقده ، وقد تناول هذا النقد بالطبيعة

١ - هو الشاعر العباسي : مسلم بن الوليد اشتهر بحبه للنساء وولع بغزلهن حتى لقب بهذا اللقب .  
٢ - الأسس الجمالية في النقد العربي د / عز الدين إسماعيل ص ٣٤٨ ، ط دار الشؤون الثقافية العامة - العراق - بغداد .

الكلمات والألفاظ باعتبارها مفردات تتكون منها العبارات ولبنات يقوم بها البناء فوضعوا لتقويمها ونقدها مقاييس ومعايير.

● اللفظ عند أبي تمام

اللفظ هو اللبنة الأولى التي تبنى بها القصيدة وهو صورة صاحبه ، بل هو صورة العصر الذي أخذ منه يصور الحياة سواء أكانت خشنة بدوية أو رقيقة مترفة ( ولفظ أبي تمام مثل فنه ، نتاج عوامل منها الموهوب ومنها المكسوب )<sup>(١)</sup> فمن العوامل الموهوبة ( الموهبة والبدية )

فقد كان أبو تمام ذا قريحة وقادة أوتى حظا وافرا من الموهبة الفطرية والبدية الحاضرة حتى روى عنه أنه كان إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه وكأنه كان على علم بما يقول فأعد جوابه .

ومن العوامل المكسوبة

ثقافته : فقد كان أبو تمام ملتحقا بثقافات شتى سادات في عصره إذ كان عصره من أزهى عصور التأليف والترجمة وتعددت نواحي ثقافته ما بين تأثر بكتاب الله وتأثر بالتاريخ بكل قصصه وأساطيره وأيامه إلى جانب ذلك من الشعر والفقه والحديث والفلسفة .  
رحلاته وتنقلاته ،

فقد ( جاب أقطار العالم العربي طلبا للعلم أو المال والشهرة وقد أتاحت له هذه الرحلات فرصة الاتصال بالخلفاء والوزراء والولاة والقواد فضلا عن الشعراء والأدباء ، مدح من مدح وهجا من هجا ، ووصف المعارك الحربية وتغنى بالبطولة

(١) - أبو تمام / البيهقي من ٢٢٢ .

العربية ورثى القواد الذين سقطوا في الميادين ، ومن ثم كانت هذه الأشياء ميدانا تدريجيا حرك مشاعره فجال فيها وصال (١).

يقول له حسين : ( ومما لا شك فيه أن هذا السفر المتصل إذا صادف عقلا كعقل أبي تمام وقلبا كقلبه وشعورا رقيقا حاداً كشعوره ترك في هذا القلب وفي هذا العقل والشعور أشد الأثر وأحده وظهر هذا كله في شعره ) (٢).

وخلاصة القول أنه كان كما قال :

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا  
وكانت هذه أهم العوامل التي أثرت في شعر أبي تمام فطرية ومكتسبة ( ولقد تضافرت هذه العوامل على إنتاج فن مركب معقد حتى يستطيع أن يرضى كل مطالب هذه الحياة المعقدة في ذلك العصر الحافل وكما كانت القصيدة في مجملها والصورة في تفاصيلها أثر من آثار هذا التكوين كان اللفظ كذلك ، فهو عند أبي تمام المادة الأولى في بناء قصيدته وهو ممن يعتنون به وينصبون الوقت لتزيينه واختياره والنظر في محاسنه وبيدعه والتأنق فيه لأنه تصوير لحياة أنيقة مترفة ، وهولذلك مظهر من مظاهر تركيبه النفسي ) (٣).

\* ملحظ آخر جدير بالاهتمام وهو أن أبا تمام في أغلب ألفاظه كان شغوفا بالإنغراب ميالاً إليه ذا ولع باللفظ الغريب يل وبالتركيب المفتعل أحياناً ، ولقد حفل شعر العروبة عند أبي تمام بمثل تلك الألفاظ ونحن نعلم أن الاهتمام باللفظ يسميه الأمدى ( طريقة العرب ) كما يسمى المهتمين به ( أهل العلم بالشعر ) فلا شك في صدق ما أجراه الأمدى على لسان صاحب أبي تمام ( إنما

١ - معالم الشعر وأعلامه / محمد نبيه حجاب ، ص ٢٤٩ .

٢ - من حديث الشعر والنثر ص ٩٩ .

٣ - أبو تمام / البيهقي ص ٢٣٤ .

أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، وفهمه العلماء والنقاد في علم الشعر ، وكان مثال ذلك ما جرى يوم قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر وأنشده :

هن عوادى يوسف وصواحيه

فقال له كاتبها عبد الله ( لم تقول يا أبا تمام ما لا يفهم ؟ فأجابهما فوراً :  
(لم لا تفهمان ما يقال ؟ فكان هذا مما استحسن من جوابه )<sup>(١)</sup>.

لقد أنصف صاحب كتاب ( العمدة ) حين قال : ( فأما حبيب فيذهب إلى حزنونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً ، يأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة )<sup>(٢)</sup>.

يقول الدكتور / محمد نبيه حجاب : ( وليس بصحيح ما قيل إن ذلك كان يأتيه عفواً لطول قراءته للشعر القديم )<sup>(٣)</sup> وكيف نسلم بذلك وهو يصف شعره يقول :

فكأنما هي في السماع جنادل      وكأنما هي في القلوب كواكب  
وغرائب تأتيك إلا أنها      لصنيعك الحسن الجميل أقارب<sup>(٤)</sup>

١ - الموازنة - ص ٨ ، ٩ .

٢ - العمدة ج ١ ص ١٣٠ .

٣ - يشير د/ حجاب بهذه العبارة إلى ما أورده د/ عبيد بدوي في كتابه (أبو تمام وقضية التجديد) من قوله: (والذي لا شك فيه أن كثيراً من الألفاظ الحوشية تساعد إليه بتأثير قراءته الطويلة المستوعبة لشعراء الجاهلية بصفة خاصة - ونحن نعرف أنه كان وراء تراث غليظ يتمثل أكثر ما يتمثل في (الأراجيز) التي يقال إنه حفظ منها أربعين أرجوزة ، ومن المعروف أن الرجازين يتقنعون في اللغة ويغوصون غوصاً شديداً على الغريب وقد كان هذا وراء قاموسه الغريب الذي تعرف منه الألفاظ مثل اسحنفر - ايذر - ملخف - اشعل / ص ١٢١ .

٤ - معالم الشعر وأعلامه ص ٢٥٢ .

ولكن الدكتور / فروخ يرى رأياً آخر يخالف ذلك إذ يقول :  
 ( وأرنى لا أميل إلى قول أبى هلال العسكرى ( كان أبو تمام يتتبع وحشى  
 الكلام ويدخله في شعره ) لما في ذلك من قصر النظر في الأمور ، أفترى أبا تمام ينظم  
 القصيدة ثم يبدل كلامها السهل المألوف بالغريب الوحشى ؟  
 كلا لعمرى وإلا لكانت كل قصائده كذلك ، غير أنى أعتقد ذهب الناس  
 بقول ابن رشيق القيروانى ( وللشعراء ألفاظ معروفة ، وأمثلة مألوفة لا ينبغي  
 للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها ) فأنت ترى إذن فى هذه الفقرة عقلية  
 بعض الناس بجلاء ، إنهم يحبون ما الفوه ولو كان غثاً بارداً ويعرضون عما يحتاج  
 فى جنبه إلى قليل من التعب ) (١).

والدكتور / فروخ فى رأيه السابق جد محاب لأبى تمام جد متحامل على أبى  
 هلال العسكرى لأن أبا تمام قد يعتمد لإدخال ألفاظ غريبة فى شعره ليدلل بذلك  
 على علمه باللغة ويكلام العرب لدرجة أنه يخالف القياس أحياناً ففى مدحه  
 لعياش بن لهيعة نجده يختم قصيدته بقوله :

شامت بروقك آمالى بمصر ولو أصبحت بالطوس لم أستبعد الطوسا  
 فقد أدخل (ال) على ملوس ، وهو اسم بلدة وقال : عبد مناه بدلاً من عبد مناة  
 فى قوله :

إحدى بنى بكرين عبد مناه بين الكثيب للفرد فالأمواه  
 ● المعانى عند أبى تمام

لأن المعنى وثيق الارتباط باللفظ أثرت أن أتبع الكلام عن الألفاظ بالكلام  
 عن المعانى فملاءمة اللفظ والمعنى مسألة هامة عنى بها نقاد العرب وحثوا عليها  
 كثيراً فى كلامهم ، وليس هنا مجال الوقوف عند اللفظ والمعنى وإلا لأكثرنا من آراء

(١) - أبو تمام - فروخ ص ٤٠ .

العرب في ذلك لأهمية هذه القضية قديماً وحديثاً في النقد الأدبي عموماً وفي الأسلوب خصوصاً.

عد عن ذا إلى أبي تمام قصدت ، فقد أستأثر أبو تمام منذ القرن الثالث الهجري باهتمام النقاد والشرح ، وتمادى ذلك بعد وفاته أمداً طويلاً ، ولم تقدر شهرة المتنبي ولا أبي العلاء أن تحد من إقبال الناس على شعره والكلام في معانيه ، ذلك لأن أبا تمام يمثل منعطفاً في تاريخ الشعر العربي قام فيه النظم أساساً على الاستعارات والمحسنات البيديعية بطريقة مبالغ فيها لم يألّفها الناس من قبل فكان أن قامت – من أجل ذلك – معركة أدبية حامية الوطيس انقسم الناس فيها طائفتين مناصرة لأبي تمام ومعارضة له .

أما المؤيدون – من أمثال الصولي فقد رأوا في الطائي ( رأساً في الشعر مبتدأ لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه حتى قيل مذهب الطائي وكل حاذق بعده ينسب إليه ويقفى أثره )<sup>(١)</sup> .

أما المتعصبون عليه – وهم أكثر – فقد طعنوا في مذهبه وألحوا على نقائصه فقال الأمدى ( ..... لأن أبا تمام شديد التكلف صاحب صنعة ومستكره الألفاظ والمعاني وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة ..... )<sup>(٢)</sup> .

وقال فيه الجرجاني ( ..... فإنه حاول بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه فحصل منه على توعير اللفظ وتبجح في غير موضع من شعره فتعسف ما أمكن ، وتغلغل في التصعب كيف قدر ، ولم يرض بهاتين الخليتين حتى

١ - أخبار أبي تمام ص ٣٨ .  
٢ - الموازنة ص ٢ ، ٣ - ط محمد علي صبيح .

اجتلب المعانى الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقیل وأرصد لها الأفكار بكل سبیل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وهذه جريرة التكلف (١).

نخلص من ذلك إلى أن حجم العناية التي أولتها كتب النقد الأدبي الكبرى في القرنين الثالث والرابع الهجريين لشعر أبي تمام يعد دليلاً على أهمية هذا الشعر ومكانته وأنه لواضح من قراءة كتاب ( البديع ) لابن المعتز و ( أخبار أبي تمام ) للصولي و ( الموازنة ) للآمدی و ( الوساطة ) للقاضي الجرجاني أن شعر أبي تمام كان يمثل تحدياً للمفهوم العربي الكلاسيكي ( التقليدي ) عن القصيدة بل يأتي شعر أبي تمام بمثابة التحدي الحقيقي للنتاج الشعري العربي التقليدي بأكمله في أساليبه ومعانيه .

( وقال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب : إنما حبيب كالقاضي العدل : يضع اللفظة موضعها ويعطى المعنى حقه بعد طول النظر ، والبحث عن البيئة أو كالفقيه الورع : يتحرى في كلامه ويتحرج خوفاً على دينه ، وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة أو كالشجاع الجريء : يهجم على ما يريد لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع ) (٢).

يقول طه حسين : ( كان أبو تمام حاد الشعور وكان يحس الأشياء حساً سريعاً ويتأثر بها تأثراً عميقاً ثم لم يكن ذكاؤه يمتاز بهذه الحدة فحسب ، وإنما كان يمتاز بشئ من العمق لم يكن لغيره من الشعراء ، فأبو تمام لم يكن كغيره إذا تعرض لشئ أخذ من ما يبدو أخذاً سريعاً ولكنه كان إذا تعرض لمعنى من المعاني تعمقه

١ - الوساطة - ص ٥٩ .  
٢ - العمدة ج ١ ص ١٢٢ .

وكان هذا التعمق من مزايا أبي تمام ومن عيوبه في وقت واحد ، من مزاياه لأنه من أظهر الدلائل على قوة العقل ومن أحسن الوسائل لفهم الأشياء ومن أقوم الطرق التي تحول بين الإنسان وبين الخطأ في الفهم وفي التقدير .

ولكنه في الوقت نفسه كان يضطره إلى ألوان من الإغراب في المعاني وفي الألفاظ أيضا فكان يصل إلى أشياء لم يتعود الناس أن يروها ولا أن يصلوا إليها ، كان يدهش الناس بما يظهر من هذه المعاني المختلفة ثم كانت تعوزه اللغة أيضا<sup>(١)</sup> .

وعن عمق المعاني عند أبي تمام يضيف له حسين قاندا :

( كان الناس قد تعودوا أن يدلوا باللغة على معان قريبة لا سيما في الشعر وكانوا قد ألفوا - ولا سيما في هذا العصر - أن يجدوا التعمق والتقصي وتخير الألفاظ والمعاني الجديدة عند الفلاسفة وعند المتكلمين فلما رآوه عند شاعر كأبي تمام يجد من اللغة مشقة فيتكلف بعض الغريب أو يحمل الألفاظ أكثر مما تحمل وجدوا في ذلك حرجا ومشقة ولذلك أنكروا على أبي تمام هذا الإغراب وهذا التكلف في التعبير ، فقد كان اذن هذا الذكاء الحاد مصدر مزية ومصدر عيب يأخذون به أبا تمام )<sup>(٢)</sup> .

وهذا الذكاء الحاد الذي استخدمه أبو تمام استخداما واسعا في مثل الشعر الذي سبقه من قديم وحديث فقد وعى وعياً دقيقاً صورة الشعر العربي بجميع خطوطها وألوانها وكل ما يجري فيها من أضواء وظلال وانتحي ناحية ( مسلم بن الوليد ) في تصنيفه إذ كان ذوقه ذوق نحاس أصيل فهو يقيم قصائده وكأنه يرفع

١- من حديث الشعر والنثر ص ٩٧ .  
٢- السابق ص ٩٩ .



شائيل باذخة ولذلك لا تعجب حين نجده يتمسك بالأسلوب الجزل الرصين فهو الذى يلائم ما يريد من ضخامة البناء ومقارنته وقوته ، وقد تحولت عنده معانى الشعر إلى ما يشبه جذا ذات العلماء ، فهو يتناولها ممن سبقوه ويخرجها إخراجا جديدا يستعين فيه بدقة فكره وروعة خياله مضيفا إليها كثيراً من دقائق ذهنه وبدائع ملكاته .

#### ● بناء القصيدة عند أبى تمام

لم تكن أوائل العرب تخص ترتيب المعانى بفضل مراعاة ، وإنما حفل بها المحدثون منذ العصر العباسى فأخذوا يهتمون بالبهاء وبالانتقال منه إلى الغرض ثم بالخاتمة لأنها المواقف التى تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء . ( وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل )<sup>(١)</sup>.

وطالما كانت مطالع القصائد مثار خصومة بين أنصار الجديد وأنصار القديم من الشعراء والنقاد ، فقد عنى النقاد والأدباء بأمر الابتداءات فى الشعر والنثر على السواء ومن ذلك ( براعة الاستهلال ) وهو أن يأتى الناظم أو الناثر فى بدء كلامه ببيت أو قرينة تدل على مراده ، ثم التخلص أو الخروج وهو أن يكون ما فى مقدمة القصيدة من الأغراض ممتزجا بها بعده ويتصل بذلك ما يسمى الاستطراد وصحة التقسيم والاستيعاب ثم براعة الختام وهو أن يكون آخر الكلام الذى يقف عليه المترسل أو الخطيب أو الشاعر مستحسننا عذبا لأنه آخر ما يبقى منها فى الأسماع .

١ - عيار الشعر - محمد بن أحمد بن طباطبغا ص ١٢٦ ط القاهرة ١٩٥٦ والعبارة فى ظاهرها تلتبس بما يسمى "الوحدة العضوية" ولكنها تليق أيضا إلى ضرورة حسن الابتداء "المطلع" والخروج والخاتمة.

وبناء القصيدة عند أبي تمام متقلب مثل تقلب شخصيته هو، فقد زاوج في بناء قصائده بين طريقة الأقدمين - من الابتداء بمخاطبة الأطلال والتحسر لمراها أو الغزل ثم الانتقال والتخلص إلى غرض آخر ومن مطالعه في ذلك قوله :

أرامة كنت مآلف كل ريم لو استمعت بالأنس القديم  
وهو مطلع قصيدة له في مدح بني عبد الكريم الطائيين وقوله :

أظن دموعها سنن الفريد وهي ملكاة من نحر وجيد  
لها من لوعة البين التدام يعيد بنفسجاً ورد الخدود  
وهو مطلع قصيدة له في مدح أبي سعيد الثغري وقوله :

على مثلها من أربع وملاعب أنيلت مصونات الدموع السواكب  
وهو مطلع قصيدة مدح في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وقوله :

ألا صنع البين الذي هو صنائع فإن تك مجزاعاً فما البين جازع  
وهو مطلع قصيدة له في الفخر بقومه وقوله :

أما الرسوم فقد أنكرن ما سلفاً فلا تكفن عن شأنك أو يكفا  
لا عذر للصب أن يقنى الحياء ولا للدمع بعد مضى الحى أن يقفا  
وهو مطلع قصيدة له في مدح أبي دلف العجلي وقوله :

تصدت وحبل البين مستحصد شزر وقد سهل التوديع ما وعى الهجر  
وهو مطلع قصيدة في الفخر بقومه وذلك كثيراً جداً في شعره .

وطريقة المحدثين ( المولدين ) - وهو على رأسهم - من الحيد عن نمط الأقدمين فيبدأ قصائده بالوصف أو الخمر وقد يجمع بين الطريقتين في قصيدة واحدة فأصبح كالبوتقة التي تنصهر فيها كل تحارب الأقدمين والمولدين ثم تخرج على صورة أخرى جديدة بعد ما يضيفه عليها من دقة فكره وروعة خياله ويدائع

ملكاته فتصبح القصيدة بعد ذلك كالتمثال الباذخ أو كالعلم الشامخ الذى لا تتناول إليه الأعناق .

وقد كان أبو تمام موفقاً كل التوفيق فى صنع مطالع قصائده بطريقة لافتة للنظر مسترعية للانتباه ، ففى المواقف التى تأخذ النفس وتبلغ فيها العاطفة أقصى جيشانها نراه يندفع كالسيل الجارف فى ابتداءه بما يجيش بنفسه فيهمج على غرضه هجومياً لا هواة فيه ، ولا له تهديد من مثل قوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر      فليس لعين لم يفض ماؤها عذر  
توفيت الآمال بعد محمد      وأصبح فى شغل عن السفر السفر  
وهو مطلع قصيدة يرثى بها محمد بن حميد الطوسى وكذلك قوله فى رثائه أيضاً :

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا      وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا  
للحد أبى نصر تحية مزنة      إذا هى حيث معراً عاد ممرعا  
وكتوله فى مدح المعتصم :  
السيف أصدق أنباء من الكتب      فى حده الحد بين الجد واللعب  
فلا خمر ولا أطلال ولا وصف وهو على ذلك يمضى حتى ينتهى .

وكتوله فى مدح المعتصم أيضاً وذكره أمر الأفشين :

الحق أبلج والسيوف عوار      فحذار من أسد العرين حذار  
وكتوله فى رثاء خالد الشيبانى :  
نعاء إلى كل حى نعاء      فتى العرب احتل ربع الفناء  
وتلك عبقرية من أبى تمام لأن المطالع أول ما يقرع الأذان من القصائد فإنما كان المطالع حلواً الألفاظ واضح المعانى متين التركيب ترك فى النفس أثراً قد لا يحى .

أما حسن التخلص أو الخروج فالشاعر هو الذى يجيد الوصل بين الأغراض فبينما هو فى غرض يتكلم فيه إذ هو يأخذ فى معنى غيره من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً فيكون الكلام بعضه آخذاً برقاب بعض وكانت العرب فى جاهليتها تنتقل فجأة بقولها :

( دع ذا ) أو ( عد عن ذا ) أو ( إلى فلان قصدت ) وما شاكل ذلك بل كانوا ينتقلون أحياناً دون شئ من ذلك وأبو تمام من أولئك الشعراء الذين أجادوا حسن الخروج من فن إلى فن وبخاصة فى القصائد التى يبدأها بغير غرضه الأسمى ومن هذا عانيت كثيراً خلال هذه الدراسة لشعر العروبة عنده إذ كنت أتحير كثيراً عندما أحاول اجتراء أبيات العروبة من قصائده فلا أدري من أين أبداً ولا أين انتهى وذلك لأن أبياته كلها حكمت بهارة وذلك مما يدل على حدق الشاعر وقوة تصرفه .

أما القصائد التى بدأها مباشرة بالإعراب عن غرضه ومقصوده فليس فيها تخلص أو خروج إذ القصيدة من أول بيت إلى آخر بيت تدور فى فلك واحد وحول معنى مترابط الأجزاء لا ينتهى منه حتى يعود إليه وهو نفس ما يسميه النقاد المحدثون (الوحدة العضوية) للقصيدة لا وحدة البيت الواحد .

أما براعة الختام أو النهاية فقد كان أبو تمام موفقاً أيما توفيق ، فلم يسأير الجاهلين فيقطع قصيدة دون خاتمة لها وإنما علم أن الخاتمة آخر ما يبقى فى الأسماع من القصيدة فختم قصائده بما يؤكد ما أراده من معانٍ خلالها وبما يحرك ألسنة السامعين بالثناء والإعجاب ، وكانت خواتمه تشبه إلى حد كبير ( الحكمة ) فى جلال معناها وسهولة أسلوبها من مثل قوله فى ختام قصيدته فى رثاء ابن حميد :

إن كان ريب الدهر ائكتنيهم فالدهر أيضاً ميت متكول

وقوله :

لا غرو أن قتلوا صبرا ولا عجب      فالقتل للصبر في حكم القنا تبع  
وقوله في ختام قصيدة له في مدح عياش الحضرمي :  
وهاتنا ثياب المدح فاجرر ذيولها      عليك وهذا مركب الحمد فاركب  
وقوله في قصيدة له في رثاء ابن حميد :  
عليك سلام الله وقفنا فإننى      رأيت الكريم الحر ليس له عمر  
وقوله في ختام قصيدة له في مدح أحمد بن عبد الكريم الطائي :  
لا تعدمنك طئى فلقلما      عدمت عشيرتك الجواد السيدا

نخلص من ذلك إلى أن الشعر الذي توافر فيه مبدأ (التحام النظم والثناء) يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت والبيت كالكلمة ، تسالما لأجزائه وتقاربا وجد عند أبي تمام فلم يستسلم لتقاليد القصيدة العربية منذ الجاهلية من الوقوف على حد اللفظة أو الجملة أو البيت الواحد بل جعل القصيدة وحدة فنية تتألف من عناصر مختلفة كثيرة متماسكة متوازية متداخلة على نحو لا يمكن معه تصور كل منها على حده ، وبذلك نستطيع القول بأن شاعرنا كان يفكر طويلا في موضوع قصيدته وفي منهجها وفي الأثر الذي أراد أن يتركه في جمهوره وفي الأجزاء التي تتعاون في إحداث هذا الأثر متمشية مع البناء الكلي للقصيدة وفي الأفكار والصور التي يشتمل عليها كل جزء ملاحظا في ذلك التتابع المنطقي وتسلسل الأفكار والأحداث ووحدة الطابع فجاءت القصيدة كما أراد .

## المبحث الثاني العاطفة والخيال

العاطفة عند أبي تمام -

العاطفة هي تلك القوة النفسية التي تثيرها مؤثرات وميول خارجية مختلفة فتظهر في صورة انفعالات شتى كالحب والبغض والسرور والحزن والرجاء والخوف والوفاء وهي بذلك من دواعي الشعر التي تهيجها ، وينابيعه التي ينبجس منها ، فمن كان ذا فطرة شاعرة وموهبة أدبية ، استحثته إلى قول الشعر دواعيه وأمدته فيها عواطفه وهو في ظل هذه العاطفة أصدق شعوراً وأجمل تعبيراً وأعز معيناً<sup>(١)</sup> فللشعر دواع تحت البطن وتبعث المتكلف<sup>(٢)</sup> منها :

الشراب ومنها الطرب ومنها الطمع ومنها الغضب ومنها الشوق كما يقول ابن قتيبة<sup>(٣)</sup> :

والعاطفة هي التي تمنح الأدب الصفة التي نسميها الخلود ، فنظريات العلم ليست خالدة والسبب في ذلك أن العلم خاضع للعقل ، والعقل سريع التغير حتى في الإنسان الواحد من صباه إلى شبابه إلى شيخوخته ، فقد يرى الرأي في زمن ثم يرى غيره في زمن آخر ، وهكذا أما العاطفة فلا تتغير إلا قليلاً وإنما تغيرت كانت في أشكالها دون أساسها ، وقد عرف الشعراء في أنفسهم دواعي الشعر ويواعه ألا وهي هذه الانفعالات والعواطف ، كما أقرها كذلك نقاد العرب واعترفوا بها كما عرفوا صلة هذه العواطف بالشعر والأدب وأثرها فيما تبعث في فنونه ( فمع الرغبة

١ - النقد الأدبي عند العرب / محمد طاهر درويش ص ٢١٩ .

٢ - طائفة : الذي يرغب فيه .

٣ - الشعر والشعراء - ابن قتيبة ص ٨ .

يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجه <sup>(١)</sup> . وقد وضع النقاد للعاطفة مقياساً وهو الصدق والكذب مما لا شك فيه أن عاطفة الشاعر إذا كانت قوية صادقة تركت أثرها قوياً واضحاً في شعره وبعث فيه من الحرارة وصدق التأثير ما هو جدير بأن يحرك عواطف الناس وأن يشعل في نفوسهم من الانفعالات مثل ما لدى الشاعر وأن يجعلهم - من حيث لا يشعرون - شركاء فيما يعبر عنه من مشاعر عامة كالحب والحزن والشوق والحزن والأسف .

أما إذا كانت العاطفة كاذبة فقد فقدت خاصيتها ، وعجزت عن إثارة المشاعر وعاد نسج الشعر تبعاً لضعف لا روح فيه ( وعلى الجملة فإن إثارة العواطف هي العنصر الظاهر في الأدب فإنما كانت هذه الإثارة هي أهم غرض للكاتب أو الأديب كان لنا من هذا شعر أو أدب كفن من الفنون الجميلة ) <sup>(٢)</sup> .

ومما يسم شعر العروبة المنتشر في ديوان أبي تمام - كمظهر عام - انصهار حسه وعقله وفكره وشعوره في بوتقة العروبة ثم تستحيل هذه الحواس سهاماً مصمية يسدها إلى صدور أولئك الذين يشككون في عرويته على هيئة كلمات فأبيات يجلى بها وجه العروبة عنده .

فهو إذا مدح يشيد أولاً بالسجاي والصفات العربية ويعليها قبل أن يسمى ممدوحه - وإذا افتخر يشيد بالوقائع التي كان النصر فيها للعرب على غيرهم وللإسلام على الكفر بشتى صوره ، ويحاول التذكير من خلال تلك الوقائع بالأيام

١ - العنزة - ابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ طدار الجبل .  
٢ - النقد الأدبي / أحمد أمين ص ٢٣ الناشر - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .

التي انتصر فيها العرب قديما على أعدائهم ، وإذا رثى نعى إلى العروبة أبطالها وقواد معاركها الشجعان الذين سقطوا في الميادين .

ولكنهم بذلك كانت لهم اليد الطولى في كتابة ذلك النصر المؤزر على أعداءها وتحس منه وهو يدافع عن العروبة باللسان ؛ لا يفترق قيد أضلة عن أولئك الذين يدافعون عنها بالسنان في الساحات الحربية ، وذلك كله صادر عن عاطفة دفاقة صادقة خالطت جنان الشاعر ووجدانه وفجرت ذلك الينبوع العذب على لسانه وأعانها في جلاء الصورة وحسنها ما استمدته من بيانه ، فهتف بما يجده في نفسه فغدا هذا الشعر لسان حاله وترجمان هواه وعواطفه ، فتناقلته الأجيال حريصة عليه ضئيلة به لحنا حلوا وأنشودة بارعة ترددها الأفواه وتطرب لها القلوب قبل الأسماع وتطيب بها النفوس .

وعاصفة الاعتزاز والانفة - المعروفة عند العرب - تستحوذ على أبى تمام وتستولي على أقطار نفسه فإذا ما اضطر إلى مديح غير العرب تخلص من ذلك ؛ بأن يبدأ مديحه للعرب وكذلك يختم مدحه لهم وفي وسط ذلك يمدح غيرهم وكأنى به يستنكف أن يكون مدحه خالصاً لغير العرب .

يقول جامع ديوان أبى تمام : ( إن أبا تمام كان بنيسابور على باب عبد الله بن طاهر فخرج أبو العتميل حاجبه برقعة فيها بيتان من شعر قالهما عبد الله فقال لأبى تمام : قل في معنى هذين البيتين ووزنهما وهما في الأفشين وكان يحارب بابك في مدينة أرشق والأفشين وجه إلى حرب بابك سنة ٢٢٠ وفيها كانت موقعة أرشق المذكورة وكأنما كان عبد الله يريد بذلك إرغام أبى تمام على مدح أعجمى قح انتقاماً منه وتنكيلاً بتلك العصبية التي دفعت بأبى تمام إلى قول شعره :

وأنت وقد مجت خراسان داءها      وقد نغلت أطرافها نغل الجلد



وأوباشها خزر إلى العرب الألى  
وما قصدوا إذ يسحبون على المعنى  
ورلموا دم الإسلام لا من جهالة  
فمجوا بها سما وصابا ولو نأت  
لكيما يكون الحر من خول العبد  
برودهم إلا إلى وارث البرد  
ولا خطأ بل حاولوه على عمد  
سيوفك عنهم كان أخطى من الشهيد (١)  
فإذا قال أبو تمام عن فرس خراسان ( أوباش ) أحس عبد الله أمر ما  
يحسه الإنسان ذا مست قوميته وإذا قال أبو تمام :

ليالى بات العز فى غير أهله وعظم وغد القوم فى الزمن الوعد  
وكان الأمير عبد الله من هؤلاء الذين يدعوه أبو تمام ( الأوغاد ) فإن هذا  
يصبح جارحا ثقيلا فلما أحس أبو تمام من عبد الله أنه يريد إرغامه على مدح  
أعجمى قال قصيدته :

غدا الملك معمور الحرا والمنازل منور وحف الروض عذب المناهل  
وهذه القصيدة أول شعر قاله فى مدح الأفسشين وكأنما أحس أبو تمام لذلك  
كرها فبدأ القصيدة بمدح الخليفة وختمها كذلك بمدح الخليفة ومدح فيما بين ذلك  
الأفسشين فقال :

غدا الملك معمور الحرا والمنازل منور وحف الروض عذب المناهل (٢)  
بمعتصم بالله أصبح ملجأ ومعتصما حرزا لكل موائل  
لقد ألبس الله الإمام فضائلا وتابع فيها باللهي والقواضل (٣)  
فأضحت عطاياه نوازع شردا تسائل فى الآفاق عن كل مسائل (٤)

(١) - شرح الديوان ج ٢ ص ١٢٢ والآيات من قصيدة فى مدح حفص بن عمرو الأزدي.  
(٢) - شرح الديوان ج ٣ ص ٧٩ : الحرا أو الحرة / الناحية ، والوصف من النيات : السريان.  
(٣) - ألبسه : أي خصمه بالقضايل أي الجود والبأس والتقى ، واللهى : العطايا.  
(٤) - نوازع : من قولهم نازع وكذاك الجمل. أي أنها تحن إلى العاقين فتسير إليهم.

#### ومدح الأفشين قتال :

لقد لبس الأفشين قسطة السوغي  
محشا بنصل السيف غير مواكل<sup>(١)</sup>  
وسارت به بين القنابل والقنا  
عزائم كانت كالقنا والقنابل  
تراه إلى الهيجاء أول راكب  
وتحت صبير الموت أول نازل  
تسريل سربالا من الصير وارتدى  
عليه بعضب في الكريهة قاصل  
ثم ختم قصيدته بمدح الخليفة فقال :  
فتوح أمير المؤمنين تفتحت  
لهن أزاهير الربا والخمائل  
وعادات نصر لم تزل تستعيد  
عصابة حق في عصابة باطل  
وما هو إلا الوحي أو حد مرهف  
تميل طباه أخدعى كل مائل<sup>(٢)</sup>  
ألا يروعك هذا الحس الرقيق الدقيق عند أبي تمام والذي أظهر خبياة نفسه  
فلم يترك لعربي ولا غيره مجالاً للشك في عرويته المتغلغلة في عروقه وكأنا ارتضعها  
مع لبانه وهو صغير ؟!

#### أسلوب الاستفهام

الاستفهام لون من ألوان التعبير ينقل أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس ويبث  
أخفى الخواطر والهواجس باعثاً في نفس المتلقى شتى الأحياء المتوهجة  
المتداخلة ، هذه المشاعر والأحاسيس والدلالات التي يوحى بها الاستفهام تعرف  
من الموقف الذي يساق فيه ، وحال المخاطب والجو الشعوري المسيطر على الموقف  
فتحس نبض القلوب في نبض الكلمات وحرارة الانفعالات في التعبيرات التي  
تنتفض حرارة وحياة .

١ - تعطل : الغيار ويجوز تأنيثه : وهو كحمش النارخ تتوذه واصطلاته نار الحرب المواكل : الذي يكل  
أمره إلى غيره .

٢ - شرح الديوان ج ٣ ص ٨٦ - الوحي : أراد به القرآن ، والطبا جمع طبية وهي حد السيف ،  
والأخدعان : هما جاني الرقبة .

وسر جمال الاستفهام البلاغى أنه يعطى الكلام حيوية ويزيد من الإقناع والتأثير به كما أنه فيه إثارة للسامع وجذباً لانتباهه وإشراكه في التفكير ليصل بنفسه إلى الجواب دون أن يملأ عليه .

والاستفهام الأدبى لا يطلب به جواب وإنما يحمل من المشاعر ما يخرج به إلى أغراض بلاغية متعددة مثل التشويق والإنكار والنفى والتمنى والتعظيم والاستبعاد والحسرة والتسوية وغيرها من الدلالات التى يوحى بها الاستفهام وتعرف من سياق الأسلوب بمعونة القرائن .

#### ● الاستفهام فى شعر العروبة عند أبى تمام

لما كان فن المديح قائماً أصلاً على الإخبار بالمحاسن ودفع المخازى ، وجدنا أن الأساليب الإنشائية بعامة والاستفهام بخاصة لم تدخل شعر العروبة عند أبى تمام إلا لماماً ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله مفتخراً مادحاً طئ :

هل أوراق المجد إلا فى بنى أدد أو اجتتى منه لولا طئ ثمر ؟  
فالاستفهام هنا له وقعة الخاص حيث قصد به النفى بل وطلب من مخاطبه أن يقر ويذعن بذلك وليس من شك أن الاستفهام هنا أفضل من الإخبار إذ لو قال :

لم يورق المجد إلا فى بنى أدد ولم يؤتى ثماره لولا طئ لكان الكلام عرضة للتصديق والتكذيب ولكنه ساقه مساق المسلمات اسمع إليه يقول لما انتصر أبو سعيد الثغرى على جنود بابك الحررى :

تالله ندرى : ألاسلام يشكرها من وقعة أم بنو العباس أم أدد ؟  
والاستفهام تعجيبى وكأنه من شدة عجبه متحيراً لمن ينسب هذا النصر المبين ؟!

ولما فتحت عمورية - وكان المنجمون قد تنبئوا بعدم التمكن من فتحها -  
يأتى أبو تمام فيحدث عن علم التنجيم هذا الحديث الساخر الذى يفضل فيه  
السيف على الكتب والقوة على العقل ويستمر فيهنأ بما يذكره المنجمون من أيام  
السعد والنحس وما يذهبون إليه من تقسيم الأبراج إلى ثابتة ومتقلبة وتحكمها في  
طوالع الناس والأحداث فيقول :

أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيهلون كذب ؟  
لقد أراد أبو تمام أن يقول : إن العلم في الفعل لا في القول وأقصد بالفعل  
( الحرب ) وبالقول التنجيم ، والعصر يذكر لنا أن التنجيم كان قضية مطروحة  
على الناس في ذلك الزمن في الجانب الرومى وفي الجانب العربى وهذا يؤكد وقفة  
الشاعر الطويلة عنده وكيف أن نظريته المتلاقية مع نظرة المعتصم كانت علمية  
وكانت تحدياً للآراء الشائعة ، وعلى ما يبدو لقد كان أبو تمام على دراية بعلم  
الفلك ، وظاهر ذلك في شعره وحديثه عن المذنب في قوله :

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب<sup>(١)</sup>  
حيث يلتقى ذلك بالآراء التى ذكرت أن ظهوره كان في الأفق الغربى عام  
٢٢٣ ثم كان اتجاهه إلى المشرق واستمراره أربعين ليلة وكان بالغ الطول<sup>(٢)</sup> .  
\* ومن الاستفهام في رثائه خالدا الشيبانى :

على أى عرنيين غلبنا ومازن وأية كف فارقتنا وساعد ؟  
وهو استفهام ظهرت فيه ألوان قائمة من الحسرة والأسى لموت خالد  
الشيبانى وقوله متعجبا من حال الموت :  
فماذا أحضرت به حاضرا وماذا خبأت لأهل الخباء ؟ !

(١) - الديوان ج ١ ص ٤٤ .  
(٢) - أبو تمام د/ عبده بدوي ص ٢٢٧ .

يقول الصولي : يخاطب الموت ويقول ما صنعت بأهل البدو والحضر<sup>(١)</sup>  
وفي رثائه لابن حميد الطائي يقول :

وأنى لهم صبر عليه وقد مضى إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر ؟  
فيتقى الصبر عن أهله ويتساءل متعباً كيف يصبرون بعد موته وقوله :  
أمن بعد طى الحادثات محمداً يكون لأثواب الندى أبداً نشر ؟ !  
إذا شجرات العرف جذت أصولها ففى أى فرع يوجد الورق النضر ؟

وهنا نرى استفهامين يحملان مشاعر الأسى والحسرة على من مات الكرم  
بموته وسر الإعجاب فى هذين الاستفهامين أن الشاعر يستثير بهما السامع ويحثه  
على مشاركته فى أساه وحسرتة عن طريق دليل حى هو شجرات الطيب التى  
جذت أصولها وجفت فروعها فأصبح عسيراً أن ينبت بها الورق النضر.  
● وفى فخره يقوم به يقول مستفهماً :-

فأى يد فى المجد مدت فلم تكن لها راحة من جودهم وأصابع ؟  
والاستفهام قصد به النفى والمعنى ما من جواد فى الأرض إلا وجوده مشتق  
من جودهم ويقول :

وهل خاب من جنماه فى ضنء طى عدى العديين القلمس أو عمرو ؟  
والاستفهام تعجيبى وتشم فيه رائحة النفى وقوله :  
فتى دخر الدنيا أناس ولم يزل لها باذلاً فانظر لمن بقى الذخر ؟  
والاستفهام قصد به التبرير وقوله :  
هل اجتمعت عليا معد ومنحج بملئكم إلا ومننا أميرها ؟

وهو استفهام قصد به النفى وهكذا نجد كل استفهام لأبى تمام مقعم  
بأصباغ أخرى راح يستخدمها ويأثر بها تأثيراً يخلد فى أذهان سامعية ويدل بذلك

على ما عنده من موفور العواطف ويدلل أيضاً على شدة إحكامه لألوان فنه التي تروق من يسمعها .

#### ● الخيال عند أبي تمام

الخيال ملكة ذات قيمة كبيرة في الأدب إن لم تكن أقوم الملكات (١) إن تعريفه ككل المعاني عسرو من أسباب صعوبة التعريف أن الكلمة تستعمل في أنواع مختلفة من العمليات العقلية (٢).

وكل ضروب الأدب - ولا سيما الشعر - محتاجة إلى الخيال لأن ما يتوارد به من الصور يجعل الأمور المعنوية محسوسة لك ماثلة أمام عينيك فيها من الحركة والحياة ما يزيدك بها يقيناً وما يزيدك في نفسك استقراراً وتأثيراً ، والأدباء والبلغاء يرون الكلام المشتمل على الخيال أكثر روعة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع .

( وللخيال الأدبي ارتباط كبير بالعواطف وكلما كانت العاطفة قوية احتاجت إلى خيال قوى يعين عليها وضعف أحدهما يؤثر أثراً كبيراً في ضعف الآخر ) (٣) لذا كان الخيال وعي ذو سلطان ثابت الدعائم ، لا يهتدى المرء إليه لأنه يعجز عن الوقوف على عظمته إلا إذا عرفه عن طريق الشعور ( وفي هذا كله أصبح الخيال - في مجاله الفني - ذا مكانة تفوق قوى العقل الأخرى على شرط أن تكون الصور التي ينتجها متسقة متآزرة تتألف على تصوير الحقيقة ) (٤).

وخير ما نقف به على روعة الخيال وتأثيره هو المجاز إذ إن النقاد قرروا أن المجاز أبلغ من الحقيقة أي أن العبارة ذات المجاز أفضل من العبارة نفسها

١ - النقد الأدبي - أحمد أمين ص ٣٤ .

٢ - السابق ص ٤١ .

٣ - النقد الأدبي الحديث - محمد غزيمي هلال ص ٤١٩ .

إذا التزمت طريق الحقيقة ( والخيال الذي درسه العرب محصور في أربعة أبواب : التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل ) (١).

وسنحاول تطبيق ما شاع من هذه الأبواب على شعر العروبة عند أبي تمام.

#### التشبيه

التشبيه طريق من طرق البيان يلجأ إليه الأديب أو الشاعر أو اللغوي توضيحاً لأفكاره ، وتجسيماً للمعنوى في صورة المحسوس المشاهد ، ونقلاً من الغامض الخفى إلى الظاهر الجلى و ( التشبيه علاقة موازنة تجمع بين طرفين لاتحادهما أو اشتراكهما في حالة أو صفة أو مجموعة من الحالات أو الصفات وسواء أكانت تلك المشابهة بين الطرفين تقوم على أساس من الحس أو العقل فإن العلاقة التي تربط بينهما علاقة موازنة وليست علاقة اتحاد أو تفاعل بحيث يصبح هذا الطرف ذاك الآخر - كما في الاستعارة ) (٢).

والحق أن واقع العرب بداوة وحضراً جاهلية وإسلاماً يقرر أنهم كانوا أكثر خلق الله ابتكاراً للتشبيهات ( فلو قال قائل إنه أكثر كلامهم لم يبعد ذلك لأنه ) باب لا آخر له ( فالشعر يختار ويحفظ للإصابة في التشبيه والبلاغة تعرف به وما أكثر ما قالوا : أحسن أهل الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس وأحسن أهل الإسلام تشبيهاً نوال الرمة ) (٣).

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن التشبيه كان ميدان أبي تمام الفسيح - بعد الاستعارة - الذي اتخذ مركباً ليظهر سمات الشاعرية عنده بذكاء وفهم ، بيد أنه لم يكن ليسلك في ذلك الطرق السهلة المكررة في كلام الشعراء بل تفرد بصورة

١ - النقد الأدبي / محمد طاهر درويش ص ٢٢٩  
٢ - الخصومات البلاغية والنقدية في صناعة أبي تمام / عبد الفتاح لاشين ص ٩٦ طدار المعارف .  
٣ - أبو تمام / عده بدوي ص ١٨٨ .

تشبيهية خصبة المعاني متعددة الروافد والموارد وليست بسيطة ساذجة مكتملة  
الأركان بل أكسبها ضرباً من الروعة الفنية .

وليس من شك في أن هذه مقدرة ممتازة تلك التي استطاع بها أبو تمام أن  
يجعل بل ويحول قيثارته ريشة يرسم بها صوراً يعبر بها عن مكنون نفسه ، ويزين  
بها شعره ويجمله ، وإذا أخذنا نبحث في شعر العروبة عنده من صور التشبيه –  
على سبيل المثال لا الحصر – وجدناه يميل إلى التشبيه البليغ كما يسميه البلاغيون  
( المحذوف الوجه والأداة ) بل والتشبيه المضمر ( الضمني ) من مثل قوله :

أدار البؤس حصنك التصابي      إلى فصرت جنات النعيم  
وقوله في منح عمر بن عبد الكريم الطائي :  
وسائل عن أبي حفص فقلت له      أمسك عنائك عنه أنه القدر  
هو الهمام هو الصاب المريح هو الـ      حتف الوحي هو الصمصامة الذكر

نرى خمس تشبيهات رائعة في بيت واحد وجزء الآخر لم يفقد بعضها بعضاً  
جماله ورونقه خاصة وأنه قد حذف الأداة والوجه في جميعها وفي هذا ما يشعر  
بدعوى الاتحاد بين الطرفين فشبه عمر بالقدر وبالهمام وبالصاب الذي أخرج  
سنبله ليجعله غاية في المראה وبالحتف والصمصامة <sup>(١)</sup> .

وفي كل تشبيه يذكر المشبه (الضمير هو) وكان يكفيه حرف العطف بعد أن  
يذكره مرة واحدة أولاً لأن العطف على نية التكرار والمحذوف لعله كالثابت ، ولكنه  
أثر تكرار الضمير لشعر أن المدح تغرد بهذه الصفات دون غيره .

١ - الصمصامة: اسم سيف لعمر بن معد يكرب الزبيدي الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع في  
الجاهلية والإسلام . وحكي أن عمر بن الخطاب قال لعمر بن أبي العاص : فبعت إليه به ، فلم  
يرد كما بلغه ، فقال له في ذلك ، فقال : إني بعت إليك الصمصامة ولم أبعث لك باليد التي تضرب به .  
هبة الأيام / أبو يوسف البديعي . بشرح محمود مصطفى ص ٢٢ .



ولما كانت الشجاعة من أجل الصفات التي يمدح من أجلها العربي نراه

يمدح عياشا ويقول :

همام كنصل السيف كيف هزرته      وجدت المذايا منه في كل مضرب  
فيشبهه عياشا بأنه كنصل السيف الذي لا يكل عن الضريبة بل ويجعله ليثا من  
فيقول :

ليث ترى كل يوم تحت كلكه      ليثا من الإنس جهم الوجه مفروسا  
وفي مدحه للخليفة المأمون أثبت تلك الصفات له - وكيف لا ؟ وهو الذي  
رفض مهادنة الرومان وتقدم بجيشه يزلزل الأرض وأخذ يوقع الهزائم بهم الواحدة  
تلو الأخرى ومن المبالغة في السير فقد اسودت وجوه فرسانه فأصبحوا وكانهم من  
أولاد السودان فيقول :

سفع الدعوب وجوههم فكأنهم      وأبوهام سام وأبوهام حام  
أرايت هذا البياض الأسود ؟ ، إن حقائق الأشياء تتغير في شعر أبي تمام  
فالأبيض قد تحول إلى أسود ولا أقول أسودا مشوها بل أسود مزين حقا إن أبا  
تمام كان أستاذنا ماهرا في فن مزج الألوان فقد مزج البياض في البديع ثم يقول فيهم :  
مسترسلين إلى الحتوف كأنما      بين الحتوف وبينهم أرحام  
فيشبههم وهم يلقون بأنفسهم في أحضان الموت كهيئة من عاد من من سفر  
يستحثه الشوق إلى ندى رحمه فيرتقى في أحضانه لا من ضعف ألم بهم وإنما هم :  
آساد موت مخدرات ما لها      إلا الصوارم واللنا آجام  
ومن الملاحظ في غالبية تشبيهات أبي تمام عدم استعماله للأنثى - كما  
سبق - وإن استعملها كانت ( كأن ) ومن المعلوم أن ( كأن ) أقوى وأبلغ في  
الدلالة على الحاق المشبه بالمشبه به من غيرها أسمع إليه يقول في مدح خالد  
الشيلى :

ولما رأى توفيل راياتك النسي إذا ما اتلايت لا يقاومها الصلب  
تولى ولم يأل الردى فى اتباعه كأن الردى فى قصده هائم صلب  
كان بلاد الروم عمت بصيحة فضمت حشاها أورغا وسطها السقب

إن الإنسان حين يسمع هذه الأبيات وما فيها من تشبيهات توحى بالحركة  
في اقتفاء الموت لأثر (تيوفيل) الرومى وبالصوت الشديد في صياح ولد الناقة  
ليخيل إليه أن أبا قام قد استوعب جميع صور التشخيص والتجسيم والخيال  
الرائع مع إلحاحه الشديد على الجانب الحسى من الصورة التشبيهية .

اسمع إليه يقول في فريته في فتح عمورية غاصبا المعتصم :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب  
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب  
فيجعل ليل عمورية يتحول إلى ضحى بل إلى صبح تلوح فيه التباشير  
أو كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها ، أو كان هذه الصورة تشبه يوم يوشع الذى  
ورد في قصته أن الشمس تأخرت له عن مغربها .

ومن التشبيهات الدقيقة الرائعة قوله في وصف ريع (عمورية) :

ما ريع مية معمورا يطيف به غيلان أبهى ربي من ريعها الحرب  
ولا الحدود وقد أأمين من خجل أشهى إلى ناظر من خدها الترب  
وشبه ريع (عمورية) على ما به من الخراب وما أصابه فى خدوده من  
خدوش النار وتشويه الدخان بريح ( مية ) في عين ( نى الرمة ) الذى عاش يتعبد  
جمالها ويتغنّى بوصفها ومع أن الحرب والنار والدخان والخراب أشياء كريهة  
سمجة ؛ إلا أنها - بفضل ذلك التشبيه - تصبح أجمل وأبعد منظر يطمئ الإنسان  
رؤيته .

وفي رثائه لابن حميد الطوسي يقول :

ونفس تعاف العار حتى كأنه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

ويجعل العار (الفرار من الميدان) هو الكفر بل لعل الكفر دونه

وفي القصيدة نفسها يقول :

كأن بنى نيهان يوم وفاته      نجوم سماء خر من بينها اليدر  
قال أبو بكر الصولي<sup>(١)</sup> ومن أعجب العجب وأفضع المنكر أن قوما عابوا قول أبي تمام :  
كأن بنى نيهان ..... البيت

فقالوا : أراد أن يمدحه فهجاه كأن أهله كانوا خاملين بحياته فلما مات

أضاءوا بموته وقالوا : كأن يجب أن يقول كما قال الخزيمي<sup>(٢)</sup> :

إذا قمر منهم تغور أو خبا      بدا قمر في جانب الأفق يلمع  
ولكن الصولي رد عليهم رداً عنيفاً واتهمهم بالعصبية على أبي تمام وانحراف  
حكمهم فقال ( ولا أعرف لمن صح عقله ، ونفذ في علم من العلوم خاطره عذرا  
في مثل هذا القول ولا أعذر من يسمعه فلا يرد عليه اللهم إلا أن يكون يريد عيبه  
والطعن عليه ولم يعرض من يذهب عليه لعلم الشعر والكلام في معانيه وتميز  
الفاظه ؟ أنراهم يظنون أن من فسر غريب القصيدة أو أقام إعرابها أحسن أن  
يختار جيدها ويعرف الوسط والدون منها ويميز بين ألفاظها ؟

والمعنى الذي أراد أبو تمام ليس ما أراد الخزيمي لأن أبا تمام قصد  
التفضيل في السؤدد والخزيمي أراد التسوية فيه وأبو تمام يقول : مات سيد وقام سيد  
دونه ثم ختم حديثه بقوله ( وفي ذلك كفاية لمن خلع ثوب العصبية وأنصف من  
نفسه ونظر بعين عقله وتأمل ما قلت بفكره ) .

١- أخيار أبي تمام / ١٢٦ .  
٢- أبو يعقوب : اسحاق بن حسان المعروف بالخزيمي ، من شعراء الدولة العباسية (تاريخ بغداد  
١٣٢٦ / ٦) .

والصولى في رده على عائش أبى تمام قد أنصفه وأنصف الحقيقة معه ،  
فالببيت وفي المعنى المراد من تفضيل المتوفى عن بقية قبيلته وأهله في السؤدد  
والمجد فقد أراد أبو تمام تفضيله عليهم وإن كانوا أفاضل وليس ضياء البدر يذهب  
بالكواكب جملة ولكن المستضيئ به أبصر من المستضيئ بالكواكب فإذا فقد البدر  
استضاء بها وهى دونه ، وكان أبا تمام قال : إن ذهب البدر منهم فقد بقيت فيهم  
الكواكب .

والتشبيه في فخره لا يقتل روعة عنه في سايته اسمع إليه وهو يفتخر بقومه :  
أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم وسمى فيهم وهو كهمل وبافع  
وبعد هذا البيت بيتين يقول :  
نجوم طوالع جبال فوارع غيوث هوامع سيول دوافع  
ويأتى بتشبيهات جميلة زاد من جمالها مزجها بألوان البديع كالسجع  
وحسن التقسيم وكأن الأفكار تدور في وعاء التصوير ( التشبيه ) البيانى ثم يغمس  
في أصباغ البديع فيعطى مزيجا جميلاً تسكن إليه النفس .

ثم يواصل ذلك ويقول :  
مضوا وكان المكرمات لسيدهم لكثرة ما أوصوا بهن شرائع  
أرايت كيف جعل المكرمة خلقاً لأهله شريعة ومنهاجا تتبع لمن بعدهم ؟  
وعلى هذه الشاكلة تسير تشبيهات أبى تمام .

#### الاستعارة

وهى لون من ألوان المجاز احتاج إليه كلام العرب لوفرة ألفاظهم على  
معانيهم وهى قائمة على التوسع في مدلولات الألفاظ متى كان هناك مشكلة

ومشابهة بين المستعار منه والمستعار له ومتى كان هناك كما يقول الإمام عبد القاهر: (اعتماد على الأفهام لا الأسماء والأذان)<sup>(١)</sup>.

(ومن المعروف أن الاستعارة ليست زخرفة للعمل الشعري أو نقشاً عليه ذلك لأنها لحمه ودمه ، وحاملته إلى الأفاق البعيدة والأعوار العميقة وهي في الوقت نفسه تنظم العمل الشعري وتحدث نوعاً من التزاوج والتفاعل - في حالات التوافق والتضاد - بين المشبه والمشبه به بحيث يكون من المستطاع إدراك علاقة عامة تكمن تحت الظواهر وتنتظمها جميعاً)<sup>(٢)</sup>.

وقد جعل النقاد ميزان الاستعارة هو ميزان القدماء لها فما تعارفوا عليه وألفوه وما ورثناه عنهم - هو المقياس الصحيح والميزان المقبول وتوصف الاستعارة بالجودة وتوسم بالقبح بقدر قربها أو بعدها من هذا المعيار<sup>(٣)</sup>.

(وفي ضوء هذا قامت ثورات على أبي تمام وذلك لأنه كان ينساب على كل ميادين الاستعارة ويقف طويلاً عند الذي يستصعبه القراء والنقاد فلقد كان يستعمل منها "الكثيف" وهو استعارة الأسماء للأسماء واستعمل منها "اللطيف" وهو استعارة الأفعال للأسماء)<sup>(٤)</sup>.

وقد بلغ أبو تمام في استعاراته الغاية فقد خرج على الناس بنوع جديد من الشعر أخرجهم من عقله لا من قلبه ، فقد كان يغوص على المعاني ويعمل فيها خياله البعيد فتم له نوع من الشعر لم يسبق إليه .

١ - أسرار البلاغة ص ٤٤

٢ - أبو تمام د/ عبده بنوي ص ١٩٤ .

٣ - اشترط النقاد لجمال الاستعارة أموراً فيها - التقرب ، الرفعة ، الخصوصية ، الطرافة ، تجاهل التشبيه . فالتقريب يكون بالوضوح والبعد عن الخطأ والإحالة والرفعة : البعد عن العامية والابتذال - والطرافة هي الجودة - وتجاهل التشبيه بترك ما يشير إليه في اللفظ .

٤ - أبو تمام / عبده بنوي ص ١٩٥ .

#### خلاصة القول :

أن حسن الاستعارة يكون بمقدار ما بين المشبه والمشبّه به من التقارب والتماثل وتصوّر الجمع بينهما في الذهن ليصوّر المشبه في صورة تحقق غرض القائل ولذلك كان الأدب المسمى بالرمزي بعيداً عن البلاغة لأن الألفاظ فيه تستعمل كثيراً في معان يصعب إدراك الصلة بينهما وبين المعاني الأولى لهذه الألفاظ، وعلى ضوء هذه الموازين وعلى هدى من تلك المقاييس نناقش بعض استعارات أبي تمام مثل قوله :

هل أ ورق المجد إلا في بنى أد      أو اجتسى لولا طى ثمر  
وليس من شك في أن هذا تشخيص رائع فهو يتصور المجد شجرة تخرج الأوراق والثمار ويقول :

يا دار دار عليك إرهام الندى      واهتز روضك في الندى فترأدا  
وكسيت من خلع الحيا مستأسدا      أنفا يغادر وحشه مستأسدا  
وواضح أنه يمثل الدار امرأة تتمايل في خلع الربيع وكأنها عروس تتننى في حليها وتتكسر في زينتها، وقد ذهب أبو تمام يعمم هذا التشخيص في جميع صوره وأفكاره ولم يقف به عند هذا الجانب من شعر الطبيعة بل نشره في جميع جوانب شعره<sup>(١)</sup>.

اسمع إليه يقول في مدح أحمد بن عبد الكريم الطائي :

شق الربيع مضايق الحجب      وبدا بوشى شقائق قشب  
ولما بكت مقل السحاب حيا      ضحكت حواشى خذه الترب  
والبيت الأخير طريف جد الطرافة إذ جعل الشاعر للسحاب مقل تبكى وجعل له خدودا تضحك وليس من شك في روعة هذا التشخيص بيد أننا لا بد أن

(١) - الفن ومذاهبه ص ٢٣٥ .

نعلم ( أن هذا الصنيع كان محور حملة شديدة عليه حملها النقاد والمحافظون من أمثال الأمدى وقد فتح فصلا في كتاب " الموازنة " استعرض فيه طائفة من أبيات هذا الصبغ وصفها بالقبح غير أن القبح عند الأمدى لا يعنى قبح الصورة إنما يعنى - كما يقول - خروج أبى تمام على تقاليد العرب في استخدام الاستعارة إذ هم يستخدمونها فيما يقارب المشبه ويدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو يكون سبباً من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لا ثقة بالشئ الذى استعيرت له وملائمة لعناه ، ولعل التبريدى كان أكثر دقة من الأمدى حين قال : إن أبا تمام له مذهب خاص في الاستعارة وما دامت المسألة مسألة مذهب فقد كان يحسن بالأمدى وأمثاله من النقاد المحافظين أن يخضعوا لهذا المذهب الجديد وأن يعرفوا أن هذا نوع آخر في الاستعارة ليس هو الاستعارة المألوفة .

وهنا سؤال يطرح نفسه ألا وهو :

هل ينبغى على الشاعر دائماً أن يقف عند حدود الذوق القديم ؟ وهل ليس من حقه أن يترجم مذهباً لبدع جديد ؟ ! وما أجمل تعليق الدكتور / ضيف على ذلك حين قال : ( ومهما يكن فقد كان أبو تمام يحاول أن يبتكر في الصور وأن يغرب فيها ، وما فائدة الرقى العقلى الحديث الذى أصابه الشاعر العباسى في القرن الثالث إن لم يستوعب في شعره مثل هذه الصورة الجديدة ؟ )<sup>(١)</sup>

وهل لشاعر يلعب العمق والخفاء في شعره وتلعب الفلسفة والثقافة في فنه

أن يعبر تعبيراً مألوفاً ؟!

ولا يزال أبو تمام يفنن بهذا الخيال الرائع الذى تنتقل في مياحه فيصور

"تيوفيل" وقد فر من وجه أبى سعيد الثغرى فيقول :

١ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٢٩ .

فمر ولو يجارى الريح خيلت      لديه الريح ترسف فى القيود  
فيعقد بذلك مقارنة بين سرعة تيوفيل معنا في الهرب ، وسرعة الريح فتظهر  
الريح كأنها ترسف في القيود .

ويقول :

وقد كانت الأرماع أبصرت قلبه      فأرمدها ستر القضاء الممدد  
فجعل الرماح تبصر ، ورشح ذلك بذكر الرمد في البيت فما أجمل هذا  
التشخيص الذى استخدمه الشاعر في هذا البيت ومن قبله التجسيم في البيت  
السابق ، ويتجلى ذلك في قوله - والبيت في قصيدته في فتح عمورية " .  
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد      شابت نواصى الليالى وهى لم تشب  
فجعل لليالى نواصى وجعل النواصى تشيب امتدادا للصورة ، وعلى هذه  
الشاكلة شاعت الاستعارات في شعر أبى تمام الذى استطاع عقله أن يحيلها  
ويطوعها وفق مراده ويمزجها بالتصوير حتى لتحس أنه يرسم صورة قلمية - لا  
تقل في دلالتها وإيحائها عن تلك الصور الزيتية - لإيصال ما أراد لقارئه وسامعه .  
اسمع إليه يقول :

كم بين حيطانها من فارس بطل      قانى الذوائب من أنى دم سرب  
يمسنة السيف والحناء من دمه      لا مسنة الدين والإسلام مختضب  
لقد تركت أمير المؤمنين بها      للزاريوما ذليل الصخر والخشب  
يقول الدكتور / ضيف : ( وإذا مضينا في القطعة وجدناه يعنى بالتدبيح إذ  
يقف عند الدم السرب وحينئذ يعمد إلى المقابلة فهذا الخضاب على الرؤوس ليس  
خضاب سنة وإنما هو خضاب سيوف وأنت ترى في ذكر السنة هنا شيئاً من  
العناصر الإسلامية ثم يتحدث عن اليوم الذى حرقته فيه عمورية فيصفه بأنه يوم  
ذليل الصخر والخشب وهى ذلة غريبة فكيف يذل الصخر والخشب ؟



ولكنه عنصر عريب يستغله في التعبير عما أصابها من ذلة وهو إذ يرى العرب يقولون فلان اذل من الودد<sup>(١)</sup> ويضيف قائلا:

( أرايت كيف يمكن استغلال العناصر البدوية القديمة في الرمز والتعبير عن الأفكار الحديثة ؟ لقد كان أبو تمام زعيم المجددين في عصره ولكنه لم يكن يعتمد في تجديده على رفض العناصر القديمة بل كان يستعين بها في فنه كما كان يستعين بكل ما يمكن من العناصر الحديثة فلسفة وغير فلسفة )<sup>(٢)</sup>.

وفي قصائد أبي تمام ترد الأخيلة البارعة جنباً إلى جنب مع المحاسن البديعية في نسيج متين لا خلل فيه كاللحمة وسداها أو كالقلائد يصوغها الصائغ الحذق وذلك مثل قوله :

وسائل عن أبي حفص فقلت له      اممك عنائك عنه إنه القدر  
هو الهمام هو الصاب المريح هو الـ      حتف الوحي هو الصمصامة الذكر  
فتى تراه فتنفى العسر غرته      يمنا وينبع من أسرارها اليسر  
فنراه بعدما شبه عمر بن عبدالعزيز الطائي بالقدر وبالهمام والصاب  
وبالموت السريع وبالسيف الصارم يأتي بضرب من التجنيس ظريف فيقول " فتى  
تراه " فنون " فتى " وهو بذلك يكون مشابهاً لصدر قوله " فتنفى " وهو من  
تجنيس التركيب لأنه ركب الفاء مع التاء والنون من " تنفى " فصار في لفظ قولك  
" فتى " إذا نونت وفي مدحه بنى عبد الكريم الطائي نراه يكرر بعض الألفاظ  
قاصداً بذلك لونا من ألوان بديعه وهو ما يسمى رد الأعجاز على الصدور كما أطلق  
عليه القدماء وذلك على شاكلة قوله :

أدار البؤس حصنك التصابي      إلى فصرت جنات النعيم

١- الفن ومذاهبه ص ٢٦٠ .

٢- السابق ص ٢٦٢ .

لئن أصبحت ميدان السواقى      لقد أصبحت ميدان الهموم  
وقوله :  
يكاد نداء يتركه عديما      إذا هطلت يداه على عديم  
وهذا اللون من البديع يشيع فى شعر العروبة عنده مدحاً ورثاء وفخراً وذلك مثل  
قوله :  
غريم للملم به وحاشى      نداء من مماظلة الغريم  
سفيه الرمح جاهله إذا ما      بدا فضل السفيه على الحليم  
وقوله :  
نعم الفتى عمر فى كل نائبة      نابت وقلت له " نعم الفتى عمر "  
وقوله :  
من كان أحمد مرتعا أو ذمه      فاشه أحمد ثم أحمد أحدا  
أضحى عدوا للصديق إذا غدا      فى الحمد يعذله صديقا للعدا  
وقوله :  
سافر بطرقك فى أقصى مكارمنا      إن لم يكن لك فى تأسيسها سفر  
وهكذا يكثر التكرار فى شعره ولكنه لبس من قبيل الهذيان باللفظ الواحد  
إطالة للقول ، ولا سترا لخلعة العجز حين يفتقر القائل الى الفكرة بل تجميل منه  
لأسلوبه بالمحسنات البديعية معنوية كانت أو لفظية موسيقية .  
( ونحس كأن الشعر أصبح تنميكا وزخرفا خالصا فكل بيت فى القصيدة  
إنما هو وحدة من وحدات هذا التنميق والزخرف وهوليس زخرفا لفظيا فحسب  
بل هو زخرف لفظى ومعنوى يروعا فيه ظاهره وباطنه وما يودعه من خفيات  
المعانى وبراعات اللفظ )<sup>(١)</sup> .

١ - الفن ومذاهبه فى الشعر - شوقي خفيف ص ٢٢٢ .

يقول ابن المعتز عن أشعار أبي تمام: ( إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة وأكثر ما له جيد ، والردئ الذي له إنما هو شيء يستغلق لفظه فقط ، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا ، وقد أنصف الباحث لما سئل عنه وعن نفسه فقال : جيده خير من جيدي وريثي خير من رديته وذلك لأن الباحث لا يكاد يغلظ لفظه ، إنما ألفاظه كالعسل حلوة فأما أن يشق غبار الطائي في الحدق بالمعاني والمحاسن فهيهات بل يغرق في بحره <sup>(١)</sup>

#### الطباق

ليس بخاف أن المطابقة هي الجمع بين المعنيين المتقابلين أي أن يؤتى بالكلمة ثم بما يقابلها في المعنى فيشتد رسوخها في النفس ، ولا تكون المطابقة فنية مستحسنة إلا إذا كانت تقتضيها الفكرة ولا تجلب لمجرد الصنعة . ولما كان الضد يظهر حسن ضده كان جمال الطباق نابعا من عرض المتضادات في نسق مؤلف يثير الانتباه إلى الفكرة ، ولكل مطابقة جمال خاص بما تصفيه على الكلام من دلالات ومشاعر ، وأبو تمام كان رأس مدرسة خرجت منتصرة وسار على منوالها العديد من الشعراء وأنها كانت متناغمة مع طبيعة العصر الذي عاش فيه فالقارئ لشعره لابد أن يشحذ عقله ووجدانه ولا بد أن يوطن نفسه على أنه سيجد ما يصدمه وما لم يرد عليه من قبل ، وما يصيبه بالدوار في بعض الأحيان فهو رجل يستغرق في صناعته إلى الحد الذي تختفى فيه ملامح هذه الصنعة .

( ويجب ألا يغيب عنا أن منمبه في الشعر كان معينا للشرح والنساج والمنشدين على تحريفه وتصحيفه فقد جاء بالبعيد من المعاني والغريب من الاستعارات

١ - طبقات الشعراء ص ٢٨٦

بالإضافة إلى الألوان المتعددة من الديدع وفي مقدمتها الطبايق والجناس وكل هذا مما تعثرت به الأفهام وتلعثمت به الأقلام وكثر من أجله التأويل (١).

( يلقي الطبايق ضوءاً باهراً على شاعرية أبي تمام فلقد وجد فيه تلك الإداة الطليعة التي تقدم الكثير للتجربة الشعرية وقد ساعده على هذا أن الفلسفة في عصره قد أخذت بفكر "المضادة" التي تتقاسم النفس مبيتعة عن رأي أرسطو (٢). ومن أمثلة الطبايق في شعر العروبة عند أبي تمام قوله في مدح ابن عمرو بن عبد الكريم :

سفيه الرمح جاهله إذا ما بدا فضل السفيه على الحليم  
فإننا نرى طباقاً بين السفيه والحليم فالسفيه هو الملائش اللب الخفيف  
العقل والحليم نقيضه وقوله :

فروع لا ترف عليك إلا شهدت لها على طيب الأروم  
ويطابق بين قوله "فروع" ، أروم " والأروم هي الأصل أو الجرثومة وقوله في مدح أحمد بن عبد الكريم :

أضحى عدواً للصديق إذا غدا في الحمد يعذله صديقاً للعدا  
ويطابق فيه بين العداوة والصداقة ولم يكن أبو تمام يستخدم الطبايق استخداماً ساذجاً بسيطاً بل كان يستخدمه استخداماً معقداً إذ يلونه بأصباغ فلسفية قائمة ما تزال تغير في إطاره بل في داخله تغيرات تنفذ به إلى لون جديد مخالف للطبايق ، فإذا هو من طراز فلسفي إن صح هذا التعبير ، ففيه تناقض وفيه تضاد وفيه هذه الصور الغريبة وكان أبو تمام يستخدمه قاصداً إليه عامداً (٣).

١ - أبو تمام وقضية التجديد في الشعر / عبده بنوي ص ١٨١ .  
٢ - السابق ص ٢٠٢ والنفس عند أرسطو صورة للجسم كأي كائن طبيعي توجد مع البدن وتقني بفنائه .  
٣ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف ص ٢٥٠ .

اسمع إليه مدح عياش بن لهيعة ويقول :  
 قومت لى ما أعوج من قصد همسى      وبيضت لى ما اسود من وجه مطلبى  
 فنرى طباقاً بين التقويم والاعوجاج أولاً ثم طباقاً آخر بين البياض والسواد  
 ويقول أيضاً :  
 فاضت سحائب من نعمائه فطمست      نعماء بالبؤس حى اجتثت البؤسا  
 ويصابق بين النعمى والبؤس وسار أبو تمام يورد العديد من صور الطباق  
 في أبياته من مثل قوله في مدح الخليفة المأمون :  
 فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه      حسن اليقين وقاده الإقدام  
 وقوله :  
 ملأ الملا عصبا فكاد بأن يرى      لا خلف فيه ولا له قدام  
 وقوله في مدح خالد الشيباني :  
 فتى عنده خير الثواب وشره      ومن الإباء الملح والكرم العذب  
 وقوله :  
 جفا الشرق حتى ظن من كان جاهلا      بدين النصارى أن قبلته الغرب  
 ويتصل بالطباق كذلك ما يسميه البلاغيون "السلب والإيجاب" وهو أن  
 تبني الكلام على نفي الشئ من جهة وإثباته من جهة أخرى كتوله :  
 وقائع أصل النصر فيها وفرعه      إذا عدد الإحسان أو لم يعدد  
 وكما أكثر أبو تمام من استعمال الطباق في مدحه فإنه كذلك لم يقلل من  
 استعماله في رثائه إبرازاً لعاطفته الجياشه من حزنه على أبطال العروبة الذين  
 سقطوا شهداء فى ميدانها كأن يقول في رثائه خالد الشيباني :  
 كأننا فقدنا ألف ألف مدجج      على ألف ألف مقرب لا مباعد  
 فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسة      ووحدة من فيها لمصرع واحد

وقوله في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر  
وربما استخدم أبو تمام مع الطباق ما يسمى " التدييج " وهو أن يذكر  
في معنى من المدح أو غيره ألوانا بقصد الكناية أو التورية وقد استخدم أبو تمام هذا  
اللون تعبيراً عن أفكاره البعيدة على نمط ما يقوله في رثاء ابن حميد الطوسي :  
تردى ثياب الموت حمرا فما أُنسى لها الليل إلا وهي من سندس خضر  
فقد جنح الشاعر إلى التدييج يستمد منه ما يريد من الرمز عن أفكاره ، ألا  
تراه يعبر عن قتل ابن حميد بتلك الثياب الحمراء التي غرقت في أصباغ الدم على  
سبيل الكناية حتى إذا دجى الليل وأظلم القبر صارت تلك الثياب سندسية  
خضراء ليكني بذلك عن رضوان ربه ودخوله الجنة .

\* وفخر أبي تمام كذلك لم تخل صفحة من صفحاته إلا وظهرت فيها هذه  
الأضداد إذا اعتمد على التدييج أيضا في التعبير عن أحوال الجود في أهله وعشيرته.  
اسمع إليه يقول :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم وسمى فيهم وهو كهيل ويافع  
كل هذا يظهر - كما يقول عبد العزيز الجرجاني : ( إن للمطابقة شعبا خفية  
وأنة ربما التبسست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف )<sup>(١)</sup>.

وقد يكون الطباق عند أبي تمام بسيطا غير مكثف كقوله :

تصدت وحيل البين مستحصد شزر وقد سهل التوديع ما وعر الهجر  
وكتوله :

لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت وبطنانها من ظهرانها تبر  
وقوله :

مقاماتنا وقف على الحلم والحجى فأمردنا كهيل وأشيبنا حبر

١ - الوساطة ص ٢٤ .

وقوله :

ليُنتج بجود من أراد فإنّه عوان لهذا الناس وهو لنا بكر<sup>(١)</sup>  
وأخيرا فإن فكرة التضاد عند أبي تمام تقوم على ناحية جمالية أساسها  
التعادل في العبارة والتوازن بين جميع أجزاء الجملة .

١ - العوان: من البقر وغيرها : النصف في سنها ، وقيل العوان من البقر والخيول التي تلجت بعد بطنها  
البكر - لسان العرب ج ٤ ص ٣١٧٩ ط دار المعارف .

### المبحث الثالث الموسيقى الشعرية

الموسيقى الشعرية، -

عنصر الموسيقى من أهم المقاييس في ميدان النقد والتقويم ؛ وما ذلك إلا لأن العمل الفني مزيج من اللفظ والعبارة والصورة الشعرية ولكل من هذه الأشياء دوره في تكوين ذلك النسيج المتداخل المكون للعمل الفني ، وإلى تلك العناصر جميعا يضاف عنصرا للموسيقى لكي يكتمل البناء الفني ومن خلاله نستطيع معرفة مدى قدرة الشاعر على الملازمة بين عواطفه وموضوعه ، حيث إن هناك من يضرب على وترية واحدة ويلبس جميع الموضوعات لبوسا واحدا ويوقعها على نبرة واحدة ، وهناك من يعدد هذه الأنغام بحسب ما يجيش بها خاطره دون تفكير في شط معين ، والموسيقى عنصر حيوي من عناصر الصياغة الشعرية ، له أثره البالغ في التأثير النفسي ، إذ أن الشعر ' موسيقى ذات افكار ' وليست الموسيقى مجرد قالب خارجي تصب فيه التجربة ، بل هي أثر من اثار العاطفة ، لأنها تدرك بالاحساس ، وهي أيضاً من اقوى وسائل التأثير في الشعرولا يخلو الشعر أيا كان نوعه من هذه الموسيقى ؛ ظاهرة كانت أو خفية ؟

فالظاهرة : ما يرجع إلى الوزن والقافية ، وأنواع من البديع كالجناس وكل ما له جرس صوتي نحسه الأذان كحسن التقسيم والتصريع .

والخفية الداخلية : هي التي تشيع في كل القصيدة ، ولا يتحدد موضعها ، وهي التي تمثل - بحق - روح الشاعر وبراعته وتنبع من اختيار الشاعر لألفاظ ذات وقع خاص ، وحسن تنسيقها وترابط الأفكار وروعة التصوير ، وقد فطن العرب القدامى إلى تلك الموسيقى التي تظهر في تجانس الحروف



وملائمة الكلمات لبعضها داخل القصيدة ولهذا وضعوا لها ضوابط في الشعر والنثر وضبطوا من القصيدة عروضها وقوافيها في علمين مستقلين . يقول الدكتور / شوقي ضيف : ( على أن موسيقا الشعر لم يضبط منها إلا ظاهرها ، وهو ما تضبطه قواعد علمي العروض والقافية ووراء هذه الموسيقى الظاهرة ، موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات ، وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء )<sup>(١)</sup> . إذن فالموسيقى الظاهرة وكذلك الخفية صنوان لا يفترقان في إحداث التأثير النفسى لدى المتلقى ، وأبو تمام من الشعراء البارزين الذين وضحت في شعرهم موسيقى اللفظ والعبارة والبيت بالإضافة إلى الوزن والقافية يقول الدكتور / عبد بدوى ( والثابت أن موسيقى أبى تمام كانت ريانة ومسترسلة حين يطلق لوجدانه العنان ولكن حين يتحكم فيها العقل نحس بنوع من الخفوت والرتوب الموسيقى ، وبخاصة حين ينساق الشاعر - كالمغيب - وراء محفوظه الكثير من التراث<sup>(٢)</sup> ) وفيما يلي بيان لمسببات الموسيقى في شعر العروبة عند أبى تمام .

#### الوزن

منذ وجد الشعر وجدت معه الأوزان فالشاعر لا ينطق بكلامه في لغة عادية وإنما ينطقه موزوناً<sup>(٣)</sup> وللوزن قيمة كبرى في الشعر ، حتى عد أهم فارق بينه وبين النثر ، حيث عرف النقاد القدامى الشعر بأنه " الكلام الموزون المقفى " فحددوا بذلك عناصر أساسية في كيان الشعر منها " الوزن " وهو قالب موسيقى راقص ،

١ - في النقد الأدبي ص ٩٧ ط دار المعارف .

٢ - أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٥٢ .

٣ - في النقد الأدبي / شوقي ضيف ص ٩٩ ط دار المعارف .

عبارة عن وحدات صوتية خاصة والبحث في أوزان الشعر من حيث أصولها وقواعدها لا يعنيننا هنا بقدر ما يعنيننا تناول الوزن باعتباره ظاهرة موسيقية من ألزم العناصر للغة الشعر وأسلوبه ، ومن أدق مقاييسه النقدية <sup>(١)</sup> .

أما عن الموسيقى الشعرية عند أبي تمام فإننا نلاحظ أنه استخدم البحور الطويلة بكثرة - بحيث تتضاءل أمامها نسبة البحور القصيرة ، ومن البحور الطويلة التي استخدمها أبو تمام .

١- بحر الكامل <sup>(٢)</sup> ومنه قوله في مدح أحمد بن عبد الكريم :

يا دار دار عليك إرهام الندى      واهتز روضك في الثرى فترأدا

٢- بحر البسيط <sup>(٣)</sup> ومنه قوله في مدح عمر بن عبد العزيز الطائي :

يا هذه أقصرى ما هذه بشر      ولا الخرائد من أترابها الآخر

٣- الوافر <sup>(٤)</sup> ومنه قوله في مدح بني عبد الكريم الطائي :

أرامة كنت مألّف كل ريم      لو استمتعت بالإنس القديم

٤- الطويل <sup>(٥)</sup> ومنه قوله في الفخر بقومه :

تصدت وحبل البين مستحصد شزر      وقد سهل التوديع ما وعر الهجر

٥- الخفيف <sup>(٦)</sup> ومنه قوله في مدح أبي سعيد الثغري :

من سجايا الطللول ألا تجيبا      فصوب من مقلّة أن تصوبا

١ - أصول النقد الأدبي / أحمد الشايب ص ٣١٨ بتصرف ط النهضة المصرية الحديثة.

٢ - من البحور ذوات التفعيلة الواحدة المكررة ، وأجزاؤه هي متفاعلات ست مرات في كل شطر ثلاث.

٣ - من البحور ذوات التفعيلتين المكررتين وأجزاؤه هي مستعلن فاعلن - مستعلن فاعلن - مرتين.

٤ - من البحور ذوات التفعيلة الواحدة المكررة وأجزاؤه هي متفاعلتان ست مرات في كل شطر ثلاث.

٥ - من البحور ذوات التفعيلتين المكررتين وأجزاؤه هي فعولن - مقاعيلن - فعولن - مقاعيلن مرتين.

٦ - من البحور ذوات التفعيلات المختلفة ، وأجزاؤه هي فاعلاتن مستعلن لن - فاعلاتن - مرتين.

٦- المتقارب<sup>(١)</sup> ومنه قوله في رثاء خالد الشيباني:

نعاء إلى كل حصى نعاء      فتي العرب احتل ربع الفناء  
ومن البحور القصيرة التي استخدمها - بحر الرجز المشطور<sup>(٢)</sup> وذلك حين  
افتخر على رجل من تميم قائلا:

لما رأيت الأمر أمرا جدا

ولم أجد من القيام بدا

من هذا نعلم أن أبا تمام كان في أوزانه محافظا على ما اثير عن العرب  
مستخدماً للبحور الطويلة حين يتطلب المقام الإطالة مدحا وفخرا ورثاء  
ومستخدماً للبحور القصيرة حين يتطلب المقام الإيجاز والقصر.

#### القافية

وهي العنصر الثاني من العناصر التي تشكل إيقاع الشعر العربي بعد الوزن  
وهي عبارة عن اتفاق المقطوعة أو القصيدة في الحرف الأخير وفي صورته " أي  
الحركة التي تشغله من ضم أو فتح أو كسر أو سكون ( ولم تعرف لغة من اللغات  
القديمة كل هذا النظام الدقيق للشعر وإيقاعاته واختتام هذه الإيقاعات بالقوافي .  
ولعل ذلك كان أهم سبب في أن الشعر العربي ظفر بكل شعر لقيه بعد الفتوح  
الإسلامية )<sup>(٣)</sup> والقافية من لوازم الشعر العربي وجزء من موسيقاه بها تتم وحدة  
القصيدة وتتحقق الملاءمة بين أواخر أبياتها ، وقد درج الشعر غالبا على وحدة  
الوزن والقافية في كل قصيدة حتى عصرنا الحديث .

١ - من البحور نوات التفعيلة الواحدة المكررة وأجزاؤه هي فعولن - فعولن - ثماني مرات في كل شطر  
أربع.

٢ - من البحور نوات التفعيلة الواحدة المكررة وأجزاؤه هي مستعلن ثلاث مرات.

٣ - في النقد الأدبي - ص ١٠٢ .

( وكأن الشعراء أحسوا في عمق أن هذا النظام أرفع ما يصل إليه الشاعر في تعبيره الموسيقى الذي يؤثر به في العقول والقلوب والافئدة فالألحان تنفرج وتبتعد لتتلاقى في نسق صوتي يأخذ بعضه بتلابيب بعض ، نسق ينتهي دائما بقافية واحدة )<sup>(١)</sup>.

ومن حيث القافية عند أبي تمام – نلاحظ أن أبا تمام لم يتخلص من القافية نهائيا إذ أنها تمثل عنده بعداً موسيقيا أثيرا ، وقد كان أبو تمام في حفاظه على القافية يتّوَع ما بين حروف الروى التي تبني عليها القصائد ليخلق بذلك جوا من الألفة بين موضوع القصيدة وبين الحرف الذي تختتم به الأبيات وجوا من الألفة بينه وبين المتلقى .

#### موسيقا العبارة والبيت

قد تتسبب العبارات في إحداث موسيقا في القصيدة ، هذه الموسيقى تنبع من فقرة معينة أو جملة خاصة أو شطرة أو ربما البيت كاملا .

ولاشك أن للالفاظ داخل العبارة أثرا واضحا في إحداث الموسيقى بل إن حركات الالفاظ لها دورها الكبير في تلك الموسيقى ألا ترى أثر (التنوين) في قوله :  
\* فتى تراه فتنفى العسر غرته \*

وكيف أحدث التنوين موسيقى بين الأسم ( فتى ) والفعل (فتنفى) وهو ما يسمى (الجناس) :  
وقوله :

لكل من بنى حواء عذر ولا عذر لطائي لئيم<sup>(٢)</sup>  
وقوله :

والعيب منتقّب وإن لها وجهاً نقيّاً غير منتقّب

١ - السابق من ١٠٣ .  
٢ - لا عذر خطأ - والصحيح لا عذر لأن ( لا ) نافية للجنس عاملة عمل إن النافية لتوافر شروطها.

وصداقها غال ولا عجب إذ حسنها عجب من العجب  
فترى أن التنوين لعب دورا في تكوين موسيقا الأبيات السابقة في قوله  
(فتى - عذر - مكررة - منتقبة - وجهها نقيا - غال - عجب (مكررة) وهذا كثير  
ما يقع في شعره ، وأيضا فقد يذكر اللفظ في البيت أكثر من مرة سواء على نفس  
صورته أو في صورة أحد مشتقاته وقد أغرم بذلك كثيرا وولع به حتى لنجده يكرر  
اللفظ في بيت واحد أكثر من مرة على شاكلة قوله :

من كان أحمد مرتعا أو ذمة فإله أحمد ثم أحمد أحدا  
فيذكر الفعل (أحمد) أكثر من مرة ويجانس بينه وبين اسم الممدوح (أحمد)  
فمع هذا التوزيع الموسيقى للفظ الناتج من تكراره نجد موسيقا التقديم والتأخير  
في قوله (فإله أحمد) وكذلك موسيقا الجنس بين (أحمد - أحمد) ومثل ذلك  
نراه في قوله :

وأنا الفداء إذا الرماح تشاجرت لك والرماح من الرماح لك الفدا  
ومثل قوله في عقب ذلك البيت :  
وسلمت أنا لا تزال سؤالما آمالنا بك ما سلمت من الردى  
فكرر اللفظ في صورة بعض مشتقاته (سلمت - سؤالما) ومثال آخر من  
التكرار نراه في مدحه لعياش إذ يقول :

أخر أزمات بذله بذل محسن إلينا ولكن غدره غدر مذنب  
فتحس في هذا التكرار ضربا من التوزيع الموسيقى للفظ فيه تساوت تقسيم  
دقيق يفتقده ذلك الضرب السابق من التكرار ، ومع موسيقا التكرار نرى موسيقا  
أخرى ، وهى موسيقا التصريع أو الجنس أو غيرها لقصد إعطاء ذهن المستمع  
شحنة موسيقية يدرك بها تساويا في النغم بين الشطرين أو بين اللفظتين ويغلب  
ذلك في بدايات قصائده من مثل قوله :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

وقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب      في حده الحد بين الجد واللعب  
وبجانب التصريح بجانس بين الحد والجد ويقدم الجار والمجرور في حده  
لافادة القصر ويفصل بين الجملتين لاتحادهما في الخبرية والأولى منهما مثيرة  
لسؤال صلحت الثانية أن تجيب عن هذا السؤال وهو ما يسمى عند البلاغيين "   
شبه كمال الاتصال " ويأتى التصريح في أول القصيدة فقط بل قد يأتى به في وسط  
القصيدة تشظيراً للآيات أو إتماماً لموسيقى التصريح الأول يقول :

يا دار دار عليك إرهام الندى      واهتز روضك في الثرى فترأدا  
وكسيت من خلع الحيا مستأسدا      أنفا يغادر وحشه مستأسدا  
يقول بعض شراح ديوانه وهو " المعرى " ( وليس التصريح في غير الأوائل  
فضيلة وإنما أخذ من مصراعى الباب ، وقال بعض المتكلمين في هذا الفن إنما بدء  
بالتصريح في أول القصيدة لأن القائل أراد أن يعلم السامع أن كلامه منظوم فجاء  
بكلمة تدل على أنه مقف )<sup>(١)</sup>.

وفي قصائد أخرى نرى ضروباً وأشكالاً لذلك النوع من الصنعة المولدة  
لموسيقى اللفظ ، يقول في قصيدة ينخر فيها بتمسه ويقومه :

نجوم طوالع جبال فوارع      فيوث هوامع سيول دواقع  
مضوا وكان المكرمات لديهم      لكثرة ما وصوا بهن شرار  
نجد أن الشاعر قد راجع بين التصريح وحسن التقسيم ومضموماً إليهما أربع  
تشبيهات بليغة غاية في الروعة وكذلك السجع الذى يلعب بالأفهام لما يحدثه من  
موسيقى مؤثرة تطرب لها الأذان ، وتهش لها النفس فتقبل عليها دونما ملل ، لقد

١- شرح الديوان / ٢ / ٣٢٢ .

أتى الشاعر بالبيت الأول مقسم إلى فقرات متساوية متشاكلة المقاطع متشابهة الأوزان متناسقة النغم ، وهذا كله مؤداه ربط الكلام وتلاحمه .

ثم أتى في البيت الثاني بالتشبيه مضموما إليه القصر الناتج من تقديم ما حقه التأخير ، وكأننى بأبى تمام وقد أراد أن يستظهر مقدرة الأديبة على تلاعبه باللفظ فهو يقدم ويؤخر بين لفظة وأخرى ويقابل كذلك في الموسيقى بين شطر وآخر ، حتى لتكاد نحس تساويا تاما بين الشطرين ، وأبو تمام بذلك باع من دعة التجديد فى الشعر العربى ، وشعره يحفل بالعديد من الصور الجديدة المبتكرة . ولذلك نزل شعره كالصاعقة على رؤوس أعدائه الذين يرون شعره مجافيا لمليح الشعر العربى ، وهو بذلك أيضا رائد لمدرسة فى الشعر العربى تجمع بين خصائص الشعر القديم وتمزج به الثقافة المكتسبة فى العصر الذى حفل بالعديد من الثقافات

وبائما يقدم أبو تمام صورة له ولشعره – ربما كان ذلك راجعا إلى إحساسه بالتفرد عمن حوله – أو ربما كان لإحساسه بالاعتراب عمن عايشهم ولا يقدرون شعره حق قدره يقول :

فمن شاء فليفخر بما شاء من ندى      فليس لحي غيرنا ذلك الفخر  
● ملحظ آخر له أثره فى موسيقى الشعر

وهذا الملحظ هو الأثر النابع من الناحية الصوتية عند إنشاد الشعر فمخارج الحروف ووضعها فى موضعها الصحيح ، وخاصة فى حالات التثنية والجمع واستخدام نون النسوة وحالات أخرى مشابهة ، تجعل الجرس الموسيقى يؤثر فى موسيقى القصيدة نفسها .

ولعل هذا ما جعل بعض الشعراء يتخذ لنفسه غلاما ينشد شعره وبخاصة إذا كان صوت الشاعر نفسه ليس معينا على إظهار ما فى شعره من جمال صوتى كان تكون عنده حبسة أو قمتة ..... الخ.

ومما جاء في وصف أبى تمام كان أبو تمام طويل القامة ، أسمر اللون ، فيه قمتة يسيرة ( فإذا أنشد استوى لسانه ، وكان لفظه لفظ أعراب )<sup>(١)</sup> .

إذن فالناحية الصوتية لها دور جد مهم في موسيقى الشعر ، يقول العقاد ( وهذا الإعراب المفصل في هذه اللغة الشاعرة هو آية السليقة الفنية في التراكيب العربية المفيدة ، توافرت لها جمل مفهومة بعد أن توافرت لها حروف تجمع مخارج النطق الإنسانى على أفصحها وأوفاهها وبعد أن توافرت لها مفردات ترتبط فيها المعانى بضوابط الحركات والأوزان .

فليس أوفق للشعر الموزون من العبارات التى تنتظم فيها حركات الإعراب وتتقابل فيها مقاطع العروض وأبواب الأوزان وعلامات الإعراب ، فإن هذه الحركات والعلامات تجرى مجرى الأصوات الموسيقية وتستقر في مواضعها المقدورة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع ، ولها بعد ذلك مزية تجعلها قابلة للتقديم والتأخير في كل وزن من أوزان البحور )<sup>(٢)</sup> وبهذا نعرف أن القافية لم تقف مفردة في إحداث الموسيقى عند شاعرنا بل نراها وقد انضم إليها أوصاف أخرى شاعت في كل جزء من أجزاء الأبيات .

١ - أوراق ملحقة بشرح التبريزي لديوان أبى تمام "دار الكتب تحت رقم " ٥٠ أ د ب ش .  
٢ - اللغة الشاعرة / ٢١ الناشر مكتبة غريب - القاهرة .





## خاتمة بأهم نتائج البحث

الحمد لله نعمده وهو المستحق للحمد والثناء ، ونستعين به في السراء والضراء ونستغفره ونستهديه لما يقربنا إليه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، في جميع حالاتنا ، ونصلي ونسلم على أفضل مبعوث للعالمين وأول مشفع في يوم العرض والحساب سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبع هديه إلى يوم الدين ..... ويعد .

فقد كانت عجلة الكتابة في هذه الدراسة " العروبة في شعر أبي تمام " تسير سريعاً اقتضت الظروف أن يكون ، وربما كان ذلك بعض الأسباب في أن يكون هناك بعض التقصير أو النقص في تناول الموضوعات ، وإيفائها حقها من البحث والبيان ، وقد كنت مع السرعة التي دفعت إليها ضرورة تلك الظروف أحاول الطي والإجمال ، والإيجاز ، ثم أحاول - مع ذلك - ألا تكون الدراسة على شكل الكتابات المختصرة - أو المذكرات المدرسية ، وإنما تكون دراسة بكل ما تحمله كلمة " دراسة " من عنوان .

والتوفيق - هكذا - بين أمرين كل منهما يتعارض مع الآخر أو يناقضه . ربما كان من الأمور المتعذرة ، خاصة وأن الحديث في العصر العباسي يعذب رجعه ، ويجمل صداه ، ويحسن الاسترسال فيه ، ويتسع للإفاضة والتكرار والإعادة ، ومن حق موضوع من موضوعاته أن يستبد بجهد كبير من غير أن يعتري هذا الجهد الملل أو يستولى عليه السأم ، أو يصيبه فتور وكسل ، غير أن المنهج الذي ارتبطت به ، والخطة التي ألزمتها ، أن أعطى من الوقت والجهد شيئاً يشبه إلمام الصديق الذي لا يثقل ، والضيف الذي لا يمله المضيف ، والرفيق الذي يشقى به رفيقه ..... ويعد .

فإن جودة الشعر وحسنه ، وأخذه بتلايبب النفس وزمام القلب ، متوقف على قوة فاعليته ، وعظيم تأثيره ، ومدى روعته ، وهذه كلها إنما تجي من بناء سليم ، وجرس طيب ، وموسيقى أخاذة ، ومعنى يهز الخاطر ، ويروي ظمأ الروح ، والخيال من فوق ذلك ، وقد توافرت هذه الأشياء كلها للشعر العربي منذ أن اختلط العرب بغيرهم ، وأضافوا إلى ثقافتهم ثقافات أخرى ، فقد كان الشعر أبرز أنواع المعرفة التي استفادت من اختلاط العرب بغيرهم .

ولما كان التجديد سنة الحياة في كل جبل وقبيل كان أبو تمام من أولئك الشعراء الذي اعترف لهم خصومهم – فضلاً عن مؤيديهم – بالزعامة في عصره ، والتي لم يراحه فيها أحد ، والحق ما شهدت به الأعداء .

وأبو تمام – بالغاً ما بلغ قدره – مدين للعصر الذي نشأ فيه وللثقافات التي انتشرت في أروقته ، ومن ثم فقد استخلص منها وجدانا مشتركاً يرتكز على ثمرة القرائح الإنسانية عامة وقد أفادته قراءاته ، وكثرة محفوظه ، ومعارفه الواسعة المتنوعة على إنكاء خياله الشعري ، والإضافة إليه ، ومهما يكن من شيء فقد جاء أبو تمام في آونة ، فاستغنى وناع صيته ، ولوثأخر حتى كان في عصرنا لأكل الفقر أو أكله الفقر ، ولكنه رزق عصره قدره وقدره ، وأتاح له أن يغنى وينوح فأشجى القلوب ، وأبكى العيون ، وسرا الأصدقاء ، وكبت الحساد ، ولقد ذهبت طلي بالفخرين ، من جود حاتم على الناس ، وشعر أبي تمام ، حتى صح لنا أن نقول : إن جود حاتم على الناس قد استرده أبو تمام من الناس ، بل نيف عليه وزاد ، فلم تخسر طلي ما جادت به من مال ولكنها غنمت الحمد من وريحت الحسينين من جود البنان وجود البيان .

والحديث عن أبى تمام حديث عن شاعر استماع أن يفرض نفسه على التاريخ ، ويملى أخباره على الناس ، ويذيع على الدنيا شعره ، ويجعل لأدبه الخلود مالم يستطع سواء أن يصل إليه بقوة السيف ، ولا بسطوة الملك ، ولا بعنفوان الجاه ومهما تطاول الزمن وتوالت الأيام ، واختلفت معايير الحسب والقبح ، يبقى أبو تمام كالطود الشامخ ، لا تهدمه المعاول ، ولا تجر عليه الأجيال ذيول التغاضى والنسيان ، وإن وقف الخصوم فى وجهه وكادوا له – ولا أدل على ذلك من أننا نتحدث عنه اليوم وبعد مرور القرون الطويلة على موته ، ودع عنك قول من يقول إنه غير عربى فأولئك ما أظنهم إلا أن اعتادوا أن ينسبوا كل فضل وكل عبقرية لغير العرب ، وكأنما العروبة قد عقمت ؛ فما تستطيع أن تلد من يرفع لواءها ! ولا من يعلى بناءها ، وذهبوا يتلمسون الأدلة فى كل سبيل ، أو دعوى مغرضة ؛ تخرج من أحضان العروبة عبقرية نابهة ، وشاعرية فذة ، وخيال يطوف ما بين السماء والأرض فقد أثبت شعره غير ذلك .

\* فقد أغرم بمدح العرب دون غيرهم ، وما بين دفتى ديوانه يشهد بذلك ، وإن مدح غير العرب – مضطرا – كان ذلك فى ثنايا مديحه للعرب كما فعل فى مدحه للأفشين ، ثم إنه مدح وأعلى وزاد فى مديحه إعلاء للسجيا العربية حتى أوصلها إلى عنان السماء ، كل ذلك فى عصر لم يكن غير العربى يتحرج من المجاهرة بغير ذلك ، بل ويجد فى ذلك ميزة له على العربى ، وهو ما عرف بـ " الشعوبية " فلو كان ذلك – مثلا – فى العصر الأموى لقلنا كان فعل ذلك من الشاعر تقية ، وخوفا لأن الأمويين عرفوا بالنعرة العربية العارمة ، والتنكر لمن سواهم .

أما أن يحدث ذلك من شاعر عباسى – عاش فى ظلال العباسيين الذين أفسحوا صدورهم ، ويزلوا ودهم ، وعملوا على تقريب المسافة ، ورأب الصدع وإنابة

الفوارق بينهم وبين غيرهم من غير العرب ، فظنى أن هذا الكلام لا يخرج إلا من نفس عربى قح ، ومن قال بغير ذلك ففى كلامه نظر .

\* ثم إن من قال بنصرانيته نقول له ، هل الوصف بالعروبة يتنافى مع الوصف بالنصرانية ؟ - وإن كنت لا أميل إلى ذلك - أليس من العرب من هو نصرانى ؟ !

يقول ابن المعتز عن محمد بن قدامة أنه قال : ( دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى ، فوقفت ساعة لا أعلم بكانى لما هو فيه ، ثم رفع رأسه ثم نظر إلى وسلم على ، فقلت له : يا أبا تمام إنك لتنتظر في الكتب كثيرا ، وتضمن الدرس ، فما أصبرك عليها !

فقال : والله ما لى إلف غيرها ولا لذة سواها ، وإنى لخليق أن أتفقدتها أى أحسن وإذا بحزمتين : واحدة عن يمينه ، وواحدة عن شماله ، وهو منهمك ينظر فيهما ويميزها من دون سائر الكتب فقلت : ما الذى أرى عنايتك به أؤكد من غيره ، قال : أما التى عن يمينى فاللغات وأما التى عن يسارى فالعزى ، أعبدتهما منذ عشرين سنة فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد " صريح الغوانى " وعن يساره شعر أبى نواس<sup>(١)</sup> .

وقد أخذ خصوم أبى تمام من هذا النص أنه كان يخل بفروضة بل ادعى بعضهم عليه بالكفر .

لكن الصولى نبه إلى ناحية ، ولعله أول من يشير إليها ألا وهى - معتقد أبى تمام الدينى - وقد كان بعض الناقدين يتخذ منها منفذا للطعن على أبى تمام .

١ - طبقات الشعراء ص ٢٨٤ .

وقد دافع الصولي عن أبي تمام من زاوية النقد الأدبي ، ومن زاوية صحة الخبر ، فقال مصورا موقفه القوي : ( وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سببا للطنن على شعره وتقبيح حسنه ، وما ظننت أن كفرا ينقص من شعر ، ولا أن إيماننا يزيد فيه ) .

ثم حاول أن يفي عن التهمة فقال : ( فكيف يصح الكفر عند هؤلاء على رجل شعره كله يشهد بضد ما اتهموه به )<sup>(١)</sup> .

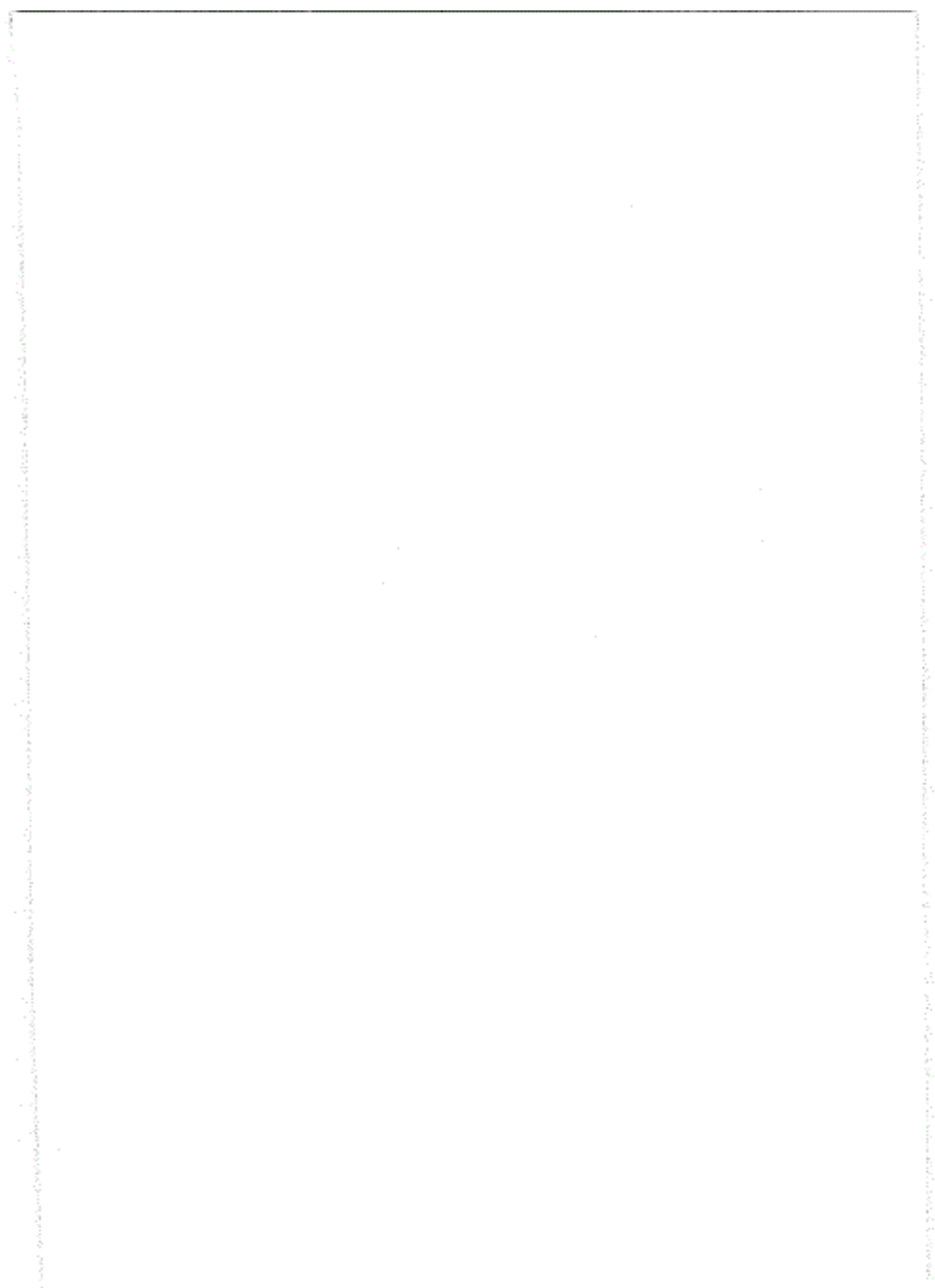
ثم إنه لو كان نصرانيا - أو كان يظهر الدين الإسلامي بهذه الهالة القدسية في كل موقعة يظفر فيها بالشرك والكفر - ممثلا كلا من الإسلام والكفر في إبنائه ونبيه ، والمدافعين عنه ؟ وفوق ذلك كله علمه الشديد بدقائق الدين ووقائعه وغزواته القديمة - قبل عصره - التي لا يتثنى علمها إلا لمن نشأ نشأة إسلامية بحثة وظلت تلك الوقائع تتردد على أذانه .

وبعد ذلك علمه القوى الراسخ الملم بأيام العرب ووقائعهم وغزواتهم ، والتي كان النصر فيها لهم ، أولغيرهم سواء قبل الإسلام أو بعده .

ثم إن أغلب الشعراء الذين اختار لهم شعرا وضمنه حماسته كانوا ينحدرون من أصول عربية ، بينما كانت القلة القليلة مولدة " محدثة " وذلك مما يشهد بالعروبة لأبي تمام غير شعره .

( وكفاه فخرا أنه إذا استشفع به المذنبون قبلت شفاعته فيهم . ولقد حدث أن بعض من لا يعرف الشعر كان يدخل على المجالس ومعه شعر صنعوه له ليتكسب به ، فكان يدعى أنه لأبي تمام الطائي ليحتل مركزا في القلوب )<sup>(٢)</sup> .

١ - اختيار أبي تمام ص ١٧٢ - ١٧٣ .  
٢ - عبقريّة أبي تمام ص ٦٧ .



## المصادر والمراجع

- ١- أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم - عمر فروخ - مطبعة الكشاف - القاهرة
- ٢- أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره - نجيب محمد البهيتي - دار الثقافة -  
الدار البيضاء .
- ٣- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر - عبده بدوي - الهيئة المصرية العامة  
للكتاب .
- ٤- أبو تمام - عصره - حياته - شعره - محمد رضا مروة - دار الكتب العلمية -  
بيروت .
- ٥- ابن الرومي - حياته من شعره - عباس العقاد - مكتبة غريب - القاهرة .
- ٦- أخبار أبي تمام - أبو بكر الصولي - نسخة مودعة بدار الكتب المصرية .
- ٧- أسرار البلاغة - الإمام عبد القاهر الجرجاني - مطبعة الشرقي - مصر .
- ٨- الأسس الجمالية في النقص العربي - عز الدين اسماعيل - دار الشؤون  
الثقافية - العراق .
- ٩- أصول النقد الأدبي - أحمد الشايب - مكتبة النهضة المصرية الحديثة .
- ١٠- أعلام الشعراء العباسيين - سليمان هادي الطعمة - بيروت .



- ١١- الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - تحقيق محمد عبد السلام هارون -  
دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١٢- تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات - دار نهضة مصر .
- ١٣- تاريخ الأدب العربي - الأعصر العباسية - عمر فروخ - دار العلم للملايين -  
بيروت .
- ١٤- تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول - محمد عبد المنعم خفاجي - مكتبة  
الكلبيات الأزهرية - مصر .
- ١٥- تاريخ بغداد - أبو بكر بن أحمد بن علي الخطيب البغدادي - دار الكتب  
العلمية - بيروت .
- ١٦- تاريخ دمشق - ابن عساكر - دار احياء التراث العربي .
- ١٧- تاريخ الموصل - الأزدى - تحقيق علي حبيبة .
- ١٨- حصاد الهشيم - المازني - المطبعة المصرية .
- ١٩- حماسة أبي تمام وشروحها - محمد حسين نقشة - الهيئة العامة للكتاب .
- ٢٠- خزانة الأدب - عبد القادر بن عمر البغدادي - تحقيق عبد السلام هارون -  
دار الكتاب العربي - القاهرة .

٢١- الخصومات البلاغية والنقدية فى صنعة أبي تمام - عبد الفتاح لاشين -  
دار المعارف .

٢٢- دراسات فى الفكر العربي - ماجد فخري - بيروت .

٢٣- دفاع عن البلاغة - أحمد حسن الزيات - عالم الكتب - القاهرة .

٢٤- دائرة المعارف الإسلامية - عبد الحميد يونس - دار الشعب - القاهرة .

٢٥- دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجاني - مطبعة الشرقى - القاهرة .

٢٦- ديوان أبي تمام بشرح الخليل التبريزى - تحقيق محمد عبده عزام -  
دار المعارف - مصر .

٢٧- الرثاء - شوقي ضيف - دار المعارف .

٢٨- سرح العيون - شرح رسالة ابن زيدون - ابن نباتة المصرى - ط مصطفى  
الباني الحلبي .

٢٩- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - بهاء الدين بن عقيل - دار التراث -  
القاهرة .

٣٠- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - أبو الفلاح عبد الحى بن العماد  
الحنبل - مكتبة القدسي - مصر .

٣١- الشعراء المحدثون في العصر العباسي - العربي حسن درويش - الهيئة العامة للكتاب .

٣٢- الشعر والشعراء - ابن قتيبة - تحقيق أحمد محمد شاكر - دار التنوير العربي .

٣٣- الصورة الأدبية - مصطفى ناصف - دار مصر للطباعة .

٣٤- ضحى الإسلام - أحمد أمين - مطبعة النهضة المصرية الحديثة .

٣٥- ظهر الإسلام - أحمد أمين - مطبعة النهضة المصرية الحديثة .

٣٦- عبقرية أبي تمام - عبد العزيز سيد الأهل - دار العلم للملايين - بيروت .

٣٧- العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي - ط الجمالية - القاهرة .

٣٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - ابن رشيق القيرواني - دار الجيل - بيروت

٣٩- عيار الشعر - محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي - ط القاهرة .

٤٠- الفقر والحماسة - حنا الفاخوري - دار المعارف .

٤١- الفن ومذاهبه في الشعر العربي - شوقي ضيف - ط دار المعارف .

٤٢- في الأدب والنقد - محمد مندور - نهضة مصر .

٤٣- الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار بيروت .

- ٤٤- لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف .
- ٤٥- اللغة الشاعرة - مزايا الفن والتعبير فى اللغة العربية - عباس العقاد - مكتبة غريب - القاهرة .
- ٤٦- مجانى الأدب فى حداثق العرب - الأب لويس شيخو اليسوعى - مطعة الآباء اليسوعيين .
- ٤٧- المختار من كتاب الصنائع - أبو هلال العسكري - وزارة الثقافة .
- ٤٨- مدرسة أبى تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين - عبد المتعال الصعدي - دار الكتب المصرية .
- ٤٩- المديح - سامى الدهان - دار المعارف .
- ٥٠- مروج الذهب - المسعودى - دار الفكر - بيروت .
- ٥١- معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسي الأول - محمد نبيه حجاب - دار المعارف
- ٥٢- معجم البلدان - ياقوت الحموى - دار احياء التراث العربي .
- ٥٣- من حديث الشعر والنثر - طه حسين - دار المعارف .
- ٥٤- الموشح - أبو عبد الله المرزبانى - دار نهضة مصر .
- ٥٥- الموازنة بين الطائيين - الأمدى - الناشر محمد على صبيح - القاهرة .

- ٥٦- النقد الأدبي - أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية الحديثة .  
٥٧- النقد الأدبي الحديث - محمد غنيمي هلال - مطابع الشعب .  
٥٨- النقد الأدبي عند العرب - محمد طاهر درويش - دار المعارف .  
٥٩- النقد التطبيقي والموازنات - محمد الصادق عفيفي - مؤسسة الخانجي -  
مصر .

- ٦٠- النقد المنهجي عند العرب - محمد مندور - دار نهضة مصر .  
٦١- هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام - يوسف البديعي - مطبعة العلوم - القاهرة  
٦٢- الوساطة بين المتنبي وخصومه - القاضي عبد العزيز الجرجاني - ط القاهرة .  
٦٣- وفيات الأعيان - أبو العباس شمس الدين بن خلكان - تحقيق احسان  
عباس - دار صادر - بيروت .